

من الشرق
والغرب

الاشتراكية والحرب

بقلم: ادوارد كارديللى
ترجمة: الدكتور شريف حتاته
وأحمد رفاعى

مقدمة

منذ أمد طويل ، وأعمدة الصحف الصينية وكلمات عديدة من المتحدثين الرسميين الصينيين ـ بما فيهم اكبر قادة الحزب والدولة ـ تفيض بكل انواع الهجوم على سياسة يوغوسلافيا الخارجية ـ وبالذات على مفهومنا عن سياسة التعايش السلمى الايجابى بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة •

وعندما أقول « الهجوم » فذلك لان الامر ليس حالة من حالات النقد المعتادة ، وليس بحال من الاحوال صورة من صور النقد فى اطار الحركة الاشتراكية ، ولكنه بوضوح حملة سياسية معادية موجهة ومنظمة بحماسة غير عادية ، وبنية واضحة لاتستهدف ممارسة الضغط السياسى على يوغوسلافيا وعلى الشيوعيين اليوغوسلاف فقط ، وانما تستهدف أيضا ميادين أوسع من هذا النطاق ، فى ميادين التطور السياسى لهذا العصر • فهذا الحماس الشديد الذى تمارس به الحملة يدل بوضوح على انها ليست تعبيرا عن مجرد عدم ارتياح الصين لسياسة يوغوسلافيا الخارجية ـ أى سياسة دولة صغيرة من دول أوربا ـ فحتى اذا كانت دولة كهذه قد ارتكبت افدح الاخطاء ، فان هذا لا يمكن أن يمثل اى تهديد أو ينزل أى ضرر بالنسبة للاشتراكية الصينية ـ انه لمن الجلى ان ضغط الهجوم الصينى الموجه ضد الجبهة الاشتراكية كلها على نطاق العالم فى الآونة الحاضرة انما يهدف الى فرض حلول معينة

بالذات للمشاكل التى تواجه قوى الاشتراكية فى عالم اليوم • ولم يعد خافيا ان الهجوم الصينى لا يستهدف فقط ، ولا حتى بشكل أساسى ، يوغسلافيا وانما هو يستهدف القوى الاشتراكية أيا كانت ، مالم تبصم على طريقة السياسة الخارجية الصينية فى معالجة المشاكل •

ولا شك ان الثورة الصينية من ابرز معالم هذا العصر الذى نعيش فيه • ومن أجل ذلك ، فنحن لانستهدف ـ مهما كان الأمر ـ ان ننظر الى كافة سمات الثورة الصينية من خلال الخلافات الحالية فى وجهات النظر بيننا وبين الصينيين• ومن ثم ، فنحن عندما نتعرض بالنقد لبعض سمات السياسة الصينية ، فان هذا لا يعنى اطلاقا اننا لم نعد نرى ما قدمته ثورة الصين وما زالت تقدم ، من خير فى عالم اليوم • كذلك نحن ندرك ان انتصار الثورة الصينية كان من عمل القوى الثورية فى داخل الصين ، تحت قيادة الحزب الشيوعى ، التى انتصرت على تحالف القوى الاستعمارية والرجعية الصينية ـ وان ذلك العنصر الذى احرز فى مثل تلك الظروف قد خلق جماعة كبيرة من الكادر الثورى القدير •

واوجد فى صفوف الثورة الصينية والحزب الشيوعى احساسا قويا بالاعتماد على النفس ، فادرك ضرورة رسم الطريق لهذه الثورة بشكل مستقل •

هذه العوامل كلها ليست محل نقاش بل ان لها اثرها الخلاق ، طالما الثورة توجه اهتمامها الى الداخل وتكرس جهودها لخدمة تطورها وتقدمها غير انها تنقلب الى النقيض ، اى الى شكل محدد من محاولة السيطرة على الآخرين ، فى اللحظة التى تحاول فيها ان تفرض نفسها وأسلوبها فى النظر الى المشاكل على الآخرين سواء عن طريق القوة أو بالضغط السياسى •

وعلى ذلك ، فنحن حينما ننتقد بعض مظاهر السياسة الصينية وبالذات ما يتعلق منها بالهجوم على يوغوسلافيا الاشتراكية ، فنحن لا نقصد من ذلك أن نقدم وجهة نظرنا الأيديولوجية للشيوعيين ليستبدلوا وجهة نظرهم بها ، ولكننا نريد ببساطة ان نمنعهم من أن يفرضوا نموذجهم الأجنبى الخاص بهم علينا • اى اننا مبدئيا نرفض أى تسلط مقنع بغلاف من العبارات الثورية ، كما اننا نرفض بالمثل التسلط الذى تحاول بقايا الاستعمار المعاصر فرضه علينا •

والشوعيون اليوغوسلاف ، وهم يحللون تطور الثورة ، لا يحكمون

بالمرة بناء على دوافعهم الذاتية ـ وانما يتوخون دائما اقامة تحليلاتهم على طريقة علمية ـ طريقه ماركسية • الثورة في كل بلد من البلاد تختلف عنها في أى بلد اخر وينبغى ان يتأكد ، ويتطور مدى تعبير الثورة عن العوامل والعلاقات الاشتراكية : والمدى الذى تفرض به العوامل الاجتماعية الأخرى مثل بقايا البورجوازية والعقلية المتأثرة بالملكية الخاصة والتخلف الاقتصادى بشكل عام ، والبيروقراطية وتسلط الدولة والنعرة القومية لدى الدول الكبرى •• وما الى ذلك ، انما يعتمد على كثير من الظروف المادية والعوامل الاجتماعية الداخلية • وليس من قبيل المصادفة النادرة بالنسبة للشعارات الثورية انها تظل فارغة عندما يتغير المضمـون • وعند القيام بتحليل موضوعى ينبغى الفصل بين ما هو ذاتى وما هو موضوعى بمعنى ألا ندع الشـعارات أو البيـانات السـياسية تحجب النظر عن الجوهر الحقيقى للأشياء •

فالصين ـ وفقا للتحليل الماركسي ـ ليست محتوى مجرد لبـلد اشتراكى ، فكما أن الاشتراكية حقيقية واقعة فهى أيضا عملية يتم فيها التعبير عن مختلف العلاقات الكمية المتباينة ، والتى هى أيضـا علاقات كيفية •• أو بمعنى آخر ، قد يوجد خلف نفس النماذج الايديولوجية كثير أو قليل من الاشتراكية ، وكثير او قليـل من العوامل والعنـاصر غير الاشتراكية • وهذه الخلافات لا يمكن التغلب عليهـا بمجرد الرغبة فى الوحدة لانها انما تقوم على أساس اقتصادى واجتماعى قائم ، ولانها تعتمد كذلك على العوامل الشخصية التى لها اثرها ، وبالذات حينمـا يكون هؤلاء الأشخاص هم السلطة الحاكمة •

ومن ثم ، فان من الخطأ ان ينكر المرء الطابع الاشتراكى لبلد ما عندما تختلف معه حول هذه القضية العابرة او تلك ، كما انه من الخطأ أيضا أن نعتقد ان مجرد وجود بلد ما فى الطريق الاشتراكى يعنى أوتوماتيكيا انتفاء كافة امكانيات تشعب وجهات النظر وتباينها • فما دامت العوامل القوية الموروثة عن النظام القديم وطرق الادارة الحكوميـة القديمة تحدث اثارها فى تطور الاشتراكية ، فسوف يظل فى الامكان حدوث خلافات حادة فى وجهات النظر ، وخاصة اذا ماحاولت العوامل القديمة البالية ان تفرض نفسها على الدول الأخرى بالقوة ، باسم التضامن الاشتراكى والايديولوجية الاشتراكية ، ومن أجل ذلك فان أى اتجاه لغرض السيطرة على الآخرين ، انما يتعارض تعارضا عميقا مع المصالح الاساسية للاشتراكية العالمية •

لقد دخلت الثورة الصـينية أخيرا فى دور جديد من أدوار تطورها

حيث تمارس كافة العوامل المادية والاجتماعية فى المجتمع الصينى نفوذها بالكامل ، مكسبة ذلك التطور شكلا وطريقا خاصا • ثم ان التطور الداخلى له أيضا تعبيره السياسى من الناحية الدولية • ونحن بالطبع لاتحدونا أى رغبة فى التدخل فى التطور الداخلى للصين • ولكن حيث هناك انعكاسات دولية مباشرة لهذا الامر ، لها تأثيرها سواء علينا أو على الاشتراكية ، وكذا فى تلك المتعلقة بالسياسة الدولية للاشتراكية ، لكن لمصادر هذا المفهوم وجوهره الكامن وراء الاتجاه الحالى للصين فى السياسة الدولية ، والذى تقوم على أساسه الحملة الصينية ضد اليوغوسلاف •

ولقد تجنب الشيوعيون اليوغوسلاف الاشتباك فى جدل مع الصينيين بكافة الوسائل ، ولم يردوا الهجوم الا فى أضيق الحدود ، وذلك لسبب جوهرى • هو انهم يضعون فى اعتبارهم ان على المرء – حيال الخلاف الموجود حاليا فى الرأى – ان يقدم الجهود التى توحد ، لا تلك التى تقسم •

وما من شك فى أنه توجد بيننا وبين قيادة الحزب الشيوعى الصينى خلافات فى وجهات النظر المتعلقة بالأشكال المتعددة لبناء – الاشتراكية ، وكذا فى تلك المتعلقة بالسياسة الدولية للاشتراكية ، لكن المصالح المشتركة – أهم بكثير من هذه الخلافات • واول هذه المصالح هو التضامن الاشتراكى الذى كثيرا ما تشير اليه القيادة الشيوعية الصينية • وفى ظل هذه الظروف يبدو من الطبيعى ان تبذل الجهود من أجل زيادة التعاون فى هذه الميادين ، حيث تبدو المصالح المشتركة واضحة لا مجال للخلاف حولها ، على ان نترك للتجربة ولتطور الفكر الاشتراكى وللمناقشات الاشتراكية ان تخلق الظروف الملائمة لتسوية الخلافات فى الرأى ، وخصوصا أن الهدف الحقيقى هو مصلحة الاشتراكية •

ان الخلافات فى الرأى ليست ضررا بل هى شريعة التقدم والشكل الوحيد الممكن لاختبار الافكار • غير انه واضح ان من يطبقون سياسة الصين يرون غير هذا الرأى • ولذلك فهم يواصلون بعناد حملتهم غير المبدئية التى تتضح بجلاء فى نقدهم لسياسة اليوغوسلاف الخارجية • لا بهدف تكتيكى فحسب ، ولكن بهدف أبعد من هذا ، هدف استراتيجى يكمن خلف الحملة ، هو اخضاع السياسة الدولية بأسرها لمفهومهم ، أو بالأحرى للمصالح التى يتأسس عليها هذا المفهوم •

اما نحن ، فليس لدينا ، على اية حال نية الخضوع لذلك ، ولن نسمح لكائن من كان أن يشوه باسم الماركسية الحقيقية سياسة

يوغوسلافيا خدمة لاهدافه الخاصة ، حتى يخفى حقيقة سياسته ، ودون أن يقدم تفسيرا لها • ومن حق الشعب اليوغوسلافى ان يعرف السبب الحقيقى للحملة الصينية التى تشن ضد يوغوسلافيا الاشتراكية ، تلك الحملة التى لاتتعلق فقط بيوغوسلافيا ولكن أيضا بعديد من قضايا الاشتراكية المعاصرة • ومن ثم ، ولأجل هذا السبب بالذات يبدو من الضرورى أن نسبر غور الهجوم الصينى ضد سياسة يوغوسلافيا الخارجية من حيث مضمونه ونتائجه النهائية ، وأن نتبين الدور والمغزى التاريخى لذلك التيار السياسى الذى يعبر عنه فى هذا الهجوم •

وانى لتحدونى الرغبة فى بحث هذه المسائل فى هذا الكتاب • وأنا بالطبع لن أرد على القذف والشتائم والتزييف • فهذه الاشياء لا تعنى شيئا سوى القاء الضوء على فلسفة السياسة البرجماتية (١) التى تؤكد أن أصحابها انما يكشفون للعالم عن مدى انخفاض الروح الاشتراكية الحقة فى بلادهم ، بينما تسفر فى نفس الوقت عن مدى سيطرة روح التسلط عليهم • والكتاب الذين يقومون بحملة القذف المعادية ليوغوسلافيا يظنون انهم سيضيفون جديدا بهذا الصراخ الى اقتباساتهم الشكلية من المراجع الرسمية ، وأن القوة الغاشمة تسمح لهم بالوصول الى حد الاستهتار فى محاولتهم عرض مقوماتهم ومصالحهم السياسية الخاصة • وعلى أية حال فموضوع التحليل المقدم فى هذه الدراسة لن يكون جانبه الاساسى الاهتمام بالهجوم الموجه ضد سياسة يوغوسلافيا الخارجية فى حد ذاته بقدر ما يكون اهتمامه بالجوهر الداخلى للايديولوجية السياسية التى ينبع منها ذلك الهجوم • وعلى ذلك فان الهدف من تفسيرنا لحملة الصين المعادية لليوغوسلاف سيكون فى الدرجة الأولى الاجابة على سؤالين :

أولا : هل المفاهيم الصينية للسياسة الدولية التى تكمن فى هذه الحملة تنتج حقيقة من الاشتراكية والماركسية كما يدعى واضعو هذه السياسة ؟

ثانيا : ما هو الاثر التاريخى لتلك المفاهيم ، أى ما هو جوهرها الواقعى ، والى أين تؤدى بغض النظر عن الصورة التى يعرضونها أو يتصورونها فيها ؟ •

---

(١) مذهب يقوم على أساس النفعية العملية •

الفصل الأول

الأيديولوجية الصينية والواقع الصيني

عندما نستخلص الجوهر الحقيقى لهجمات الصينيين على سياسة يوغوسلافيا الخارجية ، بعيدا عن الكلمات الجوفاء ، والافتراءات ، والقشور الجلدية ، والشعارات السياسية العامة ، فاننا سنجده فى النهاية يتلخص فى الحجج الأساسية التالية :

الحجة الاولى مؤداها أن الشيوعيين اليوغوسلاف مراجعون . وان مراجعتهم مبعثها خوفهم من الامبريالية ومن الحرب . وان جبنهم هذا قد دفعهم الى الاخذ بسياسة المساومة الانتهازية مع البرجوازية والامبريالية . وبذلك ، انحدروا من موقف تسوية الحساب مع الرأسمالية تسوية ثورية الى موقف اصلاحي ، ويسمونه الآن بنظرية النمو السلمى للرأسمالية الى الاشتراكية . ولكى يخفوا هذه الحقيقة ، راحوا يزينون واجهة الامبريالية ، مساعدين بذلك الامبريالية الامريكية. بل انهم ابتدعوا سياسة التعايش الايجابى التى ليست الا وسيلة لاخفاء سياستهم الانتهازية .. لكى يصلوا الى هذه الغاية .

والحجة الثانية مؤداها انه على النقيض من هذه الانتهازية اليوغوسلافية ، فان الشيوعيين الصينيين لا يخافون الامبريالية أو الحرب ، وانما هم يدعون الى تسوية جذرية للحساب بين عالم الاشتراكية والعالم الرأسمالى فى صدام ثورى .. فاذا انقلب هذا الصدام الى حرب ، فانها ستكون حربا عادلة ، لا ينبغى للمرء أن يخشاها أو يستنكرها لأن التضحيات ، سوف تجد سريعا ما يعوضها

ثم يذهب الشيوعيون الصينيون الى ابعد من ذلك فيقولون ان توكيد امكانية أى تعايش دائم بين العالم الاشتراكى والعالم الرأسمالى ـ الامبريالى ، انما هو أمر ضار ، ووهم من الاوهام .

ان المنظرين الصينيين يرون أنه ـ لابد ـ آجلا أو عاجلا ـ من صدام حتمى بين العالمين . ومن هنا فلا محل هناك ، فى رأيهم للحديث عن التعايش ونزع السلاح وسياسة الوصول الى اتفاق وما الى ذلك ، الا اذا كان ذلك بغرض كشف النقاب عن حقيقة الامبريالية . ومن ناحية أخرى ، فان اتخاذ مبدأ التعايش السلمى كمبدأ دائم وجوهرى للسياسة الخارجية الاشتراكية ، يصبح ـ طبقا لهذا المفهوم ـ بمثابة تخل عن الاسلوب الثورى لحل المتناقضات فى عالم اليوم . ذلك ان حديث اليوم عن الطرق السلمية للصراع من أجل الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية أى الى حكم الطبقة العاملة ـ لا يصبح ـ طبقا لهذا المفهوم بعيدا عن الواقع فحسب ـ باعتبار أن البروليتاريا لا تستطيع التغلب على عنف الثورة المضادة الا بالعنف الثورى ، ولكنه يصبح

أيضا ضربا من الحماقة والانتهازية . لأنه لا ينبغى للبلاد الاشتراكية ان ترفض امكانية تســـوية الحساب مع الامبريالية بطريقة ثورية ، كما لا ينبغى عليها ان تهرب حتى من الحرب . فى وقت تتعاظم فيه قواها بمثل هذه السرعة .

فاذا ارجعنا هذه الحجج ، الى اسسها ، كمـا تبدو فى اعين الصينيين ـ فاننا سنخرج بالصورة التالية : الشيوعيون اليوغلاسلاف انتهازيون . اما الشيوعيون الصينيون فهم ثوريون اصلاء . ولا حاجة للقول بان كلا من هذين الوصفين ـ يدعم ـ حسب وجهة نظر الماركسية الاصيلة ـ بموقف معصوم من الخطأ ـ كما يقال . وهكذا ، تصاغ المقتطفات وتفسر الادبيات الكلاسيكية للماركسية بشكل تعسفى حتى توائم هذا الفرض . ولكن ، الواقع أن كلا من الادعاءين لا يقل زيفا عن الآخر ، وان هدفهما معا هو تشويه الصورة الحقيقية للامور ، واخفاء الجوهر الحقيقى للخلاف فى الرأى ، خلف سحابة من الضباب .

والشىء الذى يتضح للمرء للوهلة الاولى ان هذه النظرة انما تعكس فهما ساذجا ومحدودا للغاية كما قدمته الماركسية حول الثورة الاشتراكية . هذا ، الى انه من الواضح أن هؤلاء الماركسيين الاصلاء . فى الصين لم يهتموا بالماركسية فى بعض الحالات الا بالقدر الذى يلزمهم لكى يستخدموا بنجاح أسلوبا معروفا ـ بل مفضوحا ـ فى الصراع غير المبدئى . فانها لحيلة عتيقة ومعروفة جيدا ، تلك التى تقوم على أساس أن أسهل الطرق لخنق فكرة تقدمية ما ، وتشويهها هو تفسيرها بشكل يقلبها الى النقيض . بيـــد أن المنظرين الصـينيين ـ اذ يلجأون الى مثل هذه الاساليب انما ينسون انها اصبحت عديمة الجدوى فى هذه الأيام التى يتسع فيها نطاق الاشتراكية وتتزايد قواها . فقد أصبح الفكر الاشتراكى اليوم هو جوهر النشاط الاجتماعى الواعى لجموع غفيرة من الناس ، ولعدد كبير من الامم على الصعيد العالمى ـ الى حد انتهى معه ـ سواء رضوا بذلك أم لم يرضوا ـ عهد ستالين « منبع الحكمة الفياضة » ، وانتهى معه احتكاره للحقيقة التى لا يجرؤ احد على مخالفتها ، وانتهى معه كذلك عهد عبادة الفرد مهما كان عظيما ، ومن ثم ، فلن يضار سوى الشيوعيين الصينيين أنفسهم ، اذا ما تبنوا لانفسهم هذه التركة المثقلة بالديون .

والآن ، دعـونا ـ على العـكس من هـذه القطعـة الملفقة من « الايديولوجية » الصينية ـ نلق نظرة على الحقائق ، ولنبذل محاولة لتفسير الجوهر الحقيقى للخلاف حول قضايا السـياسة الدوليـة للاشتراكية دون أن نستثنى من ذلك مسـألة الانتقال السـلمى الى

الاشتراكية ، وهي المســألة التي يربطها المنظرون الصينيون – لا نحن – بتلك الخلافات . وذلك لأسباب محددة تماما .

وهنا نجد أن أول مايتعين علينا ان نفعله هو أن نلفت النظر الى ان القائمين بأمر الهجوم الصينى ضدنا يكلفون أنفسهم عناء كبيرا كى يضفوا على هجمــاتهم مظهر الخــلاف الايديولوجى والنظرى حــول الماركسية وهذه حيلة لا تقل نفاقا عن منافاة الماركسية والنقاد الصينيون يسعون بهــذه الطريقة – عمدا – وبدون ذكاء – الى اخفاء الجوهر المــادى الحقيقى للمسألة .

نعم ، لا شك ان هناك خلافات ايديولوجية ، فنحن لنا رأينا الخاص فى « ماركسية » أولئك الكتــاب الصينيين الذين يهاجمون يوغوسلافيا ، وان كنا لا ندعى اننا نعز على النقد ، أو اننا المفسرون « الاصلاء الوحيدون للماركســية .. ولكن جــوهر القضية لن يجد ما يفسره فى الخلافات الايديولوجية وحدها .

وعلى طول تاريخ الانسانية – حتى اليوم – لا تكاد الخــلافات الايديولوجية تخرج عن احد وجهين . اما ان تكون نزاعا فلسفيا محضا فى نطاق التجريدات المذهبية العقائدية وفى حدود حلقة ضيقة للغاية من الناس ، واما ان تكون انعكاسا خــارجيا لتناقضــات ســياسية واجتماعية واقتصــادية حقيقية . ونحن نلتقى بهذين النوعين من الخلافات مع تطور الأفكار الاشتراكية الحديثة . بيد أن الواضــح انه يتعين علينا أن نهتم أساسا بالنوع الثانى .. عندما نتناول الهجــوم الصينى على يوغوسلافيا .

ولا يغير الأمر كل تلك المحــاولات القيمة التى يبذلها الكتــاب الصينيون لكى يحولوا الماركسية الى قوالب ايديولوجيــة تجــريبية تتشكل بما يلائم احتياجات سياسية معينة ، لأن المسألة فى النهاية هى كما قال « ماركس » ان الناس ليسوا كما يظنون أنفسهم ، وانما كمــا هم فى الواقع » . وهذا قول يصدق على الشيوعيين كما يصدق على أى كائن عاقل آخــر على ظهر الأرض .. ومهما حــاول الشــيوعيون الصينيون أن يتدثروا بثياب المدافعين عن الماركسية « الاصيلة » فان ايديولوجيتهم ستبقى تعبيرا عن واقعهم الاجتماعى الخاص ومشاكله . ونحن لدينا عن هــذه المشاكل – فهم أكبر بالتأكيد من فهمنــا لتلك « الماركسية » التى هبط بها مدبجو المقالات الصينية الى مســتوى يجعلها تحمل – رغم أنفها – عبء الحملة السياسية الكريهة ضــد يوغوسلافيا . وبعبــارة أخرى ، أن المسألة بالنسبة لنا ببساطة ، اذا تناولناها من الناحية التاريخية – هى ماذا تعنى فى حقيقة الأمر تلك

الحملة الصينية ضد سياستنا الخارجية وضد مبدأ التعايش ؟ وكيف نعالج تلك المشكلة التي تواجهنا بالتحديد في هذه « الماركسية » التي يستغلها الكتاب الصينيون بدون اشفاق ، اشباعا لاحتياجاتهم العملية يوما بعد يوم ؟ .

وليس لدى ـ بالطبع ـ أدنى نية للدخول في مناقشة حول أي «الماركسيتين» أفضل ، أو « أقرب الى الصواب » ، « اليوغوسلافية » أم «الصينية» أم أية «ماركسية» أخرى . فالماركسية ـ شأنها شأن أي علم كان ـ في متناول الجميع . ولكن المدى الذي يصل اليه أي انسان في تطبيق هذا العلم لا يتوقف فقط على رغبته في أن يكون ماركسيا . وهذا هو السبب في اننا لا نلوم على النقاد الصينيين ان ماركسيتهم لا تفيد الا في مجرد تغطية سياستهم .. وان كان هذا بالذات نفس ما يلوموننا عليه . ولكننا لا نرى انه من الممكن تبرير سياسة أي انسان ، أو تبرير أي نوع من السياسة ، بمجرد مقتطفات من الادبيات الكلاسيكية اللينينية ، كما نرى انه لا يجوز أن تفرض مثل هذه السياسة فرضا بحجة انها «الماركسية الوحيدة» . ذلك ان أي تبرير ذاتي من هذا النوع ، وحتى لو كان مخلصا ، فلن يكون له أكثر من مجرد قيمة نسبية .

ان الماركسية ـ كما تأكد دائما ـ ليست عقيدة جامدة ، وانما هي مرشد للعمل . وبالتالي **فان الشيء الذي يحسم ما يستحقه عمل المرء من تقدير ، ليس هو مقدار ما يجده من المقتبسات الملائمة لتبرير هذا العمل او ذاك ، أو لتبرير وجهة نظره الشخصية في هذا « الدليل » الماركسي ، وانما هو النتيجة الاجتماعية التاريخية لعمله** . ان هذه النتيجة وحدها هي التي تحدد ما اذا كان ذلك الانسان قد أجاد استخدام الماركسية كمرشد للعمل ، أو أساء ، استخدامها .

وعلاوة على ذلك ، فانه يوجد الآن كثير من العناصر والقطاعات الاجتماعية المختلفة التي تتحدث باسم الماركسية ، بحيث أصبح من الواضح انه لا معنى لادعاء أي انسان كان انه حامي حمى الماركسية « الحقيقي الوحيد » . فلقد قدمت الماركسية عديدا من الاكتشافات العلمية في ميدان التطور الاجتماعي ، كما قدمت الى جانب ذلك منهجا علميا لتحليل المتناقضات الاجتماعية أي لامكانية توجيه حركة التطور الاجتماعي بوعي أكثر مما كان في أي وقت مضى ـ هو من مفاخر هذا العصر . وبهذه الطريقة أثرت الماركسية وما زالت تؤثر على كافة آفاق الوعي الاجتماعي .. ابتداء من هؤلاء الذين يقولون انهم وحدهم الماركسيون «الحقيقيون» . بل ان الاقتصاد السياسي البرجوازي في عصرنا هذا قد

اكتسب كل ما هو جديد وعلمي فيه بالفعل أساسا من الماركسية ·· مهما كانوا ينكرون هذه الحقيقة · وان هذه الافاق الواسعة التي مارست فيها الماركسية ، وما زالت تمارس ، نفوذها على التطورات الاجتماعية في عصرنا هي التي اكسبت الماركسية — كعلم — دلالتها كمفخرة من مفاخر العصر ·

وهكذا ، فمع ان الماركسية سلاح لا غنى عنه لأي اجراء اجتماعي تقدمي وواع ، الا ان مجرد الموافقة عليها ، أو على بعض وجوهها ، لايجعل المرء أكثر القوى الاجتماعية تقدما ، أو معصوما من الخطأ · ان عقول الناس وأعمالهم ، في ظل الظروف الاشتراكية أيضا ، تتشكل نتيجة لتداخل العديد من العوامل والعمليات المختلفة · : التطورات المادية ، والاستجابات الذهنية ، والسمات الفردية ، والتقاليد ، والتناقضات ذات الجوانب المتعددة ، والقوى المعارضة ، والتكوين العقلي نتيجة التقاليد وهلم جرا ، ان الماركسية لم تكسب الناس ولا تستطيع أن تكسبهم حصانة ضد تأثير هذه العوامل ·· كما انها لم تهب لأحد من الناس عقلية «مطلقة» مستقلة عن العمليات المادية ·

ان الماركسية ، شأنها شأن كل ايديولوجية ، وكل المعارف العلمية ، عامل من عوامل التطور الاجتماعي ، ولكنها ليست قانونها الداخلي · ومن تم ، فان السياسة الصينية ليست ما هي عليه الآن لانها قائمة على أساس الماركسية ، ولكن لانها انعكاس لعوامل موضوعية وذاتية معقدة محددة في المجتمع الصيني المعاصر ، على الصورة التي تطورت ، أو كان من الممكن أن تتطور اليها بعد الثورة · والدور الذي تقوم به الايديولوجية الماركسية في هذا التطور ، هو واحد من أكبر العوامل ، وأكثرها تقدمية ، ولكن ليس العامل الوحيد ··

وبمعنى آخر ، فان المنظرين الصينيين عندما ينتقدون السياسة الخارجية للبلدان الاشتراكية الاخرى على أساس « ماركس » فانهم في الحقيقة يحاولون فرض مفاهيمهم عن السياسة الخارجية الاشتراكية على الأخرين ··· وهم يفعلون ذلك بادعائهم انهم دون غيرهم المفسرون الوحيدون للماركسية « الحقيقية » · ولكن الحق ان كل ما يفعلونه في الواقع ، هو انهم يفرضون سياستهم على الآخرين ، بينما سياستهم هذه ما هي الا نتاج للظروف الاجتماعية الخاصة بالصين ، والتيارات التي تنبثق من هذه الظروف ، والتي يبدو انها — في هذه الحالة — لا تتفق مع الاهداف الايديولوجية للاشتراكية · فان مجرد الاسلوب الذي تفرض به هذه السياسة على الآخرين — ولعل الحملة الصينية المعادية لليوغوسلاف خير دليل عليه — يدل على ان أصحاب هذه الحملة يحاولون أن يحتكروا

لأنفسهم دورا قياديا ايديولوجيا وسياسيا فى العالم الاشتراكى ..
وبالتحديد ، لكى يخضعوا مصالح العالم الاشتراكى لمصلحتهم الذاتية .

والآن ، فلنختبر تصريحات الصينيين أولا ، عن طريق مقارنتها بالحجج المعروفة ، فى الادبيات الكلاسيكية للماركسية واللينينية .
واسمحوا لى أن أمعن أطول مما يبدو ضروريا – فى اقتباس الكثير من المقتطفات من مؤلفات ماركس وانجلز ولينين ، وكذلك غيرهم من المتحدثين باسم الاشتراكية فى عصرنا هذا ، فانا لا أفعل هذا لكى أثبت اننا وحدنا ، وليس الشيوعيون الصينيون هم « الماركسيون الحقيقيون الوحيدون » ، وانما أفعل هذا لابين ان سياسة الصين فى بعض أوجهها لا يمكن أن يدافع عنها كسياسة اشتراكية أو بنوع خاص لا يمكن الدفاع عنها كسياسة اشتراكية فعالة من وجهة نظر الماركسية ، ومع ذلك ، ورغم ان هذه السياسة لا يمكن الدفاع عنها باعتبارها سياسة « ماركسية » ، الا انه من الممكن تفسير أسبابها ومصادرها التاريخية والاجتماعية ، ومن الممكن أن نراها بدقة على أساس من الماركسية .

الفصل الثاني

"الانتهازية" اليوغوسلافية و"الثورية" الصينية

يبدأ نقد الصينيين للشيوعيين اليوغوسلاف بتوجيه النقد لصفاتهم الخاصة • وهم يقولون ان الشيوعيين اليوغوسلاف يخشون الحرب والاستعمار ، بينما الشيوعيون الصينيون لا يخشونهما • وحيث ان اليوغوسلاف تنقصهم الشجاعة فهم اذن انتهازيون • وحيث ان الصينيين شجعان عنهم فهم اذن ثوريون ، فياله من تفسير كلاسيكى للسياسة ، اذا فرض وكان هناك شيء كهذا !! الا انه فى نفس الوقت أسلوب عتيق ومعروف لاخفاء التيارات غير الثورية وراء العبارات الثورية فى ظاهرها •

ويبدو ان النقاد الصينيين فى حاجة الى تذكيرهم بحقيقة لايمكن أن يكونوا جاهلين بها : تلك هى ان حركة العمال اليوغوسلاف الثورية بقيادة الحزب الشيوعى والرفيق تيتو ابان الحرب العالمية الثانية كانت احدى الحركات القليلة التى أعدت ونظمت وسلحت نفسها وقادت ثورة اشتراكية مظفرة حتى النهاية ، وذلك بتعبئة قوى شعبها • هذه الثورة ، قادها الحزب الشيوعى اليوغوسلافى ، فى وسط أوروبا الهتلرية، حاشدا الجماهير الكادحة من أجل الحرب لا من أجل السلام ، بينما كانت البورجوازية الحاكمة قد استسلمت للغزاة وأعلنت الصلح معهم • والانتصار فى مثل هذه الظروف لم يكن مرجعه المقدرة الثورية والاخلاص لقضية الاشتراكية فقط ، ولكنه كان يرجع أيضا الى البطولة والايمان العميق بامكانية تسوية الحساب مع الغزاة الفاشست والقوى الرجعية فى يوغوسلافيا بطريقة ثورية • وحتى يمكن خوض حرب كهذه لابد من توافر ايمان عميق بالأممية ، وبضرورة العون السوفيتى فى كافة الميادين كركيزة أساسية للثورة فى نضالها ضد الفاشية • ومن ثم فان من الصعب على النقاد الصينيين أن يجدوا من يقنعونه بجبن وانتهازية الشيوعيين اليوغوسلاف كما يزعمون •

بل ، وعلاوة على ذلك ، فما كاد الشيوعيون اليوغوسلاف يبدأون فى تعمير بلدهم الذى خربته الحرب ، وهم فى نفس الوقت يدافعون عن أنفسهم ضد القوى الرجعية فى الداخل والخارج والهادف الى سحق الثورة اليوغوسلافية بواسطة ما يقوم فى وجهها من مصاعب داخلية ـ ما كادوا يبدأون ذلك حتى وآجهوا صعوبات جديدة، خلقها ستالين ونظمها ليمارس بها هو الآخر ضغطه على يوغوسلافيا • ومرة أخرى ، أقدم الشيوعيون اليوغوسلاف على الوقوف فى وجه هذا الضغط ، بل وتمكنوا من الاحتفاظ بالمنجزات الكبرى للثورة الاشتراكية ، ومن المضى قدما فى تطويرها وتدعيم ثقة مواطنيهم فى المستقبل العظيم للتقدم الاشتراكى • وهذا أمر لم يكن يتطلب فقط توافر الاستعداد الثورى والثبات الايديولوجى لديهم،

وانما كان يســـتلزم كذلك مزيدا من الشجاعة والايمان العميق بالقــوة الداخلية العظمى للاشتراكية المعاصرة ، وقدرتها الاكيدة على معالجة كافة المشاكل التى تعترض تطور البلاد الاشتراكية وتعرقل سياستها ٠

هذا بالتحديد ما نجح التسيوعيون اليوغوسلاف فى انجازه ٠ ومن أجل ذلك سيجد النقاد الصينيون انه من الصعب أن يقنعوا أى منصف بان الخضوع الذليل للضغط الاجنبى من شيم الشيوعيين اليوغوسلاف ٠

ومن جهة أخرى ، وعلى وجه التحديد، فان التاريخ الثورى والشجاعة العظيمة للشيوعيين اليوغوسلاف ، والتجارب التى اكتسبوها من نضالهم الخاص ، أو استفادوها من نضال الشعوب الاخرى ، كل هذا قد أعطاهم القدرة على ألا يعتبروا اليسارية الصبيانية مظهرا من مظاهر الشجاعة أو الروح الثورية ، وألا يعتبروا العبـارات الثــورية الجوفاء ، فكرا ثوريا عظيما ، فان كل محاولة لجعل «الثورية » مبدأ مجردا ، انما هى على وجه العموم عرض من أعراض الحالات الايديولوجية المرضية ٠ وفى مجـال التطبيق السياسى لا تكون هذه المحاولات أكثر من مجرد سخافات ، تدل على فشل أصحابها فى أن يحسبوا الظروف الواقعية ٠ أما من وجهة النظر الاشتراكية ، فان هذه المحاولات لا تعدو أن تكون هراء غير قائم على تحليل العــلاقات الموجودة ، ولكنه قائم على تفســيرات ايديولوجية مجردة بل لا نبالغ اذا قلنا ان مثل هذه المحاولات لا تقوم الا على مجرد الرغبات ٠

ومجرد توكيد مثل هذه النظرية ، انما هو سقوط فى ذاتية جامدة٠ وسيترتب على مثل هذه الأفكار للجدلية بالطبع ، نتيجة جدلية خاصة به فالثورية المبالغ فيها تتحول الى ألفاظ ثورية زائفة بعيدة عن التطبيق ٠

وهذه الالفاظ الثورية الزائفة هى الام الرءوم لأبشع أنواع الانتهازية المخربة ، ان مثل هذه الكلمات انما تستخدم لتغطية السلبية الشديدة ، وهى تؤدى فى التطبيق الى التعــاون مع البرجوازية ، أى مع العناصر الاساسية لتطور العالم الرأسمالى ٠

ان الأحزاب الشيوعية التىقاست ، أو التى ما زالت تقاسىمن هذا المرض ــ مرض الانتهازية المغلفة بالعبارات الثورية ، أو التقوقع ، وهما نفس الشىء ــ انما تحكم على نفسهـا بالانعزال عن الواقع وتوغل فى طريق الفشل بسبب يساريتها الزائدة ٠ ان هذه السلبية وهــذا العجز يؤديان فى التطبيق الى فقدان الطبقة العاملة والثوريون الحقيقيون ثقتهم فى أنفسهم ٠ وهذا ــ كقاعدة عامة ــ هو السبب فى ان مثل هذه الأحزاب تترك الميدان السياسى والطبقة العاملة فريسة لتأثير القوى الاجتماعيـة

والسياسية الأخرى • وهكذا فان سياستهم تؤدى فى آخر الأمر الى الالتقاء التام مع الانتهازية •

وفى تاريخ الطبقة العاملة ، كثيرا ما كان لهؤلاء الذين يقصرون نشاطهم على استخدام العبارات الثوريه الزائفة أسوأ أثر على قضية الطبقة العامة والاشتراكية ، بل ربما كان دورهم لا يقل عن دور الانتهازية الاصلاحية • ان التاريخ — حتى فى أحدث فتراته — يمدنا بكثير من الأمثلة عن الأحزاب والشعوب التى تنساق وراء عبارات طنانة ضخمة فى ظل ظروف لم تنضج بعد للعمل الثورى •• فتصبح عاجزة تماما عن القيام بأى اجراء ثورى حقيقى فى اللحظة التى تستدعى فيها الظروف الموضوعية مثل هذا العمل •

وأستطيع هنا أن أقدم أكثر من مثل حى على هذا الأمر ، غير ان هذا لن يخدم ما نتوخاه • ولكنى أود أن أشير فقط الى أن قادة بعض الأحزاب الشيوعية يسيرون اليوم فى نفس طريق الصين فى الهجوم علينا • وبعض هذه القيادات لا تستند فى ماضيها الى أية انجازات تعطيها الحق فى أن تلقى على غيرها دروسا فى الروح الثورية • وهى — بالرغم من الفاظها الرنانة — قد فشلت فى القيام بأى دور قيادى • ولقد كشفوا عما ينطوون عليه من عجز عن دفع أحزابهم فى طريق العمل الثورى المعادى للاستعمار — ذلك الطريق الذى بدا بدونهم — وهكذا فان بعض هؤلاء الثوريين الذين تقتصر ثوريتهم على الألفاظ أباحوا لأنفسهم وهم خارج اطار الثورة الرئيسى أن يعطوا الدروس فيما هو ثورى وما هو غير ثورى لهؤلاء ثبتت ثوريتهم بالفعل من خلال التطبيق •

انهم يظنون — كما هو واضح — انه لن يخطر ببال الطبقة العاملة أو القوى المعادية للاستعمار أن التشدق بالألفاظ الثورية ليس دليلا على الثورية الحقة لحركة ما ، فضلا عن قدرتها على تحقيق التحولات الثورية •

ان الثوريين حقا هم الذين ترتبط سياستهم بالتوجيهات الثورية الوثيقة الصلة بتحليل الواقع المنبثق من الظروف الموضوعية ومن عوامل التطور الاجتماعى • وهذا هو الجوهر الحقيقى للاشتراكية العلمية •• أما الواقعية الزائفة فعادة ما تكون مبررا للانتهازية • وهذا لا يغير بطبيعة الحال حقيقة ان الثورة انما تولد فى ظل أوضاع محددة • وان استعداد الأحزاب الشيوعية لن ينحصر فقط ، فى القدرة على تقييم الظروف تقييما موضوعيا وانما فى خلق مثل هذه الظروف والتأثير فيها ، الأمر الذى لا يستطيعه الشيوعيون الا اذا تمكنوا من الارتباط بجماهير العمال والتأثير

في مسار التطور الاجتماعي ، حتى ولو كانت الظروف الثورية لم تنشأ بعد ، ولكي يتحقق ذلك ، ينبغي أن نفترض ـ حينما تكون المسائل متعلقة بكل بلد على حدة ـ ان التحول الثورى من الرأسمالية الى الاشتراكية يمكن أن يتحقق بالثورة المسجلة ، كما يمكن أن يحقق في ظروف أخرى بالنضال السياسى السلمى نسبيا ٠

ولقد كان لينين بالذات ، كما يعرف الجميع أول من دعا ـ ايديولوجيا ـ الى انفصال الحرية الثورية للطبقة العاملة عن الجناح الاصلاحى للدولية الثانية ، وهو الذى قاد كفاحا متصلا لا مساومة فيه ضد اليساريين المتشددين بالعبارات الثورية ٠ لقد لفت لينين الأنظار بصفة دائمه الى ضرورة ربط الحماسة الثورية بالواقع ، والى ضرورة دراسة الواقع والظروف الموضوعية ٠ وأهمية معرفة الحالة العاطفية للجماهير العريضة ، وضرورة أن تكون الأحزاب الثورية فى مقدمة الجماهير ، لا ان تلهث خلفها ولا ان تسبقها بخطوات أبعد من اللازم أو تتخلف عنها ٠ ولقد كان لينين هـو الذى قاوم ـ على نطاق السياسة الاشتراكية الدولية ، أشد أنواع اليسارية مغامرة التى تزعمها تروتسكى ، والذى كان على استعداد للزج بالاتحاد السوفيتى فى حرب مغامرة تحت شعار « الثورة العالمية » ٠

ان القيمة الحقيقية ، والجوهر الصادق لمدى ثورية الكتاب الصينيين الذين يهاجمون يوغوسلافيا ، لا ينبغى قياسهما من خلال عناوين مقالاتهم الثورية الجوفاء ، وانما من خلال قدرة سياستهم على تغيير الأوضاع ٠ أى فى ضوء النتائج والآثار المترتبة على هذه السياسة ٠ ومن ثم ، يجب علينا أن نرى ما اذا كانت الثورية الزائدة التى يبديها الصينيون قادرة فعلا على تعزيز القوى الاشتراكية وسائر القوى الاجتماعية التقدمية فى عالم اليوم ، أم لا ٠٠ أم انها فى الواقع تضعف هذه القوى ٠ ان الاجابة على هذا التساؤل الجوهرى هى وحدها القادرة على اعطاء الاجابة النهائية على سؤال آخر هو : أى سياستين هى الثورية حقا ؟ أو فلنضع السؤال بصيغة أخرى أكثر دقة : أى التحليلين للأوضاع القائمة ، وأى الأهداف للقوى الاشتراكية هو الذى يتصف بالصفة الموضوعية ، تحليل الصين ، أم التحليلات الأخرى التى من بينها تلك التى يقدمهـا الشـيوعيون اليوغوسلاف ؟

على أية حال ، فلنلق نظرة على مسألة ما اذا كانت أفكار الصـين المعاصرة فى السياسة الخارجية للاشتراكية تنبعث من الماركسية بصورة حتمية ٠٠ أو بتعبير آخر ، فلتحدد ما اذا كان الشيوعيون اليوغوسلاف

أو الصينيون فى هذا الميدان يخرجون عن المبادىء الأساسية للاشتراكية التي ساقتها الماركسية ٠

ولقد تعودنا نحن بالطبع أن نسمى مراجعين وتوقفنا منذ أمد طويل عن محاولة البرهنة لهؤلاء الذين انغمسوا فى المراجعة الماركسية حتى قمة رءوسهم اننا لسنا مراجعين ٠ ولقد لاحظ الرفيق تيتو ان هناك نوعين من المراجعـــة مراجعة تراجع الجوهـــر الثـــورى واللب العلمى للماركسية ، وتجنح بالقوى الاشتراكية الى مواقف برجوازية باســـم الليبرالية ، أو الى مواقف بيروقراطية محافظة باسم العقائدية ٠ ومراجعة أخرى تسعى الى تطوير علم الاجتماع وفقا لأوضاع واحتياجات الكفاح الحالى من أجل اقامة الاشتراكية ، وبالدقة وفقا للجوهر الثورى والعلمى للماركسية واللينينية كنقطة انطلاق ٠ وهذه « المراجعة الأخيرة » لا تورثنا أى نوع من الخجل بل على العكس، نحن نعتز بالمساهمة المتواضعة لثورتنا وتطورنا الاشتراكى فى تطوير الفكر الحديث للاشتراكية العلمية ٠

وليس فى نيتى الدفاع عن الشيوعيين اليوغوسلاف ضد اتهـــام الصين لهم بالمراجعة ، ولكن هـــدفى فقط هو ان أبين ان « الثورية » الصينية لا يمكن أن نجد مبررا لها فى الماركسية بأى حال من الأحوال ٠

الفصل الثالث

حول حتمية الحرب..

عندما يوجه الصينيون نقدهم الى يوغوسلافيا ، يؤكدون أن المسالمين من البوجوازية الصغيرة وحدهم هم الذين يسلمون بامكانية تجنب الحرب .. والذين يحاولون أن يؤكدوا ان الاستعمار سوف يتخلى عن الحرب انما هم هؤلاء بالتحديد ولكنهم متخفون فى صورة طيبة . وهكذا يمضى نقد الصين مؤكدا ان المراجعين فقط الذين لا يثقون فى عقل الانسان وقوته هم الذين يؤكدون ان فى وسع التكتيك العسكرى أن يؤثر على طريق التطور الاجتماعى .

ثم يقال بعد كل هذا الحديث ان له سندا من الماركسية .

غير ان من سوء حظ المنظرين الصينيين ، ان الماركسية الكلاسيكية واضحة كل الوضوح فى هدا الشأن . فحتى أيام ماركس وانجلز ، عندما كانت فكرة عدم حتمية الحرب تبدو كحلم أو وهم ، كانا يريان امكانية مجيء مثل هذا العصر . وان لم يحددا له وقتا معينا فى تطور التاريخ ، ولكنهما ربطا هذه الامكانية بنضج مجموعة من عوامل تطور المجتمع المادية والايديولوجية والسياسية التى تحكم عمل الانسان .

وبمعنى آخر ، فان ماركس وانجلز لم يقدرا ان الحرب لن تصبح مستحيلة الوقوع الا بعد اختفاء آخر رأسمالى ، كما أنهما لم يعتبرا أن انتصار الاشتراكية فى أى بلد سوف يضع عقبة مطلقة فى طريق الحرب ، ولكنهما دائما كانا يدركان ، شأنهما فى ذلك شأن العلماء والواقعيين — ان انتصار الثورة لا يجعل الدولة الاشتراكية معصومة أوتوماتيكيا من الخطأ . وبناء عليه فانهما لم يستبعدا انه من الممكن بالنسبة لبلد اشتراكى ، فى فترة الانتقال — أن يكون مسئولا عن اندلاع حرب رجعية .

وعندما يدبج المنظرون الصينيون مقالاتهم عن حتمية الحرب ، ويسوقون فكرة ان الرأسمالية لا بد بالضرورة أن تلجأ الى الحرب . بينما الاشتراكية — على نفس المستوى — تحتم السلام . وبناء على ذلك فان السلام لن يقوم الا بسحق الرأسمالية — فان ذلك كله فكر غير علمى بعيد كل البعد عن الماركسية .

ان المسألة لا يمكن تناولها كما يجب الا اذا حللنا العوامل المادية والسياسية والعلاقات الكمية التى تعمل من أجل الحرب أو السلام فى وقت معين ، والا اذا حللنا احتمالات تطورها فى هذا الوقت . فحتى لو تناولنا الحرب من الناحية التجريدية ، فنجد انها ليست قدرا خاليا من عنصر الارادة ، وانما هى تتوقف باستمرار على علاقات القوى .

وعندما أشار لينين الى ان الحرب كانت حتمية فى ظروف الاستعمار، لأن عوامل الاستعمار تولد الحرب بصورة حتمية ، فانه كان يفكر فى علاقات للقوى كان للاستعمار الغلبة فيها • بل كان هو القوة الطاغية• وكانت نتيجة هذا فى الواقع أن قوة معينة واحدة هى التى كانت تملك السيادة المطلقة ، وهى التى كانت تجعل الحرب حتمية •

كان ذلك فى ظل ظروف كانت السيادة فيها للاستعمار • والذين لا يدركون هذه الحقيقة : هم العاجزون عن ادراك ان الكفاح من أجل السلام فى ظروف اليوم على وجه التحديد انما هو أحد وسائل النضال لتغيير علاقات القوى لصالح السلام والاشتراكية ، وليس تجميد علاقات القوى الحالية • وهذا بالطبع يفترض ان السلام أمر فى صالح الاشتراكية • غير ان هذه المسألة يجادل فيها الكتاب الصينيون •

لقد كانت نظرة ماركس وانجلز الى الحرب تقوم على أساس انها عقبة فى طريق تطور الحركة الثورية ، وانها فرملة لعمليات التقدم الاجتماعى الداخلية • ومن أجل هذا السبب بالذات يجب النضال ضد الحرب ، ومن أجل نزع السلاح ، كجزء لا يتجزأ من عملية النضال فى سبيل الديمقراطية الاشتراكية • ـ وقد وقف ماركس وانجلز فى وجه هؤلاء الذين كانوا يرون أن الحرب ضرورة حتمية وان النضال من أجل نزع السلاح مجرد أوهام ، غير أنهما فى نفس الوقت لم ينخدعا لحظة بزعم أن الرأسمالية أو البرجوازية تستهدفان السلام •

وفيما يلى ما سطره انجلز بصدد انقسام أوروبا فى عصره ذاك الى معسكرين حربيين كبيرين ، وروسيا وفرنسا فى ناحية ، والمانيا والنمسا وايطاليا فى الناحية الاخرى ، معسكرين هما فى الواقع صورة للحرب العالمية « المقبلة » •

« فكل من المعسكرين يستعد لمعركة حاسمة •• لحرب لم تشهدها البشرية من قبل •• حرب سيقابل فيها من عشرة ملايين الى خمسة عشرة مليونا من الجنود وجها لوجه • وليس هناك حتى الآن سوى عاملين اثنين فقط هما اللذان يحولان دون هذه الحرب ـ أولا : التطور السريع الذى لم يسبق له مثيل فى التكتيك الحربى ، ذلك التطور الذى يؤدى الى استمرار استبدال الاسلحة الحديثة بأخرى احدث منها ، حتى قبل ان يتاح للجيش فرصة استخدامها • وثانيا : استحالة حساب الاحتمالات استحالة مطلقة وعدم الثقة أو التأكد من مسألة من الرابح فى نهاية الصراع الجبار » ••

« ان مخاطر الحرب العالمية سوف تختفي فى اللحظة التى يحصل فيها تغيير فى روسيا يمكن الشعب الروسي من وضع نهاية للسياسة التقليدية التى يمارسها القياصرة في الغزو • وبدلا من احلام السيطرة على العالم يسعون لتحقيق مصالحهم الحيوية فى نفس بلدهم ـ هذه المصالح المهددة بأكبر الاخطار •• والى جانب ذلك سيختفى كل مبرر للتسلح المجنون الذى احال أوروبا الى معسكر حرب ، ودفع الجماهير الى اعتبار الحرب عاملا من عوامل تحطيم قيودهم • ان الريخستاغ الالمانى نفسه سيضطر حينئذ الى وضع نهاية لمطالبته المتصلة بالمال من أجل الاغراض الحربية » •

« وهكذا ، فان الغرب يمكنه ان يحقق هذه الامكانية بدون عائق •• هذه الامكانية التى تعتبر المهمة التاريخية الملقاة على عاتقنا فى حركتنا هذه •• أى مهمة حل النزاع القائم بين البروليتاريا والبرجوازية ، وتحويل المجتمع الرأسمالى الى مجتمع اشتراكى » (١)

وفى مكان آخر ، كتب انجلز يقول :

« لقد وصل نظام تكوين الجيوش بشكل ثابت فى أوروبا الى درجة جعلت عبء النفقات الحربية ينذر بتدمير الدول اقتصاديا ، وقد يؤدى بها الى حرب وحشية مدمرة ، الا اذا تحولت هذه الجيوش الدائمة ــ على مر الزمن ــ الى ميليشيا أساسها هو تسليح الامة بأسرها •

« وانى أحاول أن أوضح أن التحول ممكن بالفعل ، حتى فى ظل الحكومات القائمة وفى ظل الظروف السياسية الحالية • ومن ثم فلن اقترح سوى الاجراءات التى يمكن لأية حكومة قائمة ان تطبقها دون أن تضر بامكانيتها الدفاعية عن بلدها •

« ان كل ما أحاول اثباته انه من وجهة النظر العسكرية البحتة لا يوجد عائق بالمرة فى طريق التخفيض التدريجى للجيوش الدائمة • واذا كان لابد من بقائها فان ذلك يكون لأسباب سياسية وليست حربية • وباختصار ان هدف الجيش سيكون الدفاع ضد العدو الداخلي أكثر منه ضد العدو الخارجى (٢) •

من كل ذلك ، نستطيع ان نستخلص النتائج التالية :

---

(١) أعمال ماركس وانجلز المجلد الخامس عشر الجزء الثانى • عن دار النشر التابعة للحزب الشيوعى (البلشفيك) سنة ١٩٣٦ صفحة ٣٧ ــ ٣٩ •

(٢) المصدر السابق صفحة ٣٣٧ •

١ ـ ان انجلز كان يعتبر الحروب والتسلح عائقين في طريق النضال من أجل الاشتراكية ·

٢ ـ لم يكن انجلز يرى ان الحرب قدر لا رد لقضائه · وانما كان يراها مرتبطة بالتحول الاجتماعى فى روسيا ·· أو بمعنى آخر مرتبطة بالتغيرات فى علاقات القوى ··

٣ ـ فاذا لاحظنا ان هذا هو الوضع فان انجلز لم يكن يريد انتظار التحولات الاوتوماتيكية وهو مكتوف اليدين ، وانما كان يدعو الى التعجيل بذلك التحول عن طريق النضال من أجل شكل محدد لنزع السلاح ·

وبمعنى آخر ، فان هؤلاء المنظرين الذين يصرحون ان النضال من أجل السلام ونزع السلاح ضرب من الأوهام ، وان الحرب مفيدة للاشتراكية لا يجدون سندا من أقوال ماركس وانجلز ·

ولا شك أن ذوى العقول المتحجرة سيدعون ان انجلز في أيامه لم يكن يستطيع أن يتنبأ بالمسار الذى سيسلكه الاستعمار فى تطوره ، وبالتالى ، فلم يكن بوسعه ان يحدد دور الحرب واقامة الجيوش الدائمة والتسلح تحديدا دقيقا ·· أما لينين ـ كما سيقولون ـ فهو الذى قدم تقييما وتحليلا كاملا للاستعمار ، وبذلك كان فى استطاعته أن يؤكد حتمية الحرب فى ظل الاستعمار ·

وحول هذا المعنى ، كتب ستالين فى عهده ناقدا مقال انجلز ، وحكم بأن تحليل انجلز خاطىء ، ولم يكن هذا بدعة من ستالين ، فقد روى عنه بالنسبة لحتمية الحرب كثير من المناهج الجامدة فى التفكير · ومع ذلك ، فثمة فارق بين أفكار الصينيين الحالية ، وأفكار ستالين · فعلى الرغم من أن ستالين كان يؤكد دائما ان التناقضات الداخلية للاستعمار تمثل عوامل فى صالح الاتحاد السوفيتى ، الا انه ـ عند التطبيق ـ كان يقلل من أهمية هذه العوامل ، وكان فى التطبيق يتوقع امكانية قيام عمل عسكرى موحد من جانب المعسكر الاستعمارى ضد الاتحاد السوفيتى · وهذا وحده هو الذى يفسر تذبذب توجيهات ستالين السياسية قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة · فقد كانت هذه التوجيهات السياسية عن حتمية الحرب فى الدرجة الاولى ـ نابعة من سياسة دفاعية مؤسسة على حقيقة مؤداها ان الاستعمار كان لايزال هو القوى السائدة فى العالم ، ومن هنا جاء نقد ستالين لمقال انجلز الذى أراد أن يقول فيه ان الحرب لا تتوقف فقط على التحولات التى تحدث فى روسيا وحدها ، وانما على التحولات التى تحدث فى الغرب أيضا ·

ولكن بصرف النظر عما اذا كان نقد ستالين لانجلز له اصلا ما يبرره فالواقع انه في أثناء فترة الحرب العالمية الثانية وفيما بعدها ، تغيرت كل الأوضاع ، وعلاقات القوى بشكل أساسى ، بمعنى أن الظروف الموضوعية لنظرية حتمية الحرب قد تغيرت هي الاخرى ولم تعد تشكل هذه النظرية أساسا صالحا لرسم السياسة الدفاعية ولذلك ، فانها من الممكن أن تشوه وتصبح جنوحا نحو فرض الاشتراكية من الخارج بوسائل القهر ٠٠فتصبح بذلك مصدرا هاما لتشويه السياسة الدولية للاشتراكية :

والواقع اننا لو نظرنا نظرة ضيقة لاحداث بضع عشرات من السنين الماضية فاننا سنجد ان الاحداث لا تؤيد نظرية انجلز ٠ ولكننا لو نظرنا اليها على انها كانت مجرد اشارة للاتجاه الذى ســـتتخذه الاحداث في المستقبل لوجدنا اليوم لكلمات انجلز معنى آخر ٠

فحتي لو اعتبرنا تصورات انجلز لاحداث المستقبل خاطئة ــ من وجهة النظر العملية ــ وهو اعتبار لا يوجد ما يبرره كما قدمت ما دمنا ننظر الى اقواله خلال فترة زمنية أطول ــ الا اننا ينبغي ان ندرك ان انجلز كان ثوريا وقائدا سياسيا ، فهو لم يكن يستطيع ان يناضل ضد الحرب بينما يعلن فى نفس الوقت حتميتها ٠ ولا يستطيع ان يكافح ضد التسلح ويعلن في نفس الوقت ان ذلك مجرد اوهام ٠

فالناس الذين يستطيعون ان يقفوا على حقيقة الارتباط العضــوى الداخلى بين الاشياء المتعارضة في الحركة هم وحدهم القادرون على ذلك ٠ فالحرب تكون حتمية عندما تكون قوات السلام من الضعف بحيث لاتستطيع ان تمنعها ٠ بينما من الممكن منع الحرب اذا كانت قوى السلام تستطيع الانتصار علىقوى الحرب ٠ **ومن وجهة نظر الماركسية ، لا يعنى الحديثعن الحرب الا شيئا واحدا فقط ، هو ان التقييم الموضوعى للعلاقة بين القوى الرجعية والاستعمارية من ناحية أخرى ، مؤداه ان هذه القوات الاخيرة غير قادرة على منع الحرب** ٠ والذى يفشل فى تقديم تحليــل واقعى من هذا النوع ، ويستمر فى نفس الوقت فى الحديث عن حتمية الحرب ، يكون هو بالفعل الخائف من الاستعمار ٠٠ اى يكون غير واثق فى قوته وفى قوى السلام ٠٠ أى مبالغا في قوى الحرب والاستعمار ٠

وحينما يدافع الصينيون دفاعهم الميكانيكى عن «حتمية الحرب» هل يجعلون هذا التحليل الواقعى لعلاقات القوى نقطة بداية ؟ كلا ٠٠ انهم لا يتذكرون حتى هذا التحليل ٠ بل هم مقتنعون فى هذا الصدد ــ بالحملة الدعائية الدائمــة حول « الاســتعمار » نمــر من ورق ٠ ومن هنــا ،

فان اصرارهم على القول ان هذا « النمر من ورق » سوف يبدأ الحرب حتماً ضد المعسكر الاشتراكى انما هو دليل انهم لا يثقون حتى فى عباراتهم الدعائية ٠

انهم بدلا من أن يؤيدوا وجهة نظرهم بتحليل ماركسى واقعى عن العلاقات الموضوعية للقوى ، يبتسرون مقتطفات من لينين بغير حق ٠٠ فان لينين هو الذى بين بجلاء موقف الاشتراكية من الحرب ٠

لقد قال لينين بلاريب ان الاستعمار يولد الحرب بتشكل حتمى ٠ ولكن لينين أثبت هذا القول أيضا بتحليل واقعى عن التحركات الداخلية الاقتصادية والاجتماعية فى عهد الامبريالية ٠ وعلى ذلك فقد كان فى ذهنه هذه الأنواع من الحرب : الحروب العدوانية التى تستهدف قهر الشعوب الأخرى ، والحروب بين الدول الاستعمارية القوية التى تقوم بهدف اعادة تقسيم العالم ، والحروب ضد الثورة الاشتراكية ، أى ضد أى بلد اشتراكى ٠٠ أى ضد الاتحاد السوفيتى ٠

ثم ان لينين لم يتحدث ـ على كل حال ـ عن هذه الحروب بعيدا عن الزمان والمكان ٠ فالقول بأن الاستعمار ـ كنظام ـ يستهدف الحرب ، أى يستهدف حل المتناقضات التى تستشرى فيه عن طريق الحرب شىء ، والقول بقدرته أو عـــدم قدرته على تحقيق ذلك ، أو أن العلاقات بين الاستعماريين والقوات المعـــادية لهم تجعل الحروب الاســتعمارية أكثر صعوبة أو تمنعها كلية ، شىء آخر ٠

ففى أيام لينين ، وبالذات حينما كان يكتب كتابه النظرى المشهور عن الاستعمار ، كانت القوى الاستعمارية تسيطر على العالم سيطرة غير محدودة ٠ ولم تكن الطبقة العاملة والحركة المناهضة للاستعمار عاجزة فقط عن منع الحروب ، بل لم يكن هناك القدرة النظرية على تصور أنه من الممكن بين عشية وضحاها منع الاستعمار من المضى فى طريقه وفقاً لقوانينه الموضوعية الداخلية ٠

ولقد كانت ثورة أكتوبر أول ثورة للطبقة العاملة استطاعت أن تضع نهاية الحرب الاستعمارية بواسطة القوة ٠ وبذلك ثبت فى التطبيق أنه من الممكن الكفاح حتى ضد الحرب ٠ ثم كان النصر الثانى حينما نجحت الطبقة العاملة والشعب السوفيتى بمساعدة الطبقة العاملة العالمية ونضالها وموقفها الثورى فى سحق حرب التدخل الاستعمارى فى الاتحاد السوفيتى٠ ولقد أشار لينين الى أهمية ذلك العمل بصورة خاصة ، وبالتحديد من زاوية التحول الجديد ، فى علاقات القوى بين الاستعمار وأعدائه وعلى أسس

رأى فيها لينين امكانية انتصار الاتحاد السوفيتى • وأخيرا ، فهناك مثال ثالث ، فقد أشار لينين الى أهمية المغزى التاريخى العظيم لاتفاقية السلام مع استونيا البورجوازيه واعتبر أنها اضعفت قوى الاستعمار والحرب بصورة حاسمة •

اذن فلينين لم يكن يعتبر الحرب قدرا محتوما طالما أن هناك بقايا استعمارية فى العالم • ولكنه كان يضع القضية دائما على أساس علاقات القوى ولذلك فهو لم يكن ينظر الى النضال من أجل السلام نظرة المنظرين الصينيين فى أيامنا هذه أى على أنه مجرد طريقة لكشف الرجعيين والانتهازيين ، ولكن كنضال من أجل هدف محدد يتمشى مع انتشار الاشتراكية وتعثر الاستعمار • ولهذا السبب بالتحديد ، أشار لينين الى أهمية معاهدة السلام مع استونيا، تماما كما أشار الى مساهمة البروليتاريا الأوربية فى سحق التدخل • وعلى ذلك ، فان الكفاح فى سبيل امتداد الثورة الاشتراكية ، والكفاح من أجل التعايش السلمى بين الاتحاد السوفيتى والبلاد الرأسمالية ، كانا بالنسبة للينين عاملين متداخلين فى عملية واحدة •

لقد كان لينين يعرف بالطبع أن الاتحاد السوفيتى مازال رغم انتهاء الحرب الأهلية ضعيفا نسبيا فى مواجهة قوى دول الغرب الاستعمارية القوية • كما أن عمليات الثورة لم تتطور فى أوربا بالطريقة التى كان لينين يتوقعها من قبل • ومن ثم فقد كان لينين على بينة من ضعف القوى المعادية للاستعمار ومن خطر الحرب وبالذات ضد الاتحاد السوفيتى • بيد أنه أيضا لم يفعل ، مافعله تروتسكى ، أى لم يكتف بالبقاء مكتوف اليدين ، والنظر الى الحرب والثورة العالمية على أنها قدرا محتوما ، وانما بدلا من ذلك صاغ سياسة خارجية جديدة للاتحاد السوفيتى ، أساسها هو التعايش السلمى الطويل الأمد بين الدول السوفيتية والدول الرأسمالية • وكانت نظريته الشهيرة عن امكانية اقامة الاشتراكية فى بلد واحد بمفرده ، تعبيرا عن اقتناعه بامكانية النضال ضد الحرب ، وذلك عن طريق تقوية التعايش السلمى من جهة ومن جهة أخرى عن طريق تطور الثورة الاشتراكية والحركات المعادية للاستعمار ، وبتقوية الطبقة العاملة وتأييدها للاتحاد السوفيتى ، وأيضا عن طريق تقوية الاتحاد السوفيتى سياسيا واقتصاديا • وبمعنى آخر فرغما عن أنه كان من الصعوبة بمكان فى ذلك الحين أن يثق المرء بامكان تجنب الحرب بين الاتحاد السوفيتى والعالم الرأسمالى ، فان لينين كان يسلم بهذه الامكانية • وفى النهاية أكد التاريخ صحة ماتوقعه لينين • فالحرب العالمية الثانية لم تكن حربا موجهة

من كل الدول الرأسمالية ضد الاتحاد السوفيتى ، وانما كانت حربا فيها تحالف ذلك البلد الاشـــتراكى مع عدد من الدول الرأســمالية ، ضد تحالف ثان بجمع عدد من الدول الرأسمالية الأخرى • وهكذا اجتازت نظرية التعايش السلمى امتحانا تاريخيا قاسيا • والآن هكذا فجأة لماذا تصبح بعض الأشياء مستحيلة تاريخيا مع أنها كانت من قبل ممكنة من الناحية التاريخية ؟

وبأى حق اذن يستند المنظرون الصينيون فى صياغة نظرياتهم حول حتمية الحرب الى اقتباسات عن لينين ، هى تعبير عن موقف سياسى معين ، بدلا من أن يستندوا الى آراء لينين ومبادئه العلمية المتعلقة بالترابط بين مسألة الحرب ومسألة العلاقات الكمية للقوى الاجتماعية •

ومن ثم ، فان الخلافات فى الرأى حول حتمية الحرب ليست مجرد خلافات فى وجهة النظر الخاصة بتفسير الماركسية اللينينية فى مسألة الحرب والسلام ، ولكنها قبل ذلك خلافات لها جذور عميقة من ناحية أو أخرى •• حسب الافتراضين التاليين : —

فاما أن يكون المنظرون الصينيون واثقين من أن علاقات القوى فى العالم تجعل الاستعمار راغبا فى فرض الحرب على العالم ، ولديه الامل فى كسبها ، بل وله أيضا القدرة على تحقيق ذلك ••

أو أن المنظرين الصينيين يعتقدون أن الحرب فى صالح الاشتراكية ، أى أنها سلاح الثورة الاشتراكية ، وبالتالى فان تعاظم القوى الاشتراكية نفسه يجعل الحرب حتمية •

والحالة الأولى فيها تقدير مبالغ فيه لقوىالاستعمار وانكار لنظريتهم القائلة بأن « الاستعمار نمر من ورق » • أما فى الحـــالة الثانية ، فانهم يجازفون بالمضى فى طريق خطـر وشائك يقودهم الى تشــويه ســياسة الاشتراكية الدولية تشويها تاما ، وكذلك يؤدى الى تشويه العلاقة بين الدول التى تسير فى طريق الاشتراكية •

ومن أجل ذلك • فنحن فى حاجة الى دراسة هذين الاحتمالين •

الفصل الرابع

الحرب والعلاقة الكمية الراهنة للقوى الاجتماعية

اذا كان المنظرون الصينيون لا يجدون سندا لهم لدى لينين لتبرير نظريتهم فى حتمية الحرب ، فانهم أيضا لا يجدون سندها فى واقع اليوم. فلقد تغيرت العلاقة الكمية للقوات الاجماعية منذ عهد لينين بشكل عميق ، لدرجة اننا بدون مبالغة نستطيع أن نزعم ان مسألة الحرب والتعايش تختلف اليوم عما كانت عليه فى عهد لينين .

فعالم اليوم غير عالم الأمس . ان عوامل كثيرة من العوامل المعادية للاستعمار والتى لم تكن قد تطورت بعد فى عهد لينين قد أصبحت تشكل اليوم قوة عظيمة سواء من الناحية المادية أو السياسية .

فأولا ، نمت قوة الاشتراكية بشكل كبير وأصبح هنـاك عدد من الدول الاشتراكية . ولم تعد الاشتراكية عامـلا سياسيا هاما فحسب ، بل أصبحت عاملا اقتصاديا ذا أثر متزايد فى عالم اليـــوم . ان الدول الاشتراكية لا تؤثر فقط على تطور العـلاقات السياسية بين الشعوب ، ولكنها تؤثر أيضا على العلاقات الاقتصادية فيما بينها . بمعنى انها تدخل عناصر وأشكالا جديدة فى هذه العلاقات . وهذه العملية وان كانت لازالت فى بدايتها ، الا انها مع الزمن ستصبح بشكل ثابت عاملا هاما فى التعاون الاقتصادى من الناحية الدولية .

وفى نفس الوقت فان الدور الاجتماعى للطبقة العاملة ، ونفـوذها يزدادان قوة يوما بعد يوم . فلقد ربطت الطبقة العاملة نفســها بأوسع الدوائر تقدما وديمقراطية ، ولن تجد لها مصلحة فى أية حالة من حالات سياسة الحرب العدوانية ، ومهما كان بينها من خلاف ايديولوجى . وهذه السياسة ــ سياسة الحرب ــ لن تجـد لها ســـندا الا اذا كانت الدول الاشتراكية نفسها من خلال اخطائها تساعد الدوائر الرجعية والعدوانية على أن تجعــــل من الحرب ضرورة لا يمكن تجنبها من أجـل الدفاع عن الاستقلال الوطنى . هذا بالاضافة الى ان اشعال الحرب ضد ارادة الطبقة العاملة أمر يزداد صعوبة فى ظروف اليوم .

وعلاوة على ذلك ، فان البقية الباقية من الامبراطوريات الاستعمارية والاستعمار الكلاسيكى تنهار اليوم أمام أعيننا . وصحيح ، ان الاتجاهات الاستعمارية تبذل قصارى جهدها لتجد لها مخرجا عن طريق آخر، بمعنى انهـــا تحاول أن تفرض أشكالا مختلفة من النفوذ السياسى والاقتصادى ومع ذلك فالاسس الاقتصادية للاستعمار قد تضاءلت لدرجة ان النضال من أجل تقسيم العالم سياسيا وآقتصاديا يواجه قيودا تضيق يوما بعد يوم ، ويقابل بمقاومة متزايدة ، فلقد تكونت هذه القيود من ناحية بفعل

القوى الاشتراكية ومن ناحية أخرى عن طريق الشعوب التى تحررت أو مازالت تخوض معركة التحرر من التبعية الاستعماريه ، ومازالت تناضل من أجل الاستقلال الاقتصـادى • وهـذه العملية لا تعرقل فقط قوات الاستعمار والحرب فى توسعها الخارجي ، ولكنها ذات أثر متزايد على التطور الاجتماعى الداخلى فى البلدان الرأسمالية •

وأكثر من ذلك ، فان دور التناقضات الاسـتعماريه بين البلدان الرأسمالية الكبيرة قد تفجر كميا ، وفى عهد لينين كانت هذه التناقضات تسيطر بشكل واضح • وبالتالى ، فانها فى التطبيق دفعت بالتناقض مع الدولة الاشتراكية الاولى الى المرتبة الثانوية كما اتضح فى الحرب العالمية الثانية • ولكن الوضع قد تغير الآن• فالتناقضات الاستعمارية بين الدول الاستعمارية الكبيرة تضيق وتتضاءل حتى تصبح عاملا ثانويا • أى انها تعتمد على تطور وطريقة حل ما يعتبر اليوم تناقضا أساسيا، أى التناقض بين العالم الاشتراكى والعالم الرأسمالى • ذلك يعنى ان الحرب لا تعتمد فقط على القوانين الداخلية لتطور الرأسمالية ، ولكن أيضا على القوانين الداخلية لتطور الاشتراكية •

وعلى نفس المستوى مع هذه التحولات التى خلقت علاقات جديدة من الناحية الكمية بين القوى الاجتماعية فى العـالم ، ظهر عامل جديد يقوم بنفس الدور ، ذلك هو التقدم الثورى فى العلم والتكنولوجيا التى غيرت أساسا كل الاستراتيجية والتكنيك لأى حرب عالمية ممـكنة • فالمعدات الحربية الحـديثة المرعبة فى تدميرها مركزة الآن ومقسمة بين القطبين المتناقضين اللذين يقتسمان سيادة العالم ، وقد وصلت الى توازن دقيق بين القوى المادية لهذين القطبين • وذلك التوازن قائم فى الواقع على ان القوى المدمرة لأى حرب عالمية ، يمكن حدوثها فى المستقبل ، ستكون من الجسامة بحيث ان كلا من الانتصار والهزيمة سيتخلف عنه أو عنها فى الواقع نتـائج متساوية من النواحى المـادية والسـياسية والاجتماعية للجانبين • وبذلك يمكن أن يقال ان المعدات الحربية نفسها قد باتت عقبة تحول دون الحرب ، اذ انها تشكل خطرا يتهدد العالم بالخراب ، لدرجة ان كل الناس ، حتى هؤلاء الذين دعموا أنفسهم بقوة ضخمة ـ سيجدون ان أية حرب جديدة لن تعود عليهم بالنفع • ويبدو كمـا لو ان التاريخ كان يسعى لايجاد التوازن بين التطلعات الذاتية للشعوب ودرجة الوعى الاجتماعى من جهة ، وبين الاوضاع المادية من جهة ثانية ، دون أن يترك لارادة الفرد سوى مجال يضيق يوما بعد يوم •

وأخيرا، فان الاحساس بان المسائل لن تستمر طويلا بنفس الاسلوب

القديم ، كان ذا تأثير كبير أيضا على تباين السياسة الداخلية في المجتمع البرجوازي . فاذا ماأقيمت سياسة البلدان الاشتراكية على أسس واضحه من السلام والتعايش السلمي ، فلن نزيد من نفوذ القوى الاشتراكيه في تلك البلاد فحسب ، وانما ستزيد من الامل في تأكيد المفاهيم السلامية وابرام المعاهدات مع البلدان الاشتراكية . وليس هذا في مجال الطبقة العامله فقط ، ولكن أيضا بين فئات أعرض من الامه متضمنه في داخلها قطاعات واسعه من البرجوازية . وبمعنى آخر ، فأن العملية الاجتماعية والسياسية في الداخل ستكون هي بالتحديد أقوى دفاع ضد قوى العدوان .

والحق أن النظام الاستعماري ينهار بأكمله كنظام . بيد أني لا أعني بذلك ان الاستعمار لم يعد عاملا له قوته أو انه لم يعد يشكل خطرا باعتباره داعيا الى حرب عالمية جديدة ، ولكن هذا الاحتمال تضاءل، وسيظل في تضائله هذا لفترة من الزمن حتى يصل الى الحد الادنى — بشرط أن تتبع القوى الاشتراكية سياسة مناسبة .

ولسنا في حاجة الى القول أن سياسة التعايش السلمي هي وحدها السياسة المناسبة هنا . ونحن نعني بذلك تلك السياسة التي تضمن لكل الامم الحق في التطور المستقل وتحريرها الى أقصى حد من الخوف ازاء التدخل الخارجي أيا كان هذا التدخل . ومن الممكن أن تتضامن اليوم أوسع مجموعة من البشر على ذلك الاساس من أجل الدفاع عن السلام العالمي .

فاذا ما تبينت القوى الاشتراكية هذه السياسة فلن تكون الحرب حتمية . أما اذا سارت على سياسة وضع كل ماهو غير شيوعي في معسكر واحد معاد للاشتراكية . أي اذا ساعدت في تقسيم العالم الى جبهتين متباعدتين بشكل حاسم ، ففي هذه الحالة تصبح الحرب حتمية . وهنا يكمن أكبر أخطار النظرية الصينية عن حتمية الحرب . **فمصير العالم لا يعتمد فقط على قوى الاستعمار وارادته ، وانما يتوقف أيضا على سياسة القوى الاشتراكية الحاسمة ووجهة نظرها الذاتية .**

بيد انه يبدو من كتابات الكتاب الصينيين كأن شيئا مالم يتغير في العالم منذ عهد ماركس ولينين .

يقول الكتاب الصينيون :

« فحيثما تلفتنا — سواء كان ذلك في أحد فروع التكنولوجيا الحديثة مثل الطاقة الذرية أو الصواريخ أو ... الخ ، وجدنا ان الملامح

الاساسية لعصر الاستعمار والثورة البروليتارية ـ تلك الملامح التى نبه اليها لينين لم تتغير ، بعكس ما يزعمه المراجعون الجدد . » (١)

وفي هذه الكلمات مثل واضح على عجز بعض كتاب الصين عن فهم جدلية الحركة والترابط العضوى الداخلى بين التقدم والثورة . وحيث ان نظرتهم الى الاشياء ثابتة فقد فشلوا فى رؤية عملية تغير العلاقات النوعية وهى تجرى بدفعة من خلال تغير العلاقات الكمية . ولاشك ان التكنولوجيا الحديثة لم تغير جوهر الاستعمار ولكنها جعلت اشعال الحرب أمرا اشد صعوبة ، وبذلك اضعفت من قـــوة الاستعمار فازدادت سرعة تفتته من الداخل ، وجعلت الظروف أكثر ملاءمة من الناحية الموضوعية للكفاح من أجل الاشتراكية وتعزيز السلام . ولا شك ان هذه التحولات الكمية لها أهميتها ، كما انها ـ على أقل تقدير ، وبفرض الا شيء آخر هناك ـ تسفر عن انبثـاق ظروف جديدة فى النضـال من أجل الاشـتراكية والتقدم الاجتماعى فى العالم بشكل عام .

ولكن المنظرين الصينيين يخضعون الجدلية أيضـا ـ أى يخضعون القوانين الموضــوعية لحركة المجتمع ـ لذواتهـم ، أو بمعنى أصـح ، لسياستهم الحالية فيربطون الفلسفة الماركسية ـ أيضا ـ بالجملة التى يسوقونها ضد اليوغوسلاف ... وها هو ما يقولون :

« ترى المادية الجدلية ان الصراع مطلق بين الاضداد ، بينما الوحدة نسبية . فاذا ما تحدثنا عن الخلافات الجوهرية للاضداد فاننا سنجدها ترسم الخط النهائى لحدودها ـ الخط الذى لا يمـــكن تجـــاهله نتيجة لوحدتها وتأثير كل منها على الاخرى . وهذه احدى الافكار الاساسية للعلم الماركسى والتعاليم الماركسية اللينينية حول الصراع الطبقى ، انمـا هى التطبيق العلمى لهذا المبدأ النظرى .

« بيد ان المراجعين المعاصرين لا يعترفون بهذه المبـــادىء النظرية الثورية ، وعلى ذلك فهم يحطمون الفرق الجوهرى بين الضدين كما لو كان الصراع بينهما ليس مطلقا ، أى كما لو كانت وحدة الاضداد مطلقة . وهذه السفسطة تنعكس تمـاما فى شكل موقف مراجع من الصراع الطبقى .. وخصوصا اذا كان هذا الصراع الطبقى على نطاق العالم (٢) » .

والعبارة الأولى هنا مأخوذة عن لينين ، ولكنها انتزعت من الفصل

(١) جريدة العلم الاحمر عن وكالة أنباء الصين الجديدة نشرة ٩ أبريل سنة ١٩٦٠ ..

(٢) من مقالة بقلم شانج يى بعنوان نقد سفسطة المراجعة الحديثة فى مجلة النظـرية والتطبيق عدد ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٨ .

بحيث أصبحت لا تعبر عن فكر لينين ، وزيادة على ذلك فان العبارات التى تلتها جميعا انما هي تشويه لمضمون العبارة الاولى • فقبل كل شيء: يجب أن نشير الى ان أفكار لينين قد شوهت بشكل مباشر ، لان الكلام الذى قيل هو ابتسار لفكرته التى عبر عنها في «ملاحظات فلسفية» ـ ابتسار يتجاهل ببساطة الملاحظات التى أضافها لينين والتى تقول :

« ان وحدة الاضداد مشروطة ، مؤقتة ، انتقالية ، نسبية • وصراع الاضداد مطلق ، كما ان التطور والحركة مطلقتان(١) » •

ملحوظة : ان الفيصل بين الذاتية (الشك والسفسطة •• الـخ) والجدلية هو ان الجدلية (الموضوعية) ترى ان الفارق بين النسبى والمطلق هو نفسه نسبى • وترى الجدلية الموضوعية ان هناك مطلقا حتى داخل النسبى ، أما الذاتية والسفسطائية فتريان ان النسبى لا يعدو أن يكون نسبيا ، وهذا هو المطلق •

ولسنا فى حاجة الى تعليق • فمما كتبه لينين هنا يمكن أن يكون تقييما دقيقا لفلسفة شانج يى ، ولدى شانج يى من الاسباب مايجعله يقتطف ذلك الجزء الاول فقط من مقال لينين ، ويستبعد الجزء الثانى •

ومع ذلك ، فالقضية ليست قضية فلسـفية ، ولكنها ذات مغزى علمى • فان الكاتب الصينى حينما يحرف مغزى فكرة لينين عن نسبية وحدة الاضداد فى حين ان الصراع بينها مطلق ، فانه يستهدف بذلك ـ عمدا أو عن غير عمد ـ نتيجة عملية ، هى ان الاقطاب المتعارضة واشكال الصراع بينها مطلقة وغير قابلة للتغيير ، وبذلك فهو يريد أن يوضح ان شيئا ما فى العالم لم يتغير ، وحيث انه لم يحدث أى تغيير ، فان الصفة النسبية لوحدة الاضداد تؤدى الى نشوء اشكال أكثر حدة فى الصراع بين هذين المتناقضين ، وبما ان الامر كذلك • فان سياسة التعايش السلمى وأى سياسة سلامية ستساعد بشكل مباشر على ابقاء الاوضاع القائمة فى البلاد الرأسمالية •

بيد ان المغزى الذى استهدفته أفكار لينين يختلف تماما عن ذلك • فما هو مطلق بالنسبة للينين انما هو حركة الاشياء ، ولكن مافهمه الكتاب الصينيون من ناحية أخرى هو ثبات عوامل واشكال المتناقضات أيا كانت التحولات الكمية التى تطرأ على علاقات القوى الداخلية وهكذا ، فان كل حركة تتوقف وتتوقف معها الجدلية • وتبـدأ من هنا الذاتية والجمود العقائدى •

(١) مختارات لينين ـ الناشرون الدوليون ـ نيويورك • المجلد الحادى عشر صفحة ٨٢ •

ويبدو انه من العقم أن ندخل في مجادلات مع الكتاب الصينيين · حول الجدلية الماركسية ، اذ انهم يلجأون الى فقرات من المقالات الفلسفية ينتزعونها انتزاعا بقصد تأييد حججهم وخططهم السياسية ومنهجهم العملي · ولكن عندما تستخدم الفلسفة الماركسية في حملة سياسية عدائية ، يتعين على المرء أن يقول كلمته في هذه الفلسفة الصينية ·

والحق ان المنظرين الصينيين الذين ينتقدون اليوغوسلاف « المراجعين » انما ينظرون الى كل الاشياء في حالة ثبات ، ويرون ان الاشكال وأقطاب التناقض لا تتغير على الاطلاق ، وكذلك لا تتغير أسلحة النضال · وطبقا لهذا المفهوم عن الجدلية ، فان كل ما يتغير هو حدة تلك المتناقضات · وبهذه الطريقة ، فان الاشياء تصل الى مرحلة معينة ، الى التحول الثورى ، وهذه العملية تتم خلال جميع العصور ما دامت الاشتراكية والرأسمالية باقيتين ، وهي تحدث في جميع البلاد ، ولا بد أن تتكرر باستمرار بنفس الصورة ·

ولكن العملية الجدلية في الحركة أكثر تعقيدا · فالتحولات الكمية تنعكس حتما ــ بالنسبة للتناقضات ــ في تغيرات نوعية في أقطاب هذه التناقضات · وهذه التغيرات النوعية تولد في نفس الوقت علاقات كمية جديدة · وهنا تكمن نفس عملية التحول الدائمة في كل من طبيعة وحدة المتناقضات ، وفي وسائل واشكال الصراع فيما بين الاضداد · ان الشيء الدائم الوحيد هو الصراع نفسه الى أن ينشأ أخيرا وضع كيفي جديد ، هذا ، بينما يتطور كل شيء آخر ويتغير بصورة دائمة · وهذا بالدقة هو ما يشكل حركة الاشياء ·

وعندما يغيب كل هذا عن الكتاب الصينيين فانهم في الحقيقة يضعون أنفسهم في وضع جامد معاد للجدلية ، ويتبنون نظرة ذاتية لتطور الحركة الاجتماعية وهي نفس النظرة التي تبناها ستالين حينما وضع نظرية أساسها انه كلما ضعف العدو الطبقي ، كلما نمت التناقضات الطبقية وازدادت حدتها .

ان المرء حينما يطالع فلسفة من هذا النوع لابد وان يستعيد كلمات انجلز :

ان الأشياء ، وصورها العقلية ، والافكار ــ بالنسبة للميتافيزيقي معزولة بعضها عن بعض ، وينبغي ان يدرس كل منها على حدة منفصلا عن غيره . انه يراها أشياء جامدة ثابتة وخالدة . وهو يعتقد ان التناقض لا يقبل المصالحة . واسلوبه هو « نعم نعم .. لا لا .. ومازاد

عن ذلك فهو من فعل الشرير » . ان الشيء بالنسبة له اما موجود أو غير موجود . وعلى ذلك ، فان الشيء لا يمكن ان يكون كما هو ، وفى نفس الوقت أن يكون شيئا آخر بشكل مطلق . والعلة والمعلول يقفان في تناقض حاسم ، احدهما فى وجه الآخر . وقد يبدو هذا الاسلوب في التفكير مقبولا لدى النظرة الاولى على أساس ما يسمى بالمنطق السليم . ولكن المنطق الذى يبدو سليما ما بقى فى حدود جدران اربع قد يتحول الى مغامرة بمجرد دخوله ميدان البحث العلمى . وهاهو أسلوب الميتافيزيقى في التفكير الذى يجد مايبرره بل وربما يكون ضروريا فى مجالات قد تختلف في نطاقها وفقا لطبيعة الشيء محل الدراسة ، الا أنه يصل - آجلا أو عاجلا - الى حد يصبح فيه متحيزا محدود الافق ، ومجردا ، يضل طريقه فى تناقضات لا حل لها . ذلك لأنه عند ما يدرس كل شيء على حدة يفقد الترابط بين الاشياء . وعندما يفكر فى صورته الحاضرة ينسى نشأتها وذبولها . وعندما ينظر اليها فى حالة سكون ينسى حركتها ، لأنه يرى الأشياء ولا يرى الغاية . (١)

وهذه صورة دقيقة لأسلوب النقد الصينى لمفهوم اليوغوسلاف عن النضال من أجل الاشتراكية . ولهذا السبب بالذات فان خطيئة « المراجعين » اليوغوسلاف الكبرى هى انهم يؤكدون ان العالم مستمر فى التغير عما كان عليه فى أيام ماركس ولينين ، وأن الرأسمالية قد تغيرت فى كثير من سماتها وكذلك أن الاشتراكية قد تغيرت هى الأخرى فى كثير من صفاتها ، أن هذه التغيرات تتجلى فى اتجاهين مختلفين .

انى لأستطيع أن أسمع - فى نفس هذه اللحظة التى أسطر فيها هذه الكلمات جوقه مدبجى المقالات الصينيين ، الجامدين ، وهم يرددون فى نفس واحد ، انى هنا أقوم بعملية تجميل لوجه الراسمالية والاستعمار مرة أخرى . غير أنى لست بصدد مناقشة المسلك الخلقى أو المظهر الحالى للاستعمار أو الرأسمالية فهما لم يتغيرا فى الجوهر ، وان كانا قد تغيرا فى بعض مظاهرهما ، لانهما بالفعل - كما يؤكد المنظرون الصينيون دائما - مضطران الى هذا التغير تحت ضغط كل من التطور الاقتصادى ، وتعاظم القوى الاشتراكية وسائر القوى التقدمية. ولكن ، سواء كانت الرأسمالية مضطرة أو غير مضطرة ، فان النتيجة التاريخية واحدة ، وما الاضطرار من هذا النوع الا أحد قوانين التاريخ .

---

(١) فردريك انجلز - الرد على دهرنج - دار النشر التعاونية طبعة موسكو ١٩٣٤ صفحة ١٠٢٨ .

ولكن هذه ليست القضية الأساسية ـ فما اعنيه هنا شيء آخر مختلف . هو أن قوة الاستعمار والرأسمالية اليوم تتضاءل نسبيا اذا ما قيست بقوى الاشتراكية بالنسبة لما كانت عليه ايام لينين ، حينما كتب عن حتميـــة الحروب الاســتعمارية • وأكثر من ذلك ، فان النظام الرأسمالى والاستعمارى يواجه فى هذه الأيام تحللا داخليا سريعا . وسواء أبطأت هذه العملية أو أسرعت ، فانهـــا تتوقف ـ الى حد كبير ـ على مدى صحة السياسة التى تتبعها القوى الاشتراكية . وهذه العملية لا تعوقها الانتهازية الاصلاحية وحدها ، ولكن يعوقهـــا أيضا ادعياء الثورة ، وبالذات هؤلاء الذين ينظرون الى الأمور نظرة «المغامرين البونوبارتيين الاشتراكيين » •

وهجوم بعض الكتاب الصينيين على الرفيق تيتو ، حينما يتحدث فى مناسبة من المناسبات عن اثر تكنولوجية الحرب الحديثة على تطور العلاقات الدولية مثل صارخ على النظرة الذاتية وغـير الماركســـية لمشاكل العالم اليوم •

ان تيتو ، اذ يقول بأن تكنولوجيا الحرب الحديثة تجعل اشعالها أمرا أصعب مما كان ، انما يجعل النضال من أجل اقرار السلام أمرا ممكنا . ولكن الصينيين ينقدون مقالات الرفيق تيتو هذه ، مدعين انه يحاول اخافتهم بتكنولوجيا الحرب الاستعمارية ، وينسبون اليه أنه نسى أن الانسان هو كل شيء ، وأنه بعقله يستطيع أن ينتصر على أى تكنولوجيا •

وهنا ، يلزم أن نشير الى ظاهرتين من مظاهر النقد الصينى أولا ، يعرف الجميع بكل تأكيد أننا معشر الشيوعيين اليوغوســلاف نملك تجارب فنية فى ذلك الخصوص . فالانسان الذى يحارب من أجل مثله العليـــا ، وبوعى كامل يستطيع أن ينتصر على قوى معـــادية أكبر منه ومجهزة بأسلحة أقوى . ولكن المسألة اليوم ليست أن أمة اشتراكية تستطيع أن تكسب الحرب بتسليح أضعف أم لا ـ وذلك فى حـد ذاته افتراض غير واقعى ـ وانما هى أنه عندما يكون لدى الجانبين كل تلك المعدات العسكرية الهائلة .. هل تجد الدول الرأسمالية مصلحة لها فى شن حرب عدوانية استعمارية ، أم أنها ستفكر كثيرا وكثيرا قبل أن تقدم على حرب عدوانية .

بيد ان القضية لا تلبث أن تأخذ شكلا آخر عندما نطالع المحاولات التى تثيرها الدعاية الصينية ضد تحليلات الرفيق تيتو الموضوعية على أساس ما يراه الكتاب الصينيون من أن الدول الاشتراكية هى التى

ستقود حربا ضد البلدان غير الاشتراكية . ولا شك أن ذلك يعنى أنه كلما ازدادت قوة العالم الاشتراكى . ازدادت حتمية وقوع الحرب . ولكن أولى بالمنظرين الصينيين فى هذه الحالة الا يخدعوا أنفسهم ، فهم لن يملكوا حينئذ من المزايا الايديولوجية ما يوفر النصر لأى نوع من الانواع ، وانما الآخرون هم الذين سيمتلكون هذه المزايا ، كما يتضح ذلك من مثال نابليون .

أما المظهر الثانى من مظاهر النقد الصينى ، فهو أن الصينيين ينكرون أثر التكتيك الحربى ـ كأى تكتيك آخر ـ على مجرى التطور الاجتماعى ومن أجل هذا السبب بالذات نجد ان مقالات الكتاب الصينيين فى ردها على ملاحظات الرفيق تيتو الموضوعية ، تتسم بأسلوب القفش والضحالة السياسية . ففى نفس الوقت الذى ينكر فيه منظروهم أثر تطور التكتيك الحربى على معالجة القضايا المتصلة بحتمية الحرب ، نجدهم يحاولون الاسناد الى الماركسية اللينية . وهنا ، سنورد بعضا من تناقضاتهم مع ماركس وانجلز ولينين .

يقول ماركس : « ان تجنيد جميع السكان القادرين على حمل السلاح ، وتأليف جيوش تصل الى الملايين وانتاج الاسلحة النارية والقذائف وقضبان المتفجرات التى لم يسبق لقوتها مثيل ـ كل ذلك خلق ثورة كاملة فى شئون الحرب ، فقد وضع نهاية مفاجئة لعصر الحروب البونابرتية ، وأمن التطور الصناعى السلمى ، حيث أن أية حرب ـ غير الحرب العالمية المصحوبة بفظائع لم يسمع عنها أحد من قبل ونتائج لا تدخل فى الحسبان ، قد أصبحت أمرا مستحيلا (١) » .

وفى مجال البحث عن آثار تطور تكنولوجيا الحرب على مجرى التطور الاجتماعى وفى حروب المستقبل كوسيلة لحل المتناقضات كتب انجلز : اما نحن فعلى العكس لا نشعر بأى ضيق حينما نجد تلك المنافسة بين المدافع والمدرعات . ان السفن قد وصلت الى قمة الكمال ، مما يجعل استخدامها فى الحرب أمرا باهظ التكاليف وغير عملى (٢) . ان ذلك الصراع فى ميدان الحرب البحرية يبرز ـ كشىء ملازم له ـ القوانين الأساسية لجدلية الحركة ، التى بمقتضاها نجد أن النزعة العسكرية شأنها فى ذلك شأن أى ظاهرة تاريخية تسير حتى تصل حتما الى فنائها ، كنتيجة لتطورها الخاص (٢) . »

---

(١) ماركس ـ انجلز ـ المختارات ـ طبعة نيويورك المجلد الثانى ص ١٨٠ .

(٢) فردريك انجلز . الرد على دهرنج ـ دار النشر التعاونية بموسكو طبعة سنة ١٩٣٤ ص ١٩٧ .

اذن ، فانجلز أيضا ينسب كثيرا من الاهمية الى آثار التكتيك الحربى على التطور الاجتماعى حتى انه ليعتبر أن جدلية التطور نفسها ، هى احدى العوامل الحاسمة التى ستؤدى الى استبعاد الحرب كأسلوب في علاقات التعامل بين الأمم · بل ان انجلز يرى ـ فوق ذلك ـ أن تطور التكتيك الحربى سيخلق أشكالا أخرى من الصراع الطبقى . وفيما يلى ما قاله فى هذا الصدد :

« اذا ما تبدلت الظروف فى حالة الحرب بين طرفين فان ذلك لن يكون أقل تأثيرا على حالة الصراع الطبقى . فلقد مضى وقت الهجوم المباغت ، كما انتهى أيضا عهد الثورات التى تقوم بها أقليات سياسية واعية تنصب نفسها قيادة على رأس الجماهير غير الواعية . فحينما تكون القضية قضية التحول الكامل فى التنظيمات الاجتماعية فان الجماهير نفسها لابد أن تشارك أيضا فيها ، ولابد أن تكون مدركة لجوهر القضية وان تكون قد عرفت وجهتها (١) » .

والكتاب الصينيون يعتبرون أن انجلز كان مخطئا فى ذلك الصدد · ولكن اذا كان انجلز مخطئا بالفعل فان الكتاب الصينيين لا يكون لهم الحق فى الاستناد الى الماركسية ، وهم ينكرون مدى دور تكنولوجيا الحرب على التطور الاجتماعى ·

أما نحن فنعتبر انجلز على حق من ناحية المبدأ ، فلا شك ان عمليات التحول التى من هذا النوع لا تتم منعزلة عن نتائج الصراع السياسى من أجل الاشتراكية او تطورها المعاصر · ولكن نفس العوامل تدفع بالتطور فى كلا الاتجاهين لتتحول كل هذه الحركات الى عملية واحدة متكاملة فى التطور ··

وحيث ان العلاقات الاشتراكية المتطورة لا يمكن ان تقوم الا على أسس من التطور العالى للتكنولوجيا الذى يجعل قيام الحروب اكثر صعوبة ، لأنها تصل الى مستوى أعلى من التدمير ، وان كان أى نصر يحرز لا يمثل اى ميزة مادية ما دام يقوم على مزيد من الدمار · فان تطور الاشتراكية يخلق تبعا للتقدم العالى فى التكنولوجيا ، وبسبب الحاجة الى مزيد من تقسيم العمل الدولى ، يخلق احساسا بالمصالح المشتركة لكل البشرية وينمى الشعور بالرغبة فى المساواة بين كل البشر ، بغض النظر عن الجنس أو اللغة · وعلى ذلك فان الحرب تتحول يوما بعد يوم الى عمل غير مرغوب فيه لدى كافة الناس وجميع الامم · سواء من وجهة النظر السياسية والادبية · ويترتب على الاطراد فى نمو كافة هذه العوامل ،

(١) مختارات ماركس وانجلز · طبعة نيويورك المجلد الثانى ص ١٨٧ ·

سواء فى التكنولوجيا او فى تطور الاشتراكية ، الا تصبح الحـرب غير حتميـة فقط ، بل تصبح ـ فى مرحـلة معينـة من مراحل التطور ـ مستحيلة ٠

ويتضح من كل هذه الحقائق ان لينين كان يفكر فى هذه النتائج كما أوضحت الرفيقة ن ٠ ك ٠ كروبسكايا فى العبارات الآتية :

« ينبغى ان نقول ان فلاديمير المبيتش كان مغرما بالتطلع الى الافق واطلاق العنان للخيال ٠ ولا زلت استعيد مناقشة دارت بيننا عن الحرب وكان ذلك فى لينتجراد فى سنة ١٩١٨ ٠ فلقد اشار فلاديمير ايلتش الى ان التكنولوجيا الحديثة فى عصرنا تمضى الى الامام جاعلة الحرب اكثر تدميرا ٠ ولكن سيأتى الوقت الذى يصبح فيه وقوع الحرب مستحيلا ، وذلك لازدياد قوتها التدميرية ٠ ولقد عـاد لينين مرة اخـرى الى هذه المسألة فى ١٩٢٠ ، ١٩٢١ ، فحدثنى عن مناقشة تمت بينه وبين احد المهندسين ، حيث حدثه هذا المهندس عن وجود اختراع يستطيع أن يدمر جيشا كاملا وهو على بعد كبير ٠٠ وقد علق لينين على ذلك بحماس كبير مؤكدا ان ذلك من شأنه ان يجعل وقوع الحرب مستحيلا ٠ ولا شك ان لينين كان يتحرق رغبة فى أن تصبح الحرب مستحيلة الوقوع ٠ لقد كان لينين ينظر الى الحـرب كشىء متطور متغير ٠ كان لا يرى القضـايا التى يدرسها جامدة ثابتة » (١) ٠

لسنا فى حاجة الى مقارنة هذه التنبؤات بالطابع المحافظ لافكار كتاب الصين هؤلاء الذين يرددون بعض جمـل مأخوذة من خطب لينين ومحاضراته المتعلقة بظروف سياسية محددة ثم يستخلصون منها نتائج تؤكد حتمية الحرب ٠ ومن هذه المقارنة ستتضح عدم المبالاة التى يتناول بها هؤلاء الصينيون الماركسية واللينينية ٠ وذلك بالطبع ليس ظاهرة عارضة ٠ فمهما اضفوا على انفسهم من عبارات الماركسية فان نظرياتهم ستظل تخدم بوضوح اهدافا سياسية واجتماعية معينة : وهذا هو السر فى ان الماركسية تعدل بطريقة خاصة فى ظل ظروف معينة ٠

والآن فلنعد الى تحليل العلاقات الكمية للقوى الاجتماعية ، ومدى تأثير ذلك على مسألة حتمية الحرب ٠ ولنختبر من خـلال هذه العلاقات الاشكال الثلاثة الممكنة للحرب الاستعمارية ٠

فمن وجهـة نظر التكتيك العسـكرى ، وبالنظر الى كل الظروف الاخرى ، فان الحروب التى تشن لغزو الشعوب الاخرى لا زالت ممكنة ٠

(١) ن٠ ك٠ كروبكايا فى كتابها عن لينين طبعة موسكو ١٩٦٠ ص ٢٠ ـ ٤١ ٠

بل اصبحت فى بعض الظروف اقل الحروب خطرا بالنسبة للمعتدى ·
ورغم ذلك فان الامثلة العملية لانهيار الامبراطوريات الاستعمارية وما شابه ذلك من الظواهر ليدل على ان احتمالات وقوع هذه الحروب والنجاح فيها يقل يوما بعد يوم · ولا شك ان ذلك نتيجة لازدياد القوى المعادية للاستعمار ، ونمو الحركة المعادية له بين الشعوب المضطهدة ، ونمو الشعور بالاستقلال الوطنى والمساواة ، ونمو القوى الاشتراكية وما تلقاه من تأييد ، والمقاومة الديمقراطية فى البلاد الرأسمالية · ونحن نستطيع ان نؤكد بحق ان كل هذه العوامل المعادية للاستعمار ستنمو اكثر فاكثر ، وذلك يعنى ان اشعال الحروب المحلية لاستعباد الشعوب الاخرى سيزداد صعوبة ·

والنوع الثانى من الحروب الاستعمارية هو ذلك الذى يقع بين الدول الاستعمارية بعضها البعض من أجل اعادة تقسيم العالم ، وقد ثبت افلاسه خلال الحرب العالمية الثانية · فأيا كانت المتناقضات فى داخل العالم الرأسمالى وتطورها فى المستقبل ، فان التناقض الاساسى فى عالم اليوم ، وهو ذلك التناقض القائم بين العالم الاشتراكى والعالم الاستعمارى ، قد هبط بها الى المرتبة الثانوية ، حتى ان احتمال اندلاع حرب بين البلاد الرأسمالية الكبرى من اجل اعادة تقسيم العالم من جديد قد هوى الى مستوى الحد الادنى من الناحية النظرية ، وأصبح من الامور المستعبدة فى مجال السياسة العملية ·

ولست فى حاجة الى القول بأنى لا أزعم بذلك أن التناقضات الرأسمالية قد زالت · وانما هى قائمة · غير انها قد اصبحت ضعيفة جدا · والاشكال التى تتخذها قد تبدلت الى حد كبير لدرجة انها لم تعد قادرة وحدها ، وبكيانها المستقل ، ان تحتم قيام حروب لحلها ، باستثناء الاشكال المتباينة للحروب المحلية على حساب الشعوب الاخرى · ولكنها ما زالت مرتبطة بالتناقض الاساسى فى عالم اليوم ، اى التناقض بين الرأسمالية والاشتراكية ·

فهل يستطيع المنظرون الصينيون ، بعد هذا كله ، ان يظلوا على توكيدهم انه لم يحدث اى تغيير فى مسألة حتمية الحرب ، انهم اذا كان لديهم اى اثر لاحترام الحقائق الموضوعية ، لن يستطيعوا انكار هذا التغير · فاذا كانوا لم يفعلوا فلا شك أن لديهم أسبابا أخرى دعتهم لذلك ·

وأخيرا ، فان النوع الثالث من الحروب الاستعمارية هو الحروب العدوانية الموجهة ضد الدول الاشتراكية · وهذه الحروب ليست ممكنة

فقط ، بل ان لهـا دعاة فى أشد الدوائر الرجعيـة ، وفى دوائر تجـار الإسلحة فى العالم الرأسمالى ٠

ولا نجد بين هؤلاء كثيرين يعملون صراحة من اجل الحـرب ، فى ظروف كالظروف الراهنة ، ذلك لان معظمهم يدركون انه لا أمل اليوم فى النصر عن طريق الحرب العدوانية ٠ ولكن هناك كثيرين أيضا من امثال الشيوعيين الصينيين ، يعتقدون فى حتمية الحـرب ، ويواصلون نشاطهم من اجل الاحتفاظ بالحديد ساخنا على النار ، على امل ان تتحول الظروف الى صالحهم ٠

بيد انه فى مواجهة كل هذه الاتجاهات والدوائر ، توجد ايضا كل القوى المادية والسياسية لعوامل السلام والتقـدم والاشـتراكية ، فى العالم ، وفى داخل هذه البلاد نفسها ٠ وليس هناك ما يحملنا على الظن بان هذه العوامل ستكون ضعيفة التأثير فى المستقبل ، بل على العكس من ذلك ، فانها تزداد قوة وتطورا فى تأثيرها على مجرى الاحداث العالمية٠ أما الاعتقاد ــ فى مثل هذه الظروف بأن الحرب حتمية ــ فان منشأه هو المبالغة الزائدة فى قوة الاستعمار، أو التقليل الزائد منقوى الاشتراكية والعوامل الاخرى المادية للاستعمار ٠

اما نحن ، فلا نمارس هذا او ذاك ٠ ونحن لا نقلل من قوى العوامل الاستعمارية ٠ ولذلك ، فنحن نعتبر ان من الواجبات الضرورية لكل الأمم والقوى المحبة للسلام أن تعمل بنشاط من أجل السلام ، ومن أجل سحق كل الاتجاهات العدوانية ٠ ولكننا أيضا لا نميل الى التهوين من شأن قوى التقدم والسلام ٠٠ تلك القوى التى أصبحت من القـــدرة بحيث تستطيع سحق أية بادرة تتمكن من النجاح فى اثارة حرب عدوانية ٠

وبمعنى آخر ، فانه من أجل العمل على انهاء حتمية الحرب ، ليس من الضرورى ان يكون كل العـالم اشـتراكى ، ولكن من الضرورى أن تصبح القوى المادية والادبية والسياسية للاشتراكية والسلام من القوة بحيث تصبحقادرة على منع أية محاولة لحلالتناقضات الاستعمارية وأية تناقضات دولية اخرى عن طريق حرب عالمية ثالثة ٠ وهذه القوى ستعمل فى نفس الوقت على التعجيل بحل هذه التناقضات بوسـائل داخلية ، وباشكال سياسية واقتصادية فى الصراع فى داخل كل بلد من البلدان٠

فماذا يتبقى اذن من سند للنظرية الصينية عن حتمية الحـرب فى الظروف الراهنة ؟ لم يبق سوى آمكانية نظرية واحدة ، وهى افتراض ان الدول الاشتراكية تتبنى خطة مؤداها ان تجد فى الحرب حلا للتناقضات

التى بينها وبين العالم الاستعمارى • وذلك يعنى ان تتبنى الدول الاشتراكية ـ عن عمد ـ سياسة الحروب العدوانية • ولكن متل هده الاتجاهات ـ سواء من الناحية الايديولوجية او النطبيقيه ـ ستكون متناقضة تناقضا كاملا مع اهداف الاشتراكية ومصالحها الاساسية فى الحاضر والمستقبل • ولذلك فلا يحتمل ان تجد هذه الفكرة نصيرا لها فى العالم الاشتراكى ، وهو الأمر الذى يمكن تبنيه من المصير الذى تلقاه اليوم نظريات الصينيين •

ان مجرد ظهور هذه الاتجاهات ، سواء بوعى أو بغير وعى ، والتعبير عنها على يد نفس الكتاب الصينيين الذين يهاجمون سياسة التعايش السلمى ، لهو دليل قاطع على ان الدول الرأسمالية لا تتحمل وحدها مسئولية المحافظة على السلام • ففى ظل ظروف اصبح فيها النظام الاشتراكى قوة عالمية، الا انه مازال يحتفظ ببعض بقايا الآراء العالمية والانانية ، وببعض اتجاهات من هذا النوع ، فانه لا يستبعد على بلد سار فى طريق الاشتراكية ، ان تسول له نفسه ـ بسبب بعض الظروف الداخلية الخاصة ـ ان يستخدم قوة الاشتراكية لا دفاعا عن النفس ، ولكن ايضا فى محاولة لانجاز اهداف معينة لاعلاقة لها على الاطلاق بالاشتراكية • وبناء على ذلك ، فكلما زادت قوة البلاد الاشتراكية ، تنمو بالتالى مسئوليتها ، ومسئولية كافة القوى الاشتراكية عن السلام •

والواقع ان الظروف المادية والسياسية تنمو اليوم فى اتجاه منع الحرب • ولا خيار امام القوى الاشتراكية ، اذا ما وجدت بعض الاحتمالات التى تؤدى الى المحافظة على السلام ، ان تناضل من اجل ارساء دعائم هذه الاحتمالات ، ومن اجل استخدامها حتى آخرها • ومن أجل ذلك ، يتعين على القوى الاشتراكية ان تعارض الاتجاهات التى تعمل فى اتجاه مضاد داخل العالم الاشتراكى • ومن بين هذه الاتجاهات ، تلك الحملة المعادية للشيوعية من جانب بعض الدوائر الاشتراكية الديمقراطية ، وكذلك الحملة الموجهة ضد سياسة التعايش السلمى وضد يوغوسلافيا بالذات ، والتى تصحبها الخطة التى تؤكد حتمية الحرب ـ وهى الاتجاهات التى تتبعها قيادة الحزب الشيوعى الصينى •

وما من شك فى ان الاشتراكية ستنتصر على هذا النوع من التيارات المتطرفة فى نظرتها ـ اى هذه التيارات التى مؤداها فى الواقع شن حرب من حروب الغزو سواء أراد ذلك دعاة هذه الفكرة أم لم يريدوا • ان مثل هذه التيارات لا تجد لها ارضا صالحة فى هذا العصر • فدور الاتحاد السوفيتى ونموه كأكبر القوى الاشتراكية يؤكد هذه الحقيقة

بشكل قاطع . ثم ان اعمال الاتحاد السوفييتي فى السياسة الخارجية ليست هى وحدها العامل الحاسم ، بل هناك فوق ذلك الانتصارات المادية والنتائج الاجتماعية والسياسية للتطور الداخلي للسوفيت فى هذه الايام ـ الامر الذى اصبح واضحا كل الوضوح فى السنين القليلة الماضية ، وهذه النتائج اصبحت فى حد ذاتها تملك تأثيرا كبيرا مستقلا عن العوامل الشخصية ، فهى تدفع للامام بالعلاقات الاجتماعية والاشتراكية وتجعل من انتقال الاتجاهات المغامرة ، التى سبق ان تكلمت عنها ، الى حيز التنفيذ ، امرا مستحيل الوقوع .

ولا حاجة الى القول بان الاتحاد السوفيتي ليس وحده هو المسئول عن السلام ولكن يتضامن معه فى هذه المسئولية سائر الدول الاشتراكية وكذلك كافة القوة الاشتراكية على الصعيد العالمى ، ويتحمل المسئولية ايضا كافة الحركات الاشتراكية والتقدمية الخارجية عن نطاق الشيوعية ، والتى كثيرا ، ما تضلل بشعارات معادية للشيوعية فتعمل لصالح القوى البورجوازية الرجعية ، بل والتى نتيجة لذلك تعمل لصالح قوى الحرب . وما السياسة الخارجية للاشتراكية الا نتاج لاعمال الطبقة العاملة والقوى المعادية للاستعمار كافة . وهذا بالدقة ما لاينبغى ان ينسى .. وخصوصا بالنسبة لاى تحليل ماركسى جاد .



الفصل الخامس

سياسة التعايش السلمي والماركسية

الكفاح من أجل السلام فى ظروف عالم اليوم هو قبل كل شىء جزء من النضال من اجل تحقيق الاشتراكية • وهذا يضيف حافزا جديدا لحساب مدى الفظائع والدمار اللذين سيحلان بالجنس البشرى اذا وقعت حرب عالمية جديدة وتقديرهما تقديرا واقعيا كاملا يدفع بنا الى الكفاح بشكل متزايد بهدف تكتيل كل الشعوب حول النضال من أجل السلام •

ولكن مثل هذه البيانات والحقائق تثير ضيق المنظرين الصينيين • فهم لا يحبون الحديث عن الحرب المقبلة بعبارات تكشف حقيقتها ، انهم يتصورون ان هذا يقال فقط بهدف اخافة الشعوب ، بينما واجبنا فى نظرهم هو ان نعمل على ارهاب الاستعماريين — وهم يرون ان الذين يقفون ضد الحرب ، ويتحدثون عن فظائعها ، انما يدفعهم الى ذلك فزعهم منها • انها نفس وجهة النظر التى تقول ان المرء لا ينبغى له ان يخشى الحرب ما دامت تضحياته ستعوض فى الحال ، فنصف الجنس البشرى على الاقل لن يهلك فى هذه الحرب ، وسوف يواصل الحياة فى عالم من الرخاء الذى لم يعرف مثله من قبل •• وها هو ما يقولونه فى هذا الشدن :

« اننا نعارض بشدة استثارة الاستعمار الى حرب اجرامية ، حيث انها ستكلف شعوب مختلف البلدان (بما فيها شعوب الولايات المتحدة وشعوب البلاد الاستعمارية الاخرى) تضحيات ضخمة • ومع ذلك ، فاذا أصر الاستعماريون على أن يفرضوا مثل هذه التضحيات على الشعوب ، فاننا واثقون أن هذه التضحيات لن تلبث أن تعوض ، كما أثبتت ذلك تجربة الثورتين السوفيتية والصينية •• فلسوف تقيم الشعوب المنتصرة فوق أطلال الاستعمار حضارة تفوق فى مستواها حضارة النظام الرأسمالى آلاف المرات ، ومستقبلا زاخرا بالانتصارات الرائعة » (١) •

« ان الناس الذين يعتنقون المبادىء الثورية يشكلون اكثر من تسعة اعشار سكان العالم • وواضح لكل ذى عينين اى الفريقين سيجنى ثمار النضال : اصحاب المبادىء الثورية الذين يزيدون على تسعة اعشار العالم او أولئك الاستعماريون والرجعيون فى مختلف البلدان والذين يقل عددهم عن عشر السكان • ان اى انسان يستطيع ان يحكم بنفسه لمن ستكون السيادة فى عالم الغد •• » (٢)

ان اى انسان يضع فى الحسبان تفكير الناس العاديين ، وتطلعات

(١) جريدة العلم الاحمر • عن وكالة أنباء الصين الجديدة فى ١٩٦٠/٤/١٩ •
(١) مقال افتتاحى فى جبمنج باو ٢٩ يونيو سنة ١٩٦٠ •

الشعوب ، لا بد وان يحكم كم هو غريب ومرفوض ذلك التقدير الذى يتعمده ساسة الصين وهم يتناولون مسألة الحرب ٠

كتب لينين فى عهده يقول :

« اننا نعرف جيدا مدى ما تلحقه الحرب من نكبات بالعمال والفلاحين٠ ومن أجل ذلك فان واجبنا ان ننظر الى هذه المسألة بماتستحقه من يقظة وحذر ٠ فلقد قدمنا كل ما فى وسعنا من تضحيات وتنازلات فى سبيل شىء واحد هو المحافظة على السلام ــ السلام الذى قدمنا من أجله أغلى ثمن » (لينين ــ مجموعة المؤلفات الكاملة ــ الطبعة الروسية ــ المجلد ٣٠ ــ ص ١٢٢) ٠

فما أعظم الفرق بين القولين !!

وماذا عسى أن يقول الانسان اذا نظرنا الى نتائج الحرب الحديثة ؟

جلى وواضح ان المسألة لم تعد مسألة ان انسانا ما ، يخشى الحرب او لا يخشاها ، ولكنها مسألة هل هو مع الحرب او ضدها ــ اى ، هل هو يفعل كل ما فى طاقته لمنع الحرب ام لا ٠٠ ام لعله يريد ان تقع الحرب ان موقف اى انسان من الحرب انما يحدده بدقة موقفه من مسألة التعايش السلمى بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة ٠

ولاشك أن أى انسان يرى أن الحرب قدر محتوم ، سيجد نفسه فى صراع مع سياسة التعايش السلمى ٠ وهذا بالذات هو السبب الذى من أجله تعرضت السياسة الخارجية ليوغوسلافيا لأقصى أنواع الهجوم من جانب الصينيين ٠

ان مسألة امكانية أو عدم امكانية تحقيق سياسة التعايش السلمى ، انما ترتبط اوثق ارتباط ــ وبالدرجة الاولى ــ بمسألة الى اى مدى اصبح تجنب نشوب الحرب اليوم امرا واقعيا ٠ فاذا كانت الحرب حتمية ، يصبح التعايش السلمى مجرد اسطورة ووهم خيالى غير قابل للتحقيق ٠ وبمعنى آخر ، فان التدليل على حتمية الحرب هو فى نفس الوقت تدليل على عدم امكانية تحقيق سياسة التعايش السلمى ، وتدليل بالتالى على انها سياسة خاطئة وضارة بقضية الاشتراكية ٠ والحق اننا نجد فى كتابات المنظرين الصينيين كثيرا من الحجج التى تؤيد هذا الزعم تحت اسم «الماركسية الحق» ، والتى تساق فى خلال الهجوم الموجه ضد يوغوسلافيا ٠٠ وان كانت يوغوسلافيا ، فى الحقيقة ، ليست هنا الا هدفا لمعركة سياسية موجهة فى واقع الامر ضد سياسة السلم والتعايش السلمى

ولكن .. بما ان سياسة المعسكر الاشتراكى تقوم على اساس التعايش السلمى ، فمن الطبيعى أن يصر الكتاب الصينيون على أن سياستنا بخصوص التعايش السلمى تختلف عن سياسة المعسكر الاشتراكى . وقد يتفق الكتاب الصينيون أحيانا مع سياسة التعايش السلمى ، الا انهم فى نفس الوقت لا يوافقون على سياسة التعايش السلمى الخاصة بالشيوعيين اليوغوسلاف . ولما كان الخلاف بين تعايش سلمى وآخر .. اى بين التعايش السلمى الذى يتشيع له الصينيون ، وذلك الذى يتحيز له اليوغوسلاف من الامور التى لا يمكن تحديدها بدقة ـ فاما أن يكون هناك تعايش سلمى أو لا يكون ـ تتحول الخلافات الى مجرد شتائم وافتراءات .

ان الامر الذى لا شك فيه هو ان هناك خلافات حقيقية فى وجهات النظر . ولكن هذه الخلافات ليست فى الواقع حول مضمون التعايش السلمى ، ذلك ان حجج المنظرين الصينيين تكشف عن انهم فى الحقيقة ضد هذه السياسة .

ان خطيئة يوغوسلافيا ـ كما يصورها المنظرون الصينيون هى انها تؤكد ان سياسة التعايش السلمى ليست مؤقتة وانما هى عنصر اساسى فى السياسة الاشتراكية الدولية ، بينما تقوم نظرة الصينيين الى التعايش السلمى على انه لا يعدو ان يكون حالة انتقالية لا تلبث ان عاجلا او آجلا ان تزول بفعل القوى الاستعمارية او الاشتراكية . وعلى ذلك ، فليس هناك ما يدعو الدول الاشتراكية الى رفض الحرب ما دامت ستؤدى الى دمار الاستعمار . ويستطرد هذا النقد ـ علاوة على ذلك ـ الى ان سياسة اليوغسلاف فى التعايش السلمى قد وصلت الى حد الدعاية للحالة القائمة بين العبيد والمستعبدين ، بين المستغلين والمستغلين .. وهلم جرا ، ثم يؤكدون فى نفس الوقت ان سياستهم فى التعايش السلمى انما تقوم على اساس ان الاستعمار سينهار على يد القوى الثورية . وعلى ذلك فان التعايش سياسة انتقالية ومؤقتة ، لأن الحرب مع الاستعمار أمر لا مفر منه .

ولسنا فى حاجة الى ان نبرز ان مثل هذه النظرة الى سياسة التعايش السلمى انما تعنى فى الواقع انكارا لهذه السياسة ، اذ أنه لا يوجد ما يدعو الى النضال من اجل تعايش مؤقت نحن نعيشه الآن . ولكن القضية الاساسية هى هل توجد ظروف تسمح بتعايش سلمى دائم فيما بين الدول ذات النظم الاجتماعية فى العالم أو لا توجد . ان النظريات الصينية تنكر مثل هذه الامكانية ، وبالتالى فهى ترفض التعايش السلمى معلنة بأن امكانية التعايش السلمى لا تعدو أن تكون وهما .

اما الشيوعيون اليوغوسلاف ، فهم كما يعرف الجميع يزكون سياسة التعايش السلمى عن الاسس التالية :

١ ـ الاقتناع بان ظروف اليوم تجعل من الصعب على قوى الاستعمار والحرب ان تجهز على التعايش القائم ، الذى يدفع بالتناقضات والمنازعات الداخلية فى العالم الرأسمالى لمرحلة جديدة ، ويعجل بعملية تفتيت الاستعمار والرأسمالية كنظام ، ويقوى الدور الذى تلعبه العوامل الاشتراكية سواء منها المادية او السياسية .

٢ ـ الاقتناع بان فرض الاشتراكية من الخارج عن طريق الحرب على البلدان الاخرى عمل ضار ومعاد للمفهوم الاشتراكى ، ومن الممكن أن يكون وراءه ـ بل وسيكمن وراءه حتما اتجاهات رجعية ورغبة فى التسلط . يجب أن يتوافر الاقتناع بهذا الأمر والا تحملت الدول الاشتراكية مسئولية اشعال حرب عالمية مدمرة بهدف اضفاء السعادة على الآخرين بالقوة . مما سيلحق اشد الاضرار بفكرة الاشتراكية ، وسيمد الاستعمار وبقايا العالم القديم بقوى جديدة .

وبمعنى آخر ، فان سياسة التعايش السلمى تعبر عن اقتناعنا بان الظروف المحيطة اليوم بدوائر تجار الحروب فى الدول الرأسمالية تجعلها تواجه صعوبات جمة لو حاولت اشعال حرب عالمية يصطلى وسط نيرانها الجنس البشرى باكمله ، هذا بينما ترفض البلاد الاشتراكية مبدئيا وتطبيقا ـ وهى يجب ان ترفض ، اى تفكير فى حرب عدوانية كوسيلة لفرض الاشتراكية على غيرها من البلاد . ونظرا لاننا مقتنعون بسياسة التعايش السلمى على هذا النحو ، يصبح من الضرورى ان تكون هذه السياسة مبدأ ثابتا فى السياسة الخارجية للعالم الاشتراكى او لا تكون موجودة بالمرة .

وليس معنى هذا بالطبع اننا ننظر الى سياسة التعايش كمبدأ جامد ، فلا يستطيع أحد أن يتنبأ بدقة ، بما ستتمخض عنه علاقات القوى الاجتماعية فى العالم فى المدى البعيد للتطور ، ولن يستطيع احد التنبؤ بالوسائل المتعددة أو الاشكال المختلفة التى ستمر من خلال النضال أو يستخدمها فى المستقبل ليكشف عن الاوضاع النهائية للعلاقات الاشتراكية . كذلك لا يستطيع احد ان يتنبأ مستقبلا باشكال المساعدات المتبادلة بين القوى الاشتراكية . ولكن يبقى هناك شىء واحد معنوى : هو ان فرض الاشتراكية او أى صورة من صورها عن طريق حرب عدوانية من الخارج سينتج دائما شيئا غريبا عن الاشتراكية ، واجراء رجعيا لا يمكن قبوله .

ولاشك ان استبعاد مثل هذا الاجراء انما هو هدف سياسة التعايش السلمى على المدى البعيد ٠

وهكذا فليس من الصعب اثبات ان افكار الصينيين عن التعايش السلمى لا يمكن الدفاع عنها من وجهة نظر الماركسية ٠

والحق أن ماركس وانجلز لم يتعرضا لمثل هذه القضية ـ أو على الاقل ـ لم يتعرضا لها باستفاضة ، اذ لم يكن للمشكلة فى عهدهما صورتها الهامة او الحادة ٠ ومع ذلك ، فمن السهل ان نتأكد ـ من خلال كل ما كتبوه ـ انه لم يطرأ على اذهانهم ان انتشار الاشتراكية يمكن ان يتم بطريقة اخرى غير تلك التى تتم بها التحولات الداخلية فى كل بلد ، ولا يوجد ما يثبت ان ماركس وانجلز قد تنبأ بحرب عالمية حتمية بين المعسكر الاشتراكى والمعسكر الرأسمالى ٠

وسوف اعرض هنا لعديد من افكار ماركس وانجلز ـ لا بهدف استخدامها برهانا على صحة سياسة التعايش السلمى ـ ولكن ليتيسر لكل امرىء ان يستشف من روحها ما توحى به وجهة نظرهما ، ومدى بطلان توكيدات المنظرين الصينيين فى نقدهم لسياسة التعايش ، وادعائهم ان هذا النقد قائم على اساس من الماركسية وانه ليتضح من العبارات التى ساوردها هنا انها تبين بجلاء لاى مدى كان ماركس وانجلز يعارضان ـ من الناحية المبدئية ـ فرض الثورة او الاشتراكية من الخارج

وهنا ، نقدم بعضا من هذه الافكار :

« ان القوانين الاولية فى العدالة والاخلاق ، والتى يجب ان تحكم العلاقات الخاصة بين الافراد ، يجب ان تكون هى القواعد الرئيسية التى تحكم العلاقات بين الأمم » ٠

« والنضال فى سبيل مثل هذه السياسة الخارجية انما يشكل جزءا من النضال العام لتحرير الطبقة العاملة » ٠ (ماركس وانجلز ـ المختارات ـ طبعة نيويورك الجزء الثانى ص ٤٤٢) ٠

« ٠٠ ونحن نعارض بحسم هذا العبث بالثورة ٠ ففى وسط الاضطرابات التى سادت ألمانيا حين ذاك ٠ كان الالتجاء الى الغزو ، أى الى تصدير الثورة من الخارج بطريق القهر ، يعنى وضع حجر عثرة فى طريق الثورة الالمانية نفسها ، اذ أنها تقوى الحكومة ، وتوقع بكثير من المناضلين أنفسهم مجردين من الدفاع فى أيدى القوات الألمانية » (نفس المصدر ص ٢٤) ٠

« ·· وايا كان الامر ، فلم يكن ذلك التقـدير المتزن للوضـع الا هرطقـــة من كثيرين · فحينما التقى ·· لويس بلان ومازينى وكوسس وقلة غير لائقة من الالمان متل روج و ··· وجـوخ فى لنـدن ، من اجل تكوين حكومات مؤقتة فى المستقبل ، لا لوطنهم فقط ، ولكن لكل أوروبا ، لم يكن ينقصهم الا ان يحصلوا على المال اللازم من امريكا كقرض لتحقيق الثورة الاوروبية فى لحظة واحدة ، وانشاء الجمهـوريات المتعـددة التى ستفرع عنهـا · ويكفى أن نقـول ان هؤلاء كانوا يظنون أنفسهم قادرين على اللعب بالثورة ، اما نحن فقد رفضنا ذلك بصورة حاسمة » (نفس المصدر ص ٢٤) ·

(ولكن اى نوع من الاوضاع السياسية والاجتماعية ستمضى اليه هذه البلاد قبل ان تصل الى التنظيم الاشتراكى ؟ نحن لا نستطيع اليوم أن نقدم أكثر من افتراضين · ولكن الشىء الوحيد المؤكد : **أن البروليتاريا الظافرة لا تستطيع أن تفرض نعيما ايا كان نوعه على أمة أجنبية دون أن يقوض مثل ذلك السلوك انتصارها نفسه** · وهذا بالطبع لا يسرى على الحروب الدفاعية ايا كانت نوعها » (مراســلات ماركس وانجلز طبعة نيويورك سنة ١٩٣٦ ص ٣٩٩) ·

ان فى وسع المرء ان يقدم عديدا من الافكار المشـابهة · والشىء الواضح أن المنظرين الصينيين لن يجدوا فى أعمال ماركس وانجلز أى أساس لنظريتهم أو لسـلوكهم · وخـير لهم أن يتحملوا هم المسئولية الكاملة عما يبتدعون ، سواء فى النظرية أو فى التطبيق ·

اما بالنسبة للينين · فلن يكونوا احسن حظا معـه · فلن يجدوا لديه أى تأييد لأفكارهم ، ذلك أن أفكار لينين فى هذه القضية من الوضوح بحيث لا تحتمل اى لبس او شـك · لقـد كتب لينين وتكلم فى هـذه القضية ، وانعكس موقفه فى مجمـوعة كاملة من الوثائق ، كما انعكس كذلك فى السياسة الخارجية العملية للسوفيت فى عهده من بدايتها حتى نهايتها · ولقد كان ذلك مفهـوما منـذ اللحظة الاولى لوجود الاتحـاد السوفيتى ، اذ ان الدولة السوفييتية الناشئة حددت هذه القضية منذ اليوم الاول فى جدول اعمالها السياسية ·

لقد كانت نقطة البداية عند لينين ، وهو يوضح السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتى ، الظروف المحـددة لمعالم الوضع الدولى بالنسـبة للاتحاد السوفييتى ، وكذلك علاقات القوى فى العالم آنذاك · فمع ان الاتحاد السوفييتى قد نجح فى آخر الامر فى البقـاء كدولة اشـتراكية مستقلة الى جوار البلاد الرأسمالية ، فانه كان اذ ذاك ــ ولم يزل حتى

الآن ـ واقعا تحت تهديد التدخل المباشر من جانب الاستعمار • ومن أجل ذلك كان لينين يصر على ابراز التعاون مع الدول الرأسمالية كتأمين لكيان الاتحاد السوفيتى كما كان يصر على تعبئة الطبقة العاملة من أجل مساندة هذه القضية • ولقد كان لينين يعمل بالحاح من أجل التعاون الاقتصادى ، وبذل الجهود من أجل عقد اتفاقيات سلامية مع الدول الرأسمالية ، حول أية نقطة من النقاط ، وكان يهاجم دوائر الاستعماريين والمتدخلين عندما كانوا يرفضون عقد مثل هذه الاتفاقيات •

وكان لينين يؤكد ان البلاد الرأسمالية مضطرة الى الاعتراف بوجود الاتحاد السوفيتى كحقيقة واقعة ، وانها مضطرة للتعاون معه من اجل مصالحها الخاصة • ولقد عبر لينين عن استعداده للتعاون مع اية دولة ، وخاصة فى مجال المسائل الاقتصادية • وارسى فى هذا الصدد بعضا من المبادىء التى ينبغى ان يقوم عليها التعاون بين البلد الاشتراكى الفتى والحكومات البرجوازية (المعاهدة مع استونيا، ومشروعات قرارات اللجنة التنفيذية المركزية لكل الروس حول تقرير وفدها الى مؤتمر جنوة) •

ولقد اشار لينين الى أفضلية سياسة الاتحاد السوفيتى بالنسبة لسلامته ، والى ان الاتحاد السوفيتى قد أمن وجوده فى الواقع بفضل هذه السياسة •• وكانت آراء لينين هذه ـ فى نفس الوقت ـ نقدا غير مباشر لهؤلاء الذين أعربوا ـ داخل الاتحاد السوفيتى ـ عن تشككهم فى جدوى تلك السياسة •

ونحن نورد هنا بعضا من العبارات التى تشير الى وجهة نظر لينين حول هذه القضايا :

« وحتى ولو لم نحصل على انتصار على نطاق العالم بشكل كامل وحاسم ، فاننا ـ على كل ـ قد كسبنا ظروفا تمكننا من التعايش مع البلدان الرأسمالية التى أصبحت مضطرة الى الدخول معنا فى علاقات تجارية •• وبمثل هذه العملية النضالية كسبنا الحق فى الوجود المستقل» (لينين ـ المؤلفات الكاملة ـ الطبعة الروسية الرابعة ـ جزء ٣١ ص ٣٨٤) •

« واننا لنرغب أيضا فى أن نكسب مساعدة تكنيكية لروسيا من البلدان الأكثر تطورا بشروط ملائمة ، في فترة تتعايش فيها الدول الرأسمالية والاشتراكية » • (نفس المصدر) ـ الجزء ٣٠ ص ٢١) •

« لماذا كانت كفتنا راجحة على القوة المتحدة للاستعمار العالمى ، بالنسبة لاستونيا التى قاست طويلا من ضغط الحكم القيصرى لروسيا

الاقطاعية ؟ لقد كان ذلك لاننــا أبدينا استعدادنا فى الوقت المنـاسب وبصورة مخلصة للتخلى عن سياسة القوة · والمضى فى ارســاء سياسة سلامية · وبذلك كسبنا عواطف الحكومة البرجوازية فى بلد صغير · بالرغم من المساعدة التى تلقتها من جانب الرأسمال الدولى ·

ان تطور الرأسمالية فى كل بلد يتخذ معدلا للسرعة ، وأسلوبا وسبيلا مختلفا · وهناك اليوم جمهورية اشتراكية واحدة تعيش جنبا الى جنب مع كافة البلاد الرأسمالية فى العالم ، وتدفـع ببرجوازياتها الى التردد · ومن ثم تؤدى هذه الحقيقة الى النتيجة التالية :

«ان وضعكم مهدد· فلقد دفعنا الحرس الابيض الى الهزيمة عن طريق استخدامنا للقوة · هذا صحيح ، ولكن ما هو موقفنـا بالنسبة لباقى العالم ؟ وماذا ننوى فعله فى هـذا الصدد ؟· سوف نكسب هـذه المعركة أيضا · وان تلك المعاهدة السلامية التى عقدت مع استوينا لدليل على ان قولنا هذا ليس مجرد قول حماسى · ولكننا قد هزمنا ضغط رأس المال الدولى فى هذا المجال حينما اعترفنا باخلاص باننا نرفض حكم القوة» · (نفس المصدر ص ٢٢٩٤ ص ٢٩٥) ·

« لقد عقدت معاهدة سلام فى ظـل ظروف قدمنا فيهـا عديدا من التنازلات الاقليمية ــ تلك التنازلات التى لا تتمشى تماما مع مبـدأ حق الامم فى تقرير مصيرها والتى جعلتنا فى الواقع نضع قضية الحدود من ناحية الاهمية فى مرتبة ثانوية بالنسبة لنا ، بينما جعلنا قضية العلاقات السلامية قضية انتظار نضج الوضع المناسب لـكل دولة ، هى القضية الاهم من ناحية المبدأ ، بل والقضية ذات الطبيعة التى عن طريقها نستطيع أن نكسب ثقة الامم التى كانت معادية لنـا» · (نفس المصدر ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ولينين يشير هنا الى معاهدة الصلح مع استونيا) ·

« فبدون علاقات متبادلة بيننا وبين الدول الرأسمالية لن نستطيع أن نقيم علاقات اقتصادية دائمة · والاحداث تثبت دائما انه عن غير هذا الطريق يصبح هذا الامر أيضا غير مستطاع بالنسبة لهذه الدول » ·

« ولكن ·· هل من الممكن أن تعيش جمهورية اشتراكية وهى محاطة من جميع الجهات باطار رأسمالى ؟ ربما كان يبدو ان ذلك غير ممكن سواء من الناحية العسكرية أو السياسية · ولـكن قد ثبت الآن ان هذا ممكن من الناحيتين العسـكرية والسياسية · اذن ، فمـاذا بالنسبة للتجارة والتبادل الصناعى والعلاقات والمساعدات والخدمات المتبادلة بين روسيا الزراعية المخربة المتخلفـة ، وبين الدول الرأسـمالية الغنية والمتقدمة

صناعيا ـ هل كان ذلك يبدو ممكنا ؟ ألم يحاولوا تهديدنا بأن يطوقونا بأسلاك شائكة ثم يزعمون بعد ذلك انه لا توجد ثمة امكانية لاقامة علاقات اقتصادية ؟ » (نفس المرجع فى الجزء ٣٣ ص ١٢٥ ، ١٢٦) .

« لقد كشفت المصالح العملية ، والحـادة ، والمستعجلة فى كافة البلاد الرأسمالية خلال السنوات القليلة الماضية عن الرغبة فى تنمية وتنظيم وتوسيع التجارة مع روسيا ما دامت مثل هذه المصالح موجودة . فنحن قد نختلف وقد نتنازع وقد ننقسم ونكون مجموعات متباينة وننسلخ من الوضع ويبدو ان الاحتمال الاكبر هو اننا سوف ننقسم . ولكن على الرغم من كل شيء ، فان هذه الضرورة الاقتصادية سوف تشق طريقها بنفسها . ونحن نستطيع أن نطمئن لهذه الحقيقة . وليس بوسعى أن أحدد تاريخا أو أجزم بالنجاح ، ولكن ما أستطيع أن أقوله فى هذا الاجتماع بكل تأكيد ، هو ان تطور العلاقات التجارية بين الجمهورية السوفيتية وكافة البلدان الرأسمالية فى العالم ، سوف يستمر » . (لينين. المختارات طبعة موسكو سنة ١٩٤٧ الجزء الثانى ص ٧٧١ الى ٧٧٢) .

« واننا لنعتقد ان اقامة علاقات أساسها الصداقة الكاملة .. مع كل من الدولتين (يقصد انجلترا وفرنسا) أمر ممكن تماما . بل ان هذا هو ما نهدف اليه واننا لنعتقد بالدقة ان اتساع العلاقات التجارية سيعود حتما بأثر قوى ملحوظ فى تحقيق هذا الهدف . ونعتقد أن الفهم الصحيح لمصالح انجلترا وفرنسا سيؤدى الى نفس المضمون ، كما نعتقد ان المصالح المتبادلة لانجلترا وفرنسا ـ فيما يتعلق بعلاقاتهما مع روسيا ـ لا يمكن أن تؤدى الى قيام عداوة بين البلدين » . (لينين المؤلفات الكاملة ـ الطبعة الروسية الجزء ٣٣ ص ٣٤٦) .

ومن الممكن أن أورد كثيرا من الفقرات المماثلة ولكن لا توجد ثمة ضرورة لهذا ، فالكتاب الصينيون يعرفونها على الاقل قدر ما نعرفها نحن . وهم أيضا يعرفون جيدا أنهم لن يستطيعوا تقديم أوهى دليل على أن لينين كان يعتبر سياسة التعايش غير ممكنة من حيث المبدأ ، بل على العكس . لقد كان لينين يكافح من أجل اقامة تعايش طويل الامد . أما الشك فيما اذا كانت البرجوازية ـ التى كانت لا تزال قوية ـ ستوافق على سياسة التعايش أم تاباها ، فى ظل ظروف الاتحاد السوفيتى حينذاك فهذه قضية أخرى ، ومن أجل ذلك ، نبه لينين الى ضرورة اليقظة والحذر من جانب البروليتاريا العالمية والدولة الاشتراكية الاولى . وما يستخدمه المنظرون الصينيون لتدعيم حججهم هو ما كتبه لينين فى هذا الشأن . ولكن لينين كان ـ الى جانب هذا ـ على ايمان عميق فى امكانية صمود الدولة

الاشتراكية للحصار الرأسمالى المحيط بها • وهذا تعبير عن ايمانه العميق بامكانية التعايش بين البلد الاشتراكى وبلاد النظام الرأسمالى • ولقد كانت هذه القضية - فى آخر الامر - هى جوهر الخلاف بين وجهة نظره ، ووجهة نظر تروتسكي بالنسبة لبناء الاشتراكية فى بلد واحد ، وبالنسبة لنظرية الثورة الدائمة ، وما الى ذلك • وهنا وبلا أدنى شك ، لن نجد فى وجهة نظر لينين • أى تأييد للنظرية الصينية •

والآن ، فلنطالع ما كتبه لينين عن علاقة الدولة الاشتراكية بالحرب•

« ان سياستنا ودعايتنا لا تقوم على أساس حض الأمم على خوض الحرب ، بل تقوم على وضع حد لها • ولقد بينت التجربة ان الثورة الاشتراكية وحدها هى التى تسد الطريق نهائيا فى وجه الحرب • وبهذه الطريقة فان سياستنا أبعد ما تكون عن التحريض على الحرب » (لينين - المؤلفات الكاملة - الطبعة الروسية الرابعة - جزء ٣١ ص ١٤٠) •

« لقد منحتنا تجربتنا اقتناعا لا يتزعزع بأن الاهتمام غير العادى بمصالح مختلف الدول يقضى على الخلافات ، وعلى أزمة الثقة المتبادلة • وعلى الخوف من الدسائس ، ويخلق الثقة وخصوصا بين العمال والفلاحين الذين يتكلمون بلغات مختلفة • وبدون هذه الثقة فلن تتوافر على الاطلاق علاقات سلامية بين الشعوب ، ولا كل ماله قيمة فى مدنية اليوم • ونحن من جانبنا- سواء بالنسبة لهذا الامر أو بالنسبة لسائر القضايا المشتركة نفضل ألا نطالع الا أقل ما يمكن من البيانات ، وأقل ما يمكن من الردود القاطعة ، وأقل ما يمكن من الصيغ المنمقة ، ولكن أكثر ما يمكن من القرارات الواضحة والخطوات التى تؤدى بالفعل الى السلام ، وليس فقط كثيرا من الكلام عن درء خطر الحرب بشكل نهائى » • (نفس المرجع جزء ٣٣ ص ٣٤٩) •

وأما بالنسبة لما يتصل بفرض أى شكل من أشكال « اسعاد الآخرين » عن طريق الحرب أو بأى نوع من أنواع فرض الاشتراكية من الخارج ، فقد كان لينين واضحا وقاطعا • وكان فى ذلك أكثر وضوحا من ماركس وانجلز •

ففى مناقشة لبعض الكتاب حول قرار صدر من مكتب الحزب لمنطقة موسكو ، وكان معارضا لسياسة اللجنة المركزية فيما يتعلق باتفاقية الصلح المبرمة فى بريست ليتوفسك - كتب لينين قائلا :

« ربما كان المؤيدون لهذا القرار يعتقدون ان مصالح الثورة العالمية تحول دون عقد معاهدات سلامية على الاطلاق مع الاستعماريين ؟ ان خطأ

هذا الرأى واضح للعيان· فان دولة اشتراكية محاطة بالدول الاستعمارية لن تستطيع العيش هكذا بالمرة الا اذا طارت الى القمر » ·

« أو لعل المبادرين الى اتخاذ هـذا القرار يعتقدون ان الثورة العالمية تحتاج الى دفعه للامام ، وانها لن تدفع للامام الا عن طريق الحرب وليس عن طريق السلام الذى قد يقدم للجماهير معنى فيه اضـفاء الشرعية على الاستعمار ؟ ان نظرية كهذه تتعارض مع الماركسية التى تعارض بشكل دائم فى تصدير الثورات ، والتى تنمو مع ازدياد حدة التناقض الطبقى الذى ينضج الثورة · ان نظرية كهذه تؤدى الى وجهة النظر التى ترى ان الانتفاضة المسلحة هى الصورة التى لا غنى عنها فى كل الظروف · ان مصالح الثورة العالمية فى الوقت الراهن تقتضى من الدولة السوفيتية التى أطاحت بالبرجوازية فى بلدها أن تساعدها · ولكن ذلك يقتضى أن تختار هذه الدولة شكل المساعدة التى تتفق وقوتها الخـاصة » · (لينين ـ المختارات ـ طبعة موسكو ١٩٤٧ ـ الجزء الثانى ـ ص ٢٧٩، ص٢٨٠)·

وهذه الأفكار نفسها سبق أن صاغها لينين فى مناسبة أخرى فيما يتعلق بحق الشعوب فى تقرير مصيرها · وقد رفض لينين اقتراحا مؤداه ان مبدأ حق «الامم» فى تقرير مصيرها يجب أن يتحول الى مبدأ أساسه حق «الكادحين» فى تقرير ذلك المصير · قال :

« ··· وهكذا ، يؤثرون على الجماهير بهذه المنـاقشات مدعين ان الثورة البروليتارية فى ألمانيا ستفضى الى نفس الاضطرابات ، كما حدث فى روسيا · ان الفوضى فى روسيا مرض قديم · ونحن نـناضل ضد صـعوبات هائلة من أجل خلق ديكتاتورية البروليتاريا · فطالما كانت البرجوازية ، أو البرجوازية الصغيرة ، بل حتى جزء من العمال الالمان تحت تأثير هذا المفهوم ، أى مفهوم بين البلاشفة يريدون عن طريقه أن يقيموا نظامهم بالقوة ، فستظل عبارة « حق الكادحين فى تقرير مصيرهم» لا تساعد على حل هذه القضايا · وعلينا أن نعد الاشياء بطريقة لايستطيع معها الاشتراكيون الخونة الالمان أن يدعوا ان البلاشفة يحـاولون فرض نظامهم العالمى الذى يمكن أن يصدر كما هو الى برلين تحت حراب الجيش الاحمر · وهذا ما يمكن أن يحدث لو تخلينا عن مبدأ حق تقرير المصير بالنسبة للشعوب » ·

« فحركة البروليتاريا البولندية تتخذ نفس طريقنا نحو ديكتاتورية البروليتاريا ، ولكن بأسلوب غير الاسلوب الذى اتبعناه فى روسيا · ومن

الممكن أن يكون العمال هنـــاك منزعجين لمـا تردده الروايات عن أعمال «المسلوف» ــ روسيا العظمى ــ الذين مارسوا الضغط طويلا على بولندا ، ويتصورون انهم يريدون ان يصدروا اليهم شوفيتيه روسيا العظمى تحت ستار الشيوعية · ان الشيوعية لا يمكن أن تفرض بالقوة · وحينما قلت لأحد الرفاق البولنديين الشيوعيين « انك ستقوم بثورتك بطريقة مختلفة» أجاب « لا ·· نحن سنعمل نفس الشيء ، ولكن أفضل منكم» · وليس لدى ما أعترض عليه حيال مناقشة كهذه ، اذ يجب أن نعطيهم الفرصة لانجاز رغبتهم المتواضعة فى خلق حكومة سوفيتية أفضل من حكومتنا · ولكن علينا أن نضع فى الحسبان ان الامور تجرى هنـــاك فى طريق خاصة نوعا ما ، واننا لن نستطيع أن نقول «يسقط حق الامم فى تقرير مصيرها» فنحن نضمن فقط حق تقرير المصير بالنسبة للجماهير الكادحة · ان حق تقرير المصير هذا يبدو أمرا معقدا للغاية ، فهو لا يوجد الا فى روسيا · ونحن نتنبأ بتطورات الاوضاع فى البلاد الاخرى · غير اننا يجب ألا نملى أى شيء من حيث المبدأ · (نفس المرجع ص ٤٤٠) ·

وعلاوة على هذه الفقرة يستطيع المرء أن يضيف أيضـــا العبارات التالية للينين :

« من المستحيل الحصول على السلطة السياسية (وينبغى ألا تتم أية محاولة للوصول اليها) الا بعد أن يصل ذلك الصراع الى مرحلة معينة وهذه المرحلة المعينة تختلف باختلاف البلدان وباختلاف الظروف · ولا يمكن قياسها بدقة الا على يد ساسة محنكين عميقى التفكير واسعى الخبرة والاطلاع · من قادة البروليتاريا فى كل بلد على حدة » (نفس المرجع ص ٥٩٥) ·

ان أى قارىء موضوعى يدرس لينين ليستخلص وجهة نظره دون أن يستهدف انتزاع الحجج الشكلية المؤيدة لوجهة نظرى من كتب لينين ، سيجد فى ذلك الكفاية لتحقيق مبتغاه ، ولن يعجز عن الوصول الى النتيجة التى تثبت ان وجهة نظر لينين لا تؤيد مقترحات المنظرين الصينيين، بينما تبدو بعض عبارات لينين كنقد مباشر لهم ·

ومع ذلك ، فالمنظرون والموظفون والسياسيون الصينيون ــ وهم بصدد نقدهم لسياسة التعايش وخطتهم فى حتمية الحرب ــ ينصبون من أنفسهم أشد اللينينيين ثباتا · ولكن هذا لايغير من الطبيعة الموضوعية لاعمالهم ·

ومن ثم ، فان الشيء الرئيسى ليس هو المقتطفات ، وانما الاثر التاريخى الموضوعى لأى عمل • وهذا الاثر هو الذى يقرر آخر الامر الدور الرئيسى للنقد الصينى الحالى لسياسة التعايش • ولا حاجة بنا الى الاطالة أكثر من ذلك فى المظاهر الايديولوجية والنظرية لمواقف الصينيين بالنسبة للتعايش • وانما سنخص بدلا من ذلك فى دراسة أفكارهم على ضوء ما يمكن أن تحدثه من أثر على ازدياد انتشار الاشتراكية على الصعيد العالمى •

الفصل السادس

حول حتمية الثورة المسلحة

واذا أردنا أن ندرك المغزى الكامل للخطة السياسية الصينية حول حتمية الحرب • فانه يلزمنا دراسة نظرية أخرى يؤكدها المنظرون الصينيون اليوم ، الا وهى نظرية العنف ، أى نظرية الثورة المسلحة • أو الحرب الثورية فى كل بلد ، فان هذه النظرية تقوم بدورها على أساس مجموعة من المقتطفات المنتزعة من مؤلفات واضعى الماركسية واللينينية بصورة مشوهة ، وليس على أساس من تحليل الوقائع الموضوعية •

وهنا تعرض لنا مسألتان تحتاجان الى شرح :

ماهو الهدف من أن نورد تلك النظرية ضمن بحث يدور حول السلام والتعايش ؟ وما هى العلاقة التى تربط هذه النظرية بالماركسية اللينية ؟

الحق أن هذه المسألة قد أقحمت ـ بوضعها المجرد تماما ـ على المناقشة حول السلام والحرب ، مما يوضح أن أصحاب هذه الآراء الخاصة بحتمية الثورة المسلحة لم يهتموا بالمرة بتوضيح آرائهم نظريا أو علميا ، وانما هم يحتاجون اليها فقط ليضفوا على نظريتهم حول حتمية الحرب مغزى خاصا •

والواقع أن هذه الفكرة ، الى جانب فكرة حتمية الحرب ، انما هى بمثابة حجر أساس يضاف الى النظرية القائلة باستحالة التعايش •

وهم يستخلصون من هذه الآراء نتيجتها المنطقية القائلة أنه مادام شكل الثورة المسلحة ، ونفس اشكال ديكتاتورية البروليتاريا ، أمران ضروريان لانجاز تحول من الرأسمالية الى الاشتراكية فى جميع أنحاء العالم فان أى حديث عن التعايش لن يكون سوى عمل رجعى يعوق الثورة ، اذ أن الحرب بين العالم الاشتراكى والعالم الرأسمالى ، ليست مجرد عامل يعجل بالتطور ، وانما هى فى الحقيقة شكل من أشكال الثورة العالمية • والنتيجة الأخيرة والمنطقية والحتمية المستخلصة من مثل هذه الآراء لا يقتصر مؤداها على أننا لا ينبغى أن نناضل ضد الحرب ، بل تعنى أيضا أنه يجب أن نكون راغبين فيها مادامت هذه الحرب بالذات ستعجل بالثورة الاشتراكية العالمية •

فاذا مافسرت الأمور بهذا الشكل ، فان حتمية الحرب لن تكون هنا ـ كما كانت ـ فى وجهة نظر لينين ـ نتيجة لكون « التناقضات الاستعمارية تؤكد الحرب بصورة حتمية » ، وانما تصبح نتيجة لا غنى عنها لتسوية الحساب مع الرأسماليين بطريقة ثورية • اذن ، فالنظرية الصينية عن

حتمية الحرب ليست مجرد تكرار جامد لآراء عتيقة فى ظروف حديثة ٠ ولكنها تكتسب مضمونا جديدا تماما ٠

والصينيون — وهم يســـوقون مبررات نظرتهم التى تنكر امكانية التعايش وتتضمن الجنوح نحو قوى الحرب — يخلطون عمدا أو عن غير عمد بين مسألة الحرب العالمية ، ومسألة الثورة والحرب الأهلية ٠ وهم يفعلون ذلك بهدف اثبات أن أية حرب تشنها البلاد الاشتراكية ضد غيرها من البلاد لن تكون الا حربا ثورية ، ونوعا من الحرب الأهلية لتوسيع الانجازات الثورية بمعنى أنها ثورة عالمية ٠

وهنا نجد الدلالة العميقة للربط بين الآراء القائلة بحتمية الثورة المسلحة فى كل بلد ، والآراء القائلة بحتمية الحرب ٠ اننا اذا سرنا مع هذه النظرية الى نهايتها فانها ستصل بنا — ببساطة — الى تبرير نوع خاص من البونابرتية الحديثة ٠٠٠ أى الى الخلط بين الحرب العدوانية والحرب الثورية ٠

وسأقتطف عبارتين من كتابات الكتاب الصينيين والتى رغم مظهرها الماركسى — لا يمكن ان تخفى حقيقتها المعادية للماركسية وللمضــــمون الاشتراكى ٠

« مادامت هناك قوى معادية للثورة ، فلا بد ان توجد ايضــا قوى ثورية لتقف فى مواجهتها ٠ ولا يمكن ازاحة القوى المعادية للثورة بدون قوى ثورية ، وأى دولة توجد فيهـــا الطبقات المستغلة فى السلطة ، فهى قوى معادية للثورة حتى ولو اضطرت الى عدم استعمال ذلك الســـلاح الجديد (يقصد القنابل الذرية والاسلحة الصـــاروخية) ٠ واى دولة استعمارية سوف تبقى « هيئة » استعمارية تستند الى استخدام القوة ، الى ان تهزم وتحل محلها دولة الشعب ، دولة ديكتاتورية البروليتاريا فى ذلك البلد ٠ ان الحرب هى التعبير الحاد عن حكم القوة ٠ وقد يكون الشكل الذى تتخذه حربا أهلية ، وقد يكون حربا خارجية ٠ (العلم الاحمر ١٩ ابريل ١٩٦٠) ٠

فالحرب العدوانية طبقا لهذا المفهوم ليست حقا فحسب ، بل هى ايضا واجب ثورى بالنسبة للبلاد الاشتراكية ، لان رفض الحرب سيكون معادلا لرفض الثورة ٠٠

وأكثر من ذلك ٠٠

فحيث انه يوجد تناقض بين الاســـتعمار والمســـتعمرات ٠ فان الاستعمار لا بد ان ينهب ويسحق المستعمرات ، فيثير بذلك حتما مقاومة

شعوبها ، ومن ثم يوجد عداء بين هؤلاء الذين يمسكون بزمام السلطة ـ أى البرجوازيه ـ والشعب ، أى البروليتاريا وباقى الامة • فالبرجوازية مضطرة لبذل مزيد من الجهود لتقوية سلطتها ، ولذلك نستنهض بالحتمية النضال الثورى للبروليتاريا ولأوسع فئـــات الأمة ، وحيث أن العـداء موجود بين المعسكر الاستعمارى والمعسكر الاشتراكى ، فان الاســتعمار سوف يسعى دائما وبكل الطرق الممكنة لتحطيم البـــلاد الاشـــتراكية و « تفريقها » • وطالما لا يستطيع أن يشن « حربا ساخنة » فانه سيمارس ما يسمى بالحرب الباردة • وهذا ينبغى ان يدفع بالبلاد الاشـــتراكية الى العمل على الدفاع عن نفسها •• وكل هذا يحدث فى استقلال عن ارادة الانسان (مقالة شى تانج هيسيانج ـ العلم الاحمر • ١٥ ابريل ١٩٦٠) •

هنا ايضا نجد اتجاها للربط بين العوامل الاشتراكية والعوامل المعادية للاستعمار فى داخل أى بلد ، وبين السياسة القائلة بحتمية الحرب بين البلاد الاشتراكية والبلاد الرأسمالية •

والمضمون السياسى الحقيقى لهذه النظريات الصـــينية يكون اكثر وضوحا عند ما نسترجع بعض الفقرات من مقال شانج يى السابق ذكره، والذى يدفع فيه الشيوعيين اليوغوسلاف بالمراجعة ، وخاصة فيما يتصل « بالصراع الطبقى العالمى » •

فما هو مفهوم المنظرين الصينيين ـ بالدقة ـ عن فكرة « الصراع الطبقى العالمى » • ؟ ان هذه الفكرة تعنى بالنسبة للماركسى شيئا واحدا فقط ، هو الوحدة والروابط المشتركة بين كافة العمليات الاجتمـــاعية الداخلية على الصعيد العالمى • ولكن عبارة « الصراع الطبقى العـــالمى » تعنى ـ بالنسبة للمنظرين الصينيين حتمية الحرب بين البلاد الرأسمالية والبـــلاد الاشتراكية • وهـــذا ، أولا ، تشويه واضـــح للتعاليم الماركسية المتصلة بالصراع الطبقى ، وثانيا تبرير ـ مقدما ـ لاية حرب قد يبدؤها أى بلد اشتراكى ضد أى بلد غير اشتراكى ، أو ضد أى بلد يرى هو أنه غير اشتراكى •

وبكلمات أخرى •• ان المرء ما ان يتخلى عن وجهة النظر التى تقول ان عملية الثورة هى عملية الحل الثورى للتناقضات الداخلية فى المجتمع بواسطة القوات الداخلية فى هذا المجتمع ، وما ان يشرع فى الخلط بين الحرب العالمية والثورة ، حتى يقع فى خطأ القول بضرورة الحرب العدوانية كشكل للثورة العالمية •

ثم ان المنظرين الصينيين ، وهم يتقدمون بهذه الآراء يحـــرفون بشنى الطرف وجهه نظر الشيوعيين اليوغوسلاف ؤبرنامجهـــم الخـاص بوسائل واشكال واساليب الانتقال من الراسمالية الى الاشـــتراكية • حتى « يكتشفوا » من ناحية علاقة بين سياسة اليوغوسلاف في التعايش، وبين الاصلاحيه وليتبتوا من ناحية اخرى أنالصراع ضد الاصلاحية يتطلب أيضا صراعا لا يرحم ضد سياسة التعايش • وبينما هم يقومون بذلك ، يحاولون في انتقاداتهم لنا أن ينسبوا الينا كلاما مختلفا ، مؤداه أننا نقول بأن الرأسمالية تتطور أوتوماتيكيا الى اشتراكية ، واننا ندعو الى سياسة ديمقراطية اشتراكية اصلاحية • وان هذا هو الطريق الوحيد الممكن للسير نحو الاشتراكية ••• وهلم جرا • هذا ، بينما الحقيقة أن برنامج عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف يتحدث عن ذلك كما يلي ••

أولا : ان الثـــورات هي التعـبير الحتمي عن كل المتناقضـــات الاجتماعية ، وهي ضرورة للتقدم الاجتماعي ، حتى يمكن التحول من نظام اجتماعي الى نظام اجتماعي آخر ولكن هذا لا يعني ان التحول الثـورى وديكتاتورية البروليتاريا لابد وأن يتخذا نفس الشكل وان يتبينا نفس الاجراءات • أو ان الصدام لا بد وان يتم بنفس الحدة أو يسير في نفس طريق التطور في كل البلاد •

ثانيا : انه من الممكن بالنسبة للقوى الاشـــتراكية ان تكســـب القيادة السياسية ، وان تجعل اقامة العلاقات الاشتراكية عملية ممكنة ، بطريقة أو بأخرى ، فجأة او بالتدريج ، وبطريقة سلامية نسبيا • وان امكانية التحول السلمى تزداد بتزايد القوى السياسية والاقتصـــادية والدور الدولى للبلدان الاشتراكية ــ وهذا بالدقة نتيجة للانجـــازات السالفة التى احرزتها الثورات المنتصرة الاخرى •

ثالثا : ان تعاظم قوى الاشتراكية ومدى تأثير نموذجها الناجح فى النفوس ، والتأثير المادى المتزايد للعلاقات الاشتراكية على حياة العالم الاقتصادية ، وكذلك تزايد وعى الشـعوب باستحالة الاستمرار بنفس الاسلوب القديم فى الحياة ــ كل ذلك يسرع بعملية تحطيم الرأسمالية ، ويدفع قيادة المجتمع الرأســمالى الى المساومة مع الطبقة العاملة وتقديم تنازلات لصالحهـا • وفى نفس الوقت ، فان هذه العوامل تعزز نفس الطبقة العاملة وتجعل من الأيسر لها ــ عن ذى قبل ــ أن تستفيد من الوسائل البرلمانية فى النضال ، ومن أشكال الديمقراطية البرجوازية ، لكى تدعم لها نفوذها السياسى فى المجتمع بشكل تدريجى • كما تسهل لها أيضا تحقيق المطالب والاهـداف الاشتراكية بشـكل مطرد • وأخيرا ،

فان هذه العوامل تساعد قوى سياسية أوسع بكثير من قوى الاحزاب الشيوعية على أن تتخذ من اقامة الاشتراكية برنامجا لها ٠

ان عملية الثورة الاشتراكية العالمية لا تأخذ شكل حرب خنادق بين جبهتين ، ولكنها تجرى كعملية اجتماعية عضوية ، ترتبط فيها الثورة والحروب الثورية والمعادية للاستعمار بالتطور ، أى بعمليات النضال السياسى السلمى واكتساب القوى الاشتراكية والتقدمية الأخرى لمراكز سياسية بالتدريج ٠ كذلك فهى ترتبط بالتطور المادى على أساس اجتماعى ٠ ومثل هذا الطريق يتطلب ــ ولا شك ــ أشكالا سياسية مختلفة فى عصر التحول من الرأسمالية الى الاشتراكية ٠

اننا نؤكد الظروف الداخلية الموضوعية الذاتية لكل بلد على حدة ، هى التى تحدد فى المقام الأول هذا الطريق أو ذاك لحل التناقضات الاجتماعية ٠ ومن المؤكد انه فى البلاد المتقدمة توجد امكانيات أكبر للطريق السلمى ٠ أكثر مما يوجد فى البلدان الأقل تطورا ، حيث تتخذ التناقضات الداخلية أشكالا أكثر حدة ٠ لذلك ، فليس مصادفة ان تتبنى الطبقة العاملة فى كثير من البلدان الأوروبية وجهة نظر الاشتراكية الديمقراطية أساسا ، فى حين انها فى البلاد التى لم تتطور بعد فى آسيا وأفريقيا من النادر أن تؤمن اليوم بالاشتراكية الديمقراطية ، بينما نجد للاحزاب الشيوعية نفوذا قويا ٠ ولهذا السبب ، كان يسيطر على يوغوسلافيا ــ مثلا ــ قبل الحرب نفوذ الحزب الشيوعى اليوغوسلافى ، بينما كان نفوذ الاشتراكية الديمقراطية فى النمسا ــ وهى بلد مجاور أكثر قوة ٠ وأى انسان يجادل فى كل ذلك ، ويكتفى بدراسة المظاهر الايديولوجية فقط لهذه القضية على أساس أنها سمة انتقالية أو وليدة المصادفة أو مجرد انعكاس للسمات الخاصة الذاتية ، لن يكشف الا عن ضحالة فهمه للماركسية ٠

وفى الحديث عن موقف لينين بالنسبة للحرب سأورد هنا كلمات كروبسكايا وهى تصف وجهة نظر لينين عن دور الطبقة العاملة فى التاريخ ٠

تقول :

« ٠٠٠ فمنذ البداية ، أى منذ ان اصبح ماركسيا ، كان له وجهة نظره الواضحة عن الدور العظيم الذى يتعين على الطبقة العاملة ان تلعبه فى التاريخ ٠ وقد تحدث فى مقالاته الاولى عن الدور التاريخى العظيم الذى قدر للطبقة العاملة ان تلعبه ٠ ولكنه فى نفس الوقت كان ــ فى حديثه عن الطبقة العاملة ــ يتناولها كطبقة عاملة محددة الجنسية ٠ ففى

حديثه عن طبقتنا العاملة الروسية كان يتكلم عما تمثله هـــذه الطبقة وحدها » ٠ ا٠ك٠ كرويكايا ـ عن لينين ـ موسكو ـ ١٩٦٠ ص ٤١» ٠

ان الماركسية نظرية حية وخلاقة وخالدة ٠ وهي تعمل باستمرار على تصحيح اخطائها بمراقبة نفسها في الواقع ٠ ومع ذلك ، فالماركسيون الصينيون يتميزون اليوم بالنزعة الانقسامية والذاتية والجمود ٠ ان الكتاب الصينيين ـ على عكس لينين ـ يبحثون الامور بشكل جامد ٠ فالطبقة العاملة بالنسبة اليهم ظاهرة ثابتة لاتتغير ، كما لو كانت مقتطفا منزوعا من احد النصوص ، ومفهوما بشكل جامد ، كتجريد خالص يمكن ان تنسب اليه أية صفة من أى نوع ـ وذلك طبعا طبقا لوجهة نظر الكتاب الصينيين المجردة ٠ ومن المسلم به ، ان طبقة عاملة مجردة مثل هذه يمكن ان ترضى كافة المفاهيم الايديولوجية الجامدة للمنظرين والسياســيين الصينيين ، فيما يتصل باستراتيجية « الثورة العالمية » كصدام عنيف بين نظامين ، تقف فيه الطبقة العاملة الثورية فى الصفوف الخلفية للعدو ٠ ولكن هذا لا يساير الواقع ٠

فالطبقة العاملة ليست مقتطفا منزوعا من كتاب ، وليست شيئا مجردا ، وانما هي كائن حى فى تطور مستمر وفى حركة دائمة ، وليست جوهرا متجانسا او كلا متناسقا ، ولكنها بناء معقد يتخذ سمته الاساسية من أن العمال لا تتوافر لديهم جميعا نفس ظروف العمل أو نفس المؤهلات ، او نفس ظروف بيع قوة عملهم ، او نفس الثمن لقوة عملهم ، او نفس الاجور او أى شىء آخر ٠ وبناء على ذلك ، فان رد الفعل بالنسبة للطبقة العاملة ووجهة نظرها ، انما يتأثران بدورهما بالظروف الاقتصـــادية والاجتماعية العامة ، وكذلك بالوضع الداخلى القائم بالنسبة للطبقـــة العاملة ٠ وحيث ان كلا من الظروف والوضع الداخلى القائم للطبقــة العاملة فى تغير مستمر ، فان رد الفعل المحدود ، ووجهة نظر الطبقة العاملة ، يتغيران بالتالى ٠ وقد تحـــدث ماركس فى عصره عن ظاهرة « تبرجز » الطبقة العاملة ، الانجليزية ، كما تحدث عن « ارستوقراطية الطبقة العاملة » ٠ كذلك تناول لينين باسهاب نتائج هذه الظواهر التى كانت ـ على وجه الدقة ـ هى التى ادت الى الانقسام الكبير فى حركة الطبقة العاملة ٠

وواضح ان هذه الظواهر ليست مجرد خلافات ايديولوجية ٠وانما ثمة عوامل مادية لها جذورها الاقتصادية والاجتمـاعية العميقة تفرض اشكالا وطرقا متعددة للتطور الاجتماعى نحو الاشتراكية ٠ ومن اجـل ذلك ، فان المنظرين الصينيين يذهبون ـ طبقا للنتائج النهائية لنظريتهم

ـ الى ابعد من ذلك ، فيصلون الى حد الموافقة على حرب عدوانية يقوم بها المعسكر الاشتراكى ضد المعسكر الاستعمارى ، موهمين انفسهم ان حربا كهذه ستكون محل ترحيب من جموع الطبقة العاملة التى ستأخذ مكانها فى مؤخرة جيوش البلاد الرأسمالية • ومنذ زمن بعيد كان روبسبير يردد الحكمة القائلة ، انه لا يوجد شعب يقبل « الحملات العسكرية » • ولم يلبث نابليون من بعده ان اقتنع بتجربته الخاصة ، بمدى ما فى هذه الحكمة من بعد نظر ! • كذلك اقتنع بنفس الشىء كل من كان يتوهم ان نشيد المارسيلييز الثورى كاف جدا لاخضاع اوروبا للمصالح البرجوازية الفرنسية •

ومن ثم فان المنظرين الصينيين يميلون فى سياستهم العملية ـ الى تجاهل بعض الاوجه الاساسية للتطور ، بل واكراه الثورة الاشتراكية والعالم بأسره على ان يتواءما ، مع القالب الجاهز للافكار النظرية الصينية المصطنعة • وهم بذلك انما يقومون على تحطيم قوى الثورة والاشتراكية • اذ يدفعون بها الى طريق محفوف بالمخاطر فى السياسة الخارجية •• طريق تتجلى فيه العواقب الوخيمة التى تولدها البيروقراطية العاتية ، ويفرضها التسلط الشديد من جانب الدولة فى السياسة الداخلية •

ان جوهر العمل الثورى القائم على اساس الاشتراكية العلمية ـ اى على اساس الماركسية ليس محاولة اقامة عالم طبقا لنموذج محدد بالذات ، وانما هو اطلاق القوى الداخلية للمجتمع ، وتدعيمها ، وتوجيهها ، اذ ان هذه القوى هى التى سيؤدى نشاطها بالضرورة الى دفع المجتمع فى طريق التقدم الاشتراكى ، والهدف النهائى المنشود •• ذلك الهدف الذى لا يتحدد سلفا ـ اذ ليس ثمة نهاية للتقدم ـ وهى فى ذلك لا تبن المجتمع وفقا لتعليل ايديولوجى مجرد، وانما لأن مصالحها الاجتماعية والاقتصادية الخاصة تدفعها فى هذا الاتجاه •

« ان التاريخ الاجتماعى للبشر ما هو الا تاريخ تطوره المادى ، سواء كانوا واعين به أم غير واعين • فعلاقاتهم المادية هى الاساس فى كافة علاقاتهم • وما العلاقات المادية هذه الا الاشكال الضرورية التى يتحقق عن طريقها نشاطهم المادى والفكرى • (ماركس وانجلز ـ المختارات ـ دار النشر التعاونية ـ موسكو ١٩٣٥ المجلد الاول ـ ص ٣٧٣ ، ٣٧٤)•

ولهذا السبب بالذات ، فان التجربة الواقعية لاتسمح لأى انسان يتخطى المراحل الضرورية للتطور ، او بمحاولة اكراه التطورات الواقعية حتى تتلاءم مع الافكار المصطنعة ، دون ان تنزل به العقاب • والسياسة فى هذا كالهندسة ؛ فاستخدام موصلات غير ملائمة لنقل التيار الكهربائى من مكان الى مكان لا يؤدى الى نتائج سيئة فحسب ، بل وقد ينتهى

بكارثة • كذلك ، ان فرض الوسائل والاشكال السياسية غير الملائمة على أى مجتمع او على أى أمة اخرى لا يمكن ان يترتب عليه الا نتائج ضارة ، لذلك ، فان محاولة « منح السعادة للآخرين » عن طريق فرض الاشتراكية الصينية او أى نوع آخر من الاشتراكية من الخارج لا يمكن ان يكون بأى حال من الاحوال هدفا ثوريا ، بل لا يمكن ان يكون الا ظاهرة رجعية وعائقا فى طريق تطور الاشتراكية •

وكان من الممكن أن يكون فى هـــذا القدر الكفاية • ولكن مادام المنظرون الصينيون يستغلون الماركسية واللينينية لتدعيم نظريتهـــم بحتمية الثورة المسلحة ، فقد اصبح لزاما علينا ان نضع مزاعمهم تلك جنبا الى جنب الوضع الصحيح للاشياء •

لقد صاغ ماركس فكرته عن الوسائل التى تستخدم فى الصراع من اجل الوصول الى السلطة فى مواضع متعددة من كتاباته •• ومن بينها عبارته المشهورة :

« لا بد فى يوم أغر أن يأخذ العمال السـلطة السياسية فى أيديهم من اجل انهاء الاوضاع السياسية القديمة التى تحمى التنظيمات الاجتماعية البالية ـ اللهم الا اذا أرادوا ان يفعلوا مافعله المسيحيون الاوائل الذين لم يهتموا بهذه المسألة وانما أعلنوا ان مملكتهم ليست فى هذا العالم • ولكننا لم نزعم ابدا ان هذا الهدف انما يتحقق بوسيلة واحدة لاتتغير •

«اننا ندرك ان التنظيمات القائمة فى كل بلد ، وكذلك طابع هذا البلد ، وتقاليده ، يجب ان تؤخذ فى الاعتبار • ونحن لا ننكر ان هناك بلادا ـ مثل أمريكا وانجلترا ، وربما اضفت هولندا ، لو كنت اعرف تنظيماتها معرفة اوفى ـ قد يتمكن عمالها من تحقيق اهدافهم بالوسائل السلمية • ولكن اذا كان الأمر كذلك ، فينبغى أيضـــا أن نعترف بأنه فى معظم بلدان اوربا سيتحتم استخدام وسائل العنف لتدعيم ثورتنا ـ أى اننا ينبغى ان نلجأ فى اللحظة المناسبة الى وسائل العنف ، وذلك بالتحديد من اجل استتباب حكم العمل نهائيا • (ماركس ـ فى خطاب القاه فى مدينة امستردام على أثر مؤتمر لاهاى) :

واصحاب النظريات الصينية يعرفون هذه العبارة التى كتبهـــا ماركس ويرجعون اليها أحيانا • ولكنهم يقولون ـ كما يقولون عن بعض كتابات لينين ان الظروف قد تغيرت ـ وان الامور لم تعد كما كانت يوم كتب ماركس ما كتب وهم يسلمون ـ من الناحية النظرية ـ بامكانية الانتقال السلمى الى الاشتراكية • ولكنهم يرون ان ذلك غـــير ممكن التحقيق فى الظروف الواقعية القائمة اليوم •

أما وان الظروف قد تغيرت ، فهذا مالاشك فيه • بيد أننا نرى أن تغيرها هذا كان فى اتجاه زيادة ــ لانقصان ــ احتمالات تحقيق اهداف الثورة الاشتراكية بوسائل سلمية نسبيا • لكن ، حتى لو كانت الوقائع قد كذبت عبارة ماركس •• حتى فى ذلك الحين ، فان المنظرين الصينيين ماكان ينبغى لهم ان يحاولوا الاستناد الى ماركس • بينما هم ينكـرون امكانية الوصول الى اهداف الطبقة العاملة بوسائل سلمية • لانهم ــ فى الواقع ــ يبررون موقفهم برفض فكرة ماركس •

وفى نفس الموضوع كتب انجلز مايلى : ــ

« يمكننا ان نفترض ان المجتمع القديم يستطيع ان يتطور سـلميا الى المجتمع الجديد ، فى البلاد التى تملك ازمة السلطة فيها حكومة شعبية، فى تلك الجمهوريات الديمقراطية مثل فرنسا وامريكا ، وفى تلك الملكيات مثل انجلترا ، حيث يستطيع من يحظى بتأييد اغلبية الامة ان يفعـل مايشاء •• (ماركس وانجلز ــ مجموعة المؤلفات الكاملة ــ طبعة دار النشر التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى سنة ٣٦ ــ الجزء ١٦ ص ١٠٨) •

تبين هذه الكلمات ان انجلز لم يحجم عن استخدام الصياغة التى تقول : « ان المجتمع القديم يمكن ان يتطور سلميا الى المجتمع الجديد • » ومن حسن حظ انجلترا انه لم يكن مهددا بان يعطيه ذوو العقـول الجامدة تقدير « ضعيف » لانه يستخدم الفـاظا محترمة وكل من يفهم روح الماركسية يعرف ان انجلز لم « ينزلق » بقوله هذا الى الاصلاحية ، وانما كان يدافع عن الماركسية • ولا شك انه لم يخطر له على بال ــ ولو للحظة واحدة ، ان الرأسمالية سوف تتحول من تلقـاء نفسـها الى الاشتراكية ، وانما كان يرى ذلك عملية كفاحية تخوضها الطبقة العاملة من اجل الوصول الى الاضطلاع بالدور القيادى فى المجتمع ، أى الى السلطة ــ وخلال هذا الكفاح السياسى الذى يتم بوسائل سلمية نسبيا ، **تحل الطبقة العاملة مهام الثورة الاشتراكية خطوة فخطوة** • ان ماقاله انجلز هو فى الواقع نفس ماقاله ماركس •

ولا شك أيضا فى ان لينين كان يؤيد موقف ماركس وانجلز من هذه القضية • وقد نقلت من قبل فقرات من لينين تبين انه لا يختلف مع ماركس حتى فى هذا الموضوع • ولن اعود هنا الى تلك الكتابات •

ومع ذلك ، ففى ايام لينين لم تكن القضية المطروحة هى ، ما اذا كان من الممكن ــ فى الصراع من أجل السلطة ــ استخدام الوسـائل السلمية أيضا الى جانب الوسائل العنيفة •**وانما كان الامر على عكس ذلك•**

كانت القضية المطروحة هى ماذا كان يجوز للبروليتاريا ان تلجأ الى العنف على الاطلاق · وكان على لينين فى ذلك الوقت ان يكافح ضـــد الاصلاحية التى كانت ترفض ـ من ناحية المبدأ ـ استخدام العنف كسلاح للبروليتاريا فى الكفاح من اجل الاشتراكية ·· وكان لينين مضـطرا الى النضال من جديد من اجل التوكيد الايديولوجى لآراء ماركس عن الثورة العنيفة وديكتاتورية البروليتاريا · كان مضطرا الى ذلك لاسباب عملية اكثر مما هى نظرية ، اذ كانت الثورة على الابواب ، وكان على احزاب الطبقة العاملة ان تجعلها هدفها المباشر وأن تستعد لتنظيمهـا وتحقيقها · ومن الواضح انه لم يكن هناك ما يدفع لينين ـ فى ذلك الوضع ـ الى اثبات الاحتمال النظرى لاستخدام الوسائل السلمية فى الكفاح من اجل الاشتراكية · وانما كانت جميع الاســـباب فى تلك الظروف ـ تدفعه الى توكيد ضرورة الثورة العنيفة · ـ

ولما كان لينين قد رأى فى تلك المرحلة المعينة ان احتمالات الانتقال السلمى الى الاشتراكية قد غدت اقل مما كانت عليه ايام ماركس ، فان المنظرين الصينيين يستنتجون اليوم ان الحديث عن امكانية استخدام « الوسائل السلمية » فى عملية الثورة الاشتراكية ، انما هو قول معاد للينينية · وبالتالى فان ماورد فى برنامج عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف عن هذه المسألة يعتبر أمرا اصلاحيا ، انتهازيا ، مراجعا ·

غير ان لينين نفسه ، هو الذى كتب العبارات التالية عن هذا النوع من « الماركسية » : ـ

« لقد قال انجلز : ان تعاليمنا ليست عقيدة جامدة ، وانما هى مرشد للعمل · وهذه العبارة الكلاسيكية تؤكد بقوة وبلاغة رائعتين ذلك الجانب من الماركسية الذى يهمنا الآن باستمرار · ونحن اذ نهمله ، نجعل الماركسية محدودة النظرة ، عاجزة ، بل وميتة · اننا بذلك ننزع منها روحها ونهدم جوهر اساسها المنظرى ـ الا وهو الجدل والنظر الى التطور التاريخى على انه تطور متعدد الجوانب وزاخر بالمتناقضات ، اننا بذلك نقطع ارتباطها بالمهام المحددة للعصر ، تلك المهام التى يمكن ان تتغير مع كل انعطاف جديد فى التاريخ · (لينين ـ ماركس وانجلز والماركسية ـ طبعة نيويورك ـ ١٩٣٥ ص ٨٥) ·

ومن هنـــا فليس من حق المنظرين الصـــينيين اطلاقا أن يرجعوا الى لينين فى اثناء الدفاع عن افكارهم الجامدة ، وهم يعرفون ذلك جيدا ، لذا ، يرمى بعضهم الى ان يؤكد فى كل مناسبة ان لينين لم ير امكان التطور السلمى الا على سبيل الاستثناء · وهو تعبير يفتقر الى الدقة ،

ولكن ذلك ليس بذى خطر فى موضوعنا · المهم هو : هل التطوير السلمى ممكن أم غير ممكن ؟ فاذا كان ممـكنا ، بغض النظر عن ندرته أو كثرته ، فان العملية التاريخية نفسها هى التى ستحدد أى الطريقتين تسـلكه الاحداث · ولقد ثبتت امكانية التطور السلمى ، لا بهذه الاقتباسـات التى أوردتها ، بل بوقائع التاريخ · وهى ليست وقائع الثورة الاشتراكية وحدها ، وانما وقائع جميع الثورات التى عرفها تاريخ الانسانية · فلم يحدث أبدا أن تكررت احدى الثورات بنفس الشكل فى بلد آخر · وانما كل ثورة تختلف عن الاخرى ·

ويصحب انتصار الثورة فى بلد من البلاد دائما حدوث تغيرات فى البلاد الاخرى ، تتم بالوسائل السـلمية ، ومن خلال مختلف الازمات السياسية ، تنتهى آخر الامر الى احداث تحولات اجتماعية مماثلة · ولكن من المؤكد كذلك انه لولا تلك الثورات الكبرى لما حدثت هـذه التحولات الاجتمـاعية الضـئيلة أو هـذه الاشـكال السـلمية للتحول الاجتماعى ·

ومن هنا ، فنحن لانختلف مع كلاسيكيات الماركسية حول هـذه القضية ، الا بقدر ماتظهر الاختلافات نتيجة لتغير الظروف التى نعيش فيهـا ، عن الظروف التى عاش فيها مؤلفو الأدبيات الكلاسيكية الماركسية اللينينية · امـا الخـلافات بين المفـاهيم الصـينية وبين الادبيات الكلاسيكية للماركسية اللينينية ، فهى جـوهرية ·· انهـا خلافات مبدئية ·

والواقع ، انه فى ظل ظروف الصراع الدائر اليوم ، تبدو المناقشة الحاليـة التى تضخمت الى حد شـاذ حول أسـاليب الثورة أمرا لا موجب له ·· بل امرا غير مفهوم ، مالم تكن تخفى وراءها اتجاها لتفسير نظرية حتمية الحرب تفسيراً خاصا · ففى نهاية الامر ، انبت تطور الثـورة الاشتراكية خلال اكثر من اربعين عاما ضرورة استخدام الاساليب الثورية العنيفة ، وكذلك ضرورة الكفاح بالوسائل السلمية · بل اكثر من ذلك فى عالم اليوم تنشأ ظروف متناقضة أشد التناقض · ففى بعض البلدان مثلا يمـكن أن تعزل الاحزاب الشيوعية وتستبعد تمـاما كعنصر سياسى او تاريخى اذا لم تتمكن من استخدام الاساليب السلمية فى الكفاح ، بينما تتعرض الاحزاب الشيوعية فى بلاد اخرى لنفس المصير اذا لم تتمكن من استغلال ظروف الوضع الثورى وتطيح بحكم الرجعيين المستند الى العنف ، مستخدمة وسائل العنف ، وتقدم لنا التجربة الواقعية امثلة للحالتين : ففى ظروف التطور الاجتماعى السلمى نسبيا ، يؤدى استخدام

الشيوعيين للعبارات الثورية الجوفاء الى انعزالهم ، مما يجعلهم غير قادرين على توكيد دورهم كقوة قيادية عند ازدياد حدة التناقضات الاجتماعية الداخلية ، في حين ينبغي ان يكون آلامر على العكس .. **اى ان وسائل الكفاح لايجوز ان تقررها مبادىء جامدة ، بل ينبغي ان تحددها ظروف الكفاح الموضوعية والذاتية الملموسة في اللحظة المعينة** . فقد قال انجلز :

« ... كل وسيلة تؤدى الى الهدف تلائمنى واعتبرها ثورية ، سواء كانت اشد الوسائل عنفا أم كانت تبدو اشدها مسالمة : (انجلز ـ من رسالته الموجهة الى هرسون تريبيه ـ ١٨٨٩) .

هذه هي العبارات الواضحة التي يستخدمها الرجل الماركسي ، والتي يجب أن يستخدمها كل ثورى واقعي ، فيما يتعلق بأساليب الكفاح .

ولكن من الجلي أن المنظرين الصينيين لا يعنيهم الوضوح في هذا الأمر، بل هم يريدون حجة يؤيدون بها قضية أخرى هي: اذا كان احتمال **انتصار** الاشتراكية بالوسائل السلمية غير متوافر من الناحية العملية في أقصى ركن من أركان الارض ، فان ذلك يسهل اثبات أن التعايش ليس الا وهما وخداعا للنفس ، وأن الحرب أيضا يمكن أن تكون سلاحا للثورة العالمية .

والنتيجة النهائية لهذا المنطق ، ان كل من « يخشى » الحرب ، أى كل من يدعو للتعايش ، انما يعادى الكفاح الثورى من أجل الاشتراكية ، ويدعو الى الاصلاحية .

الفصل السابع

حول الحرب العادلة وغير العادلة

بيد أن هنــاك نظرية أخرى تلعب دورا كبيرا فى مآخذ الصينيين على السياسة الخارجيــة ليوغوسلافيا وسياسة التعــايش السلمى ، تلك هى نظريتهم حول الحرب العادلة وغير العادلة • والحق أننا لا نستطيع أن نحصل على صورة كاملة لفكرة الصينيين عن السياسة الاشتراكية العالمية فى عصرنا هذا دون أن نتناول هذه النظرية بالبحث والاستقصاء •

ونستطيع أن نضع خلاصــة هذه النظرية ـ كما يفسرها المنظرون الصينيون فيما يلى :

حيث أن الحرب نوعان ، عادل وغير عادل ، فان الشيوعيين لا ينبغى أن يعارضوا الحروب على علاتها ، وانما هم يعــــارضون فقط الحرب غير العادلة • أما الحرب العادلة فهم لا يعارضونها •• اذ أن ذلك يكون بمثابة تهادن مع قوى الشر •• قوى الامبريالية • وهــذا موقف انتهازى يتنافى مع الثورية •

وهكذا •• ينقلب المنطق ليقف على رأسه •

فخلاصة هذا الرأى وتفسيره هو : حيث أن الشــكل المؤكد الذى ستحل به التناقضات فى « الصراع الطبقى العالمى » هو الحرب بين العالم الرأسمالى والعالم الاشتراكى ، وحيث ان هذه الحرب ـ من وجهــة نظر الاشتراكية ستكون حربا عادلة وثورية ، فانه يتعين على المرء الا يعارضها بل ان النضال ضد هذه الحرب ـ تبعا لهذا المنطق ـ يصبح عملا خاطئا• لا يفترق عن الكفاح ضد الثورة ذاتها فى أى بلد من البلدان •

ثم تربط هذه الحجج كلها بخيط من الاتهامات والتشهير بالشيوعيين اليوغوسلاف الذين لا يميزون بين الحرب العادلة وغير العــــادلة ، والذين يقفون موقف سائر « المسالمين » ، فيعارضون فى كل الحروب دون استثناء وهذا معناه الدخول فى تحالف مع الامبريالية ، ورفض تقديم المساعدة للشعوب المقهورة المناضلة من أجل استقلالها •• وهكذا دواليك •

وليس فى نيتى هنــا أن أضيع وقتــا فى مناقشة هــذه الاتهامات والتشهيرات • فمن الامور المعروفة جيدا ان جمهـــورية يوغوســــلافيا الاشتراكية ما برحت منذ قيامها تقدم كل ما تسمح به امكانياتهــا من مساندة شاملة سواء للشعوب المقهورة المناضلة فى سبيل الحرية ، أو لكافة الحركات التقدمية والمعادية للامبريالية • ولن يستطيع التشهير أيا كان ان يخفى هــذه الحقيقــة عن أعين الأمم المنــاضــلة التى تلمس مدى تأييــد يوغوسلافيا لها فى نضالها •• الامر الذى يعرفه النقاد الصينيون جيدا• ومن هنا ، فان تشهيراتهم لاتكشف الا عن مدى تململهم واســـتيائهم من

السمعة الطيبة التى تتمتع بها سياسة يوغوسلافيا الاشتراكية الديمقراطية التقدمية المعادية للامبريالية ، لدى الشعوب المناضلة من أجل الاستقلال • وان دلت ململتهم على شيء ، فانما تدل على النقاط الضعيفة فى سياسة الصين لا فى سياسة يوغوسلافيا •

وبعد •• فيبقى بعد ذلك ان نقول فى هذا الشأن شيئا قليلا حول هذا «التفسير» الخاص لنظرية الحرب العادلة وغير العادلة ، الذى يتقدم به الناطقون باسم الصين •

لقد كان الماركسيون فى مرحلة سابقة ـ يقصدون من وراء هذه « الصيغة » ان يحددوا الموقف الذى يتعين على الطبقة العاملة ان تتخذه ازاء الحروب التى تخوضها بلادها أو برجوازيتها ، وبمعنى آخر : متى يتعين على الطبقة العاملة ان تؤيد الحرب ومتى ينبغي عليها ان تناهضها ؟ ووجد الماركسيون ان الطبقة العاملة يجب ان تؤيد الحروب الوطنية والدفاعية ، والتحريرية ، والثورية ، وانها يجب ان تعارض حروب الغزو وبالذات حروب الامبريالية الرامية الى تقسيم العالم • ولقد أطلق الماركسيون على النوع الاول الحروب العادلة ، وأطلقوا على النوع الثانى الحروب غير العادلة ، لا يقصد وضع تقييم علمى أو سياسى مطلق ، فهذه الصيغة لا تتفق وتقييم من هذا النوع ، وانما بقصد تبيان الموقف السياسى الذى يتعين على الطبقة العاملة أن تتخذه ازاء هذه الحروب أو تلك •

وبهذا المفهوم مازالت هذه « الصيغة » تحتل حتى اليوم نفس الصلاحية ، ونفس الدلالة فى نفس الظروف • وبهذا المفهوم ساندنا مصر ابان العدوان على السويس ، وأيدنا الحرب الوطنية التحريرية للشعب الجزائرى ، وعارضنا التدخل فى لبنان •• وهلم جرا • ولسوف نواصل ـ على نفس المنوال ـ تقديم كل ما نستطيع من عون لكل بلد يخوض حربا عادلة من أجل التحرر الوطنى والاستقلال ، ضد المعتدين أو الغزاة الامبرياليين •

ولكن •• عندما توضع نظرية « الحروب العادلة وغير العادلة » بمفهومها هذا جنبا الى جنب ، مع تفسير الصينيين لها ، فاننا نصطدم بنقطتين متناقضتين فى التفسيرين •

فالشيء الذى يتضح ـ أول ما يتضح ـ من كل ما تقدم هو أن النظرية الماركسية حول « الحروب العادلة وغير العادلة » انما تعبر فقط عن تقييم لطبيعة هذه الحرب أو تلك ، ثم موقف الطبقة العاملة من هذه الحرب أو تلك ، سواء منها الحروب التى تندلع بعيدا عن الطبقة العاملة ، أو تلك التى تساق اليها الطبقة العاملة سوقا •

ان النظرية الماركسية عن الحرب العادلة وغير العادلة لا يمكن أن تعنى أن الطبقة العاملة ملزمة بالسعى لاشعال الحروب العادلة ، أو حتى ملزمة بالقتال فى أية حرب عادلة ، فالأدبيات الكلاسيكية للماركسية واللينينية تؤكد دائما أن مجرد عدالة الحرب لا يكفى لتحديد موقف البروليتاريا الثورية منها ٠وانما الذى يحكم هذا الموقف ، هو الدور الذى تلعبه هذه الحرب فى التطورات العالمية المعقدة ٠ فمن الممكن ـ حتى بالنسبة لأكثر الحروب عدالة أن تتمخض عن نتائج رجعية ولهذا السبب كان لينين يرى أنه من الخطأ أن يؤيد أحد الحرب فى حد ذاتها مهما كانت عادلة ، اذا كانت هذه الحرب ستتمخض عن نتائج رجعية على الصعيد العالمى٠ وضرب لينين مثلا عن ذلك بالحرب بين الصرب من ناحية، والنمسا والمجر من ناحية أخرى ٠ كذلك أدان لينين ـ من حيث المبدأ ـ الحروب بسبب الحدود ، مهما بدت عادلة ، لأنه كان يرى أن هذه أيضا مسألة يتعين معالجتها عن طريق الصراع الداخلى ٠ لا عن طريق الحرب التى تضر أكثر مما تنفع ٠ ان الأدبيات الكلاسيكية للماركسية واللينينية بشكل عام ، اذ تؤمن ايمانا عميقا بالحركة الداخلية للتطور الاجتماعى فى كل بلد، ترى وجوب الاعتماد أساسا على هذه الحركة عند التعرض لحل المشاكل المتنازع عليها بين الامم ، وهى كلها تجمع على رفض مجرد التفكير فى شن حرب عالمية ، واعتبار هذا حماقة حتى ولوكان بحجة نشر الاشتراكية ٠

وهذه الحقيقة تتضح بنوع خاص عندما نفحص الموضوع على ضوء علاقات القوى الاجتماعية فى العالم اليوم ٠ فالحرب التى نتحدث عنها هنا وهى الحرب الوحيدة الممكنة ، باستثناء الحروب المحلية وحروب التحرر الوطنى ـ هى حرب عالمية بين كتلة البلاد الاشتراكية وكتلة البلاد الرأسمالية ٠ وهذا يعنى أن الوضع قد تغير تغيرا أساسيا منذ أيام ماركس ولينين ٠ فالى جوار البلاد الرأسمالية توجد اليوم بلاد اشتراكية لها جيوشها وتكنولوجيتها العسكرية وقوتها العسكرية وقوتها الاقتصادية وبين هذين المعسكرين الهائلين تستقطب التناقضات ٠ وهنا لا يكون السؤال : هل الحرب بين هذين المعسكرين عادلة أو غير عادلة ، وانما يصبح : هل الخط الذى ستتبعه القوى الاشتراكية القائدة لحل هذه التناقضات سيكون عن طريق الحرب أم سيكون عن طريق وسائل أخرى هى العمليات الداخلية للتطور الاجتماعى ؟

ومعنى هذا أن المشكلة على وجه التحديد ليست ما اذا كانت القوى الاشتراكية تؤيد أم لا تؤيد حربا تنلع بعيدا عنها أو تفرض عليها ، وانما المشكلة هى ما اذا كانت هذه القوى الاشتراكية بالذات ستقرر أن الحرب

يمكن تجنبها أم انها ستقرر ان الحرب أمر لا مفر منه لحسم التناقضات القائمة ·· بمعنى ، هل يتعين على هذه القوى أن تتبع سياسة حرب ، أم سياسة سلام وتعايش سلمي ··

وانها لمعضلة لا يوجد لها سوى حل واحد يتفق مع الماركسية ومع الجوهر الانساني للاشتراكية · ذلك هو : انه اذا كان يوجد أي طريق آخر غير طريق الحرب لحل هذه التناقضات ، فان القوى الاشتراكية تستطيع — بل يتعين عليها أن تأخذ بسياسة السلام والتعايش السلمي · ونحن جميعا لا نعلم فقط ان مثل هذا الطريق لحل التناقضات موجود بالفعل بل نعلم أيضا أن الحرب لن تكون ببساطة هي الوسيلة التي يلجأ اليها لحل تناقضات من هذا الطراز ·

ومع ذلك ، فالشيوعيون اليوغوسلاف — في نظر النقاد الصينيين عملاء أمريكيون ، وهم يزينون واجهة الامبريالية ·· وذلك لا لشيء الا لانهم يقفون من هذه المعضلة بالذات في جانب السلام والتعايش السلمي ، بمعنى انهم يكافحون ضد الحرب ·

وهكذا تنقلب صيغة الحرب العادلة وغير العادلة في تفسير الصينيين لها الى شيء غامض غريب مؤداة أساسا أن المرء لا ينبغي له ان يناضل من أجل السلام اذا كانت الحرب التي ستنتهك هذا السلام حربا عادلة · ولكن هذه النتيجة — كما قدمنا — لا يمكن ان تكون صحيحة · الا اذا كانت الحرب هي الوسيلة الوحيدة لحل تناقض من نوع خاص · وهنا نقطة الضعف (كعب أخيل) (١) في النظريات الصينية · فعلى هذا الاساس لا يصبح لمزاعم النقاد الصينيين المعادية لليوغوسلاف أي دليل على خطأ السياسة اليوغوسلافية ، يمكن أن تستند اليه بينما تلقى هذه المزاعم في نفس الوقت ضوءا غريبا على تصورات الصينيين عن الثورة الاشتراكية في عالمنا اليوم على أساس انها « حرب بين رياح الشرق والغرب » ·

وهكذا يتضح أن منطق المنظرين الصينيين يفتقر الى الاقناع ، الا ان عواقب هذه السياسة شديدة الوضوح لكل ذي عينين ·

ومع ذلك ، فليس هذا سوى وجه واحد من أوجه استخدام الصينيين لصيغة « الحرب العادلة وغير العادلة » · وهو وجه تقل أهميته على أية حال · أما ما يهمنا هنا فهو تفسير الصينيين للحرب العادلة — فاننا اذا

---

١) تقول الاسطورة ان اخيل بطل طروادة ، عمدته أمه وهو طفل في عين مياه سحرية ليكتسب جسمه مناعة ضد أي اصابة · ولكن المياه لم تلمس كعبه الذي كان في يد أمه ·

تجاوزنا عن بعض التقييمات المحددة للحروب الاســــتعمارية والحروب الثورية ، نجد موقف المنظرين الصينيين ينتهى أخيرا الى أن الحرب العادلة هى أية حرب يشـــــنها أى بلد اشتراكى ، لان الاشتراكية تقدميـــة ، والرأسمالية رجعية وهكذا ، تتضاءل نظرية الحرب العادلة وغير العادلة حتى تصل أخيرا الى نظرية مضحكة حقا ، مؤداها أن أية حرب أعلنها أنا تصـــبح حربا عادلة !

ولكننا اذا وضعنا المسألة بهذا الشكل يصبح السؤال عما اذا كانت الحرب عادلة أو غير عادلة خاليا من كل معنى ، حتى ولو كان المقصود هنا هو الحرب الدفاعية · فلا داعى للحديث عما سيحدث فى حالة ما اذا هوجمت يوغوسلافيا ، اذ أنه لا يوجد بالفعل رجل واحد فى يوغوسلافيا لا يؤمن بوجوب دفاع الاشتراكية عن نفســـها اذا هوجمت · ولكن عندما تكون المسألة ، هل ينبغى للبلاد الاشتراكية أن تسعى لمثل هذه الحرب العالمية، فان القضية هنا لن يكون أى النظـــامين أكثر تقـــدما : الاشتراكية أم الرأسمالية ، وانما ينبغى أن ينظر اليها من زاوية حقيقة النتائج العملية التى ستتمخض عنها حرب كهذه ، سواء بالنسبة لمصير العالم ، أو بالنسبة لمصير الاشتراكية والتقدم الاجتماعى ــ وهنا نجد من واجبنا ان نوضح أن حربا كهـــذه تتعارض أساسا مع مصـــالح الاشتراكية ، وليس فى وســـع تفسير الصينيين للحرب العادلة وغير العادلة أن يغير شيئا من هذه الحقيقة وهذا أمر سأعود اليه فيما بعد ·

وعندما نتناول معا كافة النظريات الصينية التى ناقشناها الآن ، والتى تتعرض بالنقد لسياسة يوغوسلافيا نحو التعـــــايش السلمى ، الايجابى ، فاننا سنجد السلسلة التالية من الحجج :

التعايش السلمى أمر لا يمكن أن يستتب مادامت الحرب هى الشكل الثورى الحتمى الذى يتخذه الحل النهائى للتناقضات بين قطبى « الصراع الطبقى العالمى » · وفى نفس الوقت ، فان هذه الحرب فى حد ذاتها عادلة· ومن ثم فمن الخطأ التعلق بأية أوهام حول السلام والتعايش السلمى ، وانما يتعين علينا أن نسير فى طريق حرب نكون نحن فيها الطرف الأقوى ·· حرب « تعوض » كل تضحياتها ، وتنتهى حتما بانتصار الاشتراكية على الصعيد العالمى ·

وأنا لا أقصد بهذا أن أؤكد أن النقاد الصينيين الذين يعيبون سياسة التعايش السلمى انما يدعون الى الحرب بوعى وصراحة ، فعلى العكس ·· انهم بدورهم يعلنون أنهم ضـــد الحرب · بل لقد تنازلوا أخيرا معبرين عن

ايمانهم « بامكانية ارغام الامبريالية على قبول السلم » ، الأمر الذى يمكن أن يكون فى النهاية من باب الاحتفاظ بخط الرجعيه • ولكن المسألة ليست مسألة كلمات ، وانما هى مسألة المنطق القائم وراء مفاهيم الصينيين التى تجعل من الحرب العالمية ومن الصراع الطبقى والثورة شيئا واحدا ، فانه فى اللحظة التى يتم فيها التطابق بين هذه الامور الثلاثة ، يصبح خط حتمية الحرب هو النتيجة التى لا مفر منها للسياسة العملية ، ثم يعود هذا الخط ، بالتالى ، ليصبح مقدمة لمزيد من الاستنتاجات الخاطئة • وتصبح سياسة التعايش السلمى سياسة وهمية •• بل سياسة رجعية • أو بمعنى أصح ، فى اللحظة التى يعتقد فيها المرء أن قيام الحرب أمر حتمى ، وانه سيكون أحد الاطراف الرئيسية فى هذه الحرب ، فانه لابد وان يبدأ تلقائيا فى التحضير لها والدعوة اليها ، سواء عن عمد أو عن غير عمد •

الا أنه لمما يتعارض على طول الخط مع روح الماركسية اللينينية ان يعتبر شن الحرب من جانب أى بلد اشتراكى هو المحك الوحيد « لعدالة » هذه الحرب • فالمسألة فى نهاية الامر ليست مجرد ماذا كانت الحرب باسم الاشتراكية ضد البلاد الرأسمالية ، ففى ظل ظروف معينة ، وحتى اذا كانت موضوعيا مفروضة على البلاد الاشتراكية — يمكن أن تنقلب الى حرب مع الطبقة العاملة فى تلك البلدان التى ستدافع فيها عن برجوازيتها باسم الاستقلال الوطنى ، ولكن الشىء المهم هو أن حربا كهذه قد تتمخض عن أشكال سياسية للاشتراكية أكثر تخلفا ، تعيش فى ظروف اجتماعية أكثر تقدما ، وبذلك تلعب هذه الاشكال دورا رجعيا • هذا كما أنه من الممكن أن تشجع مثل هذه الحرب على وجود الاتجاهات غير الاشتراكية ، مثل تسلط دولة ما على الغير أو ما أشبه من مثل هذه الظواهر • وأخيرا ، فليس من الصعب على البعض أن ينكر وجود الاشتراكية فى بلد ما ، ثم يعلن باسم الاشتراكية « عدالة » الضغط على هذه البلد الى حد يصل الى اعلان الحرب عليه •

أيقال ان هذا الاحتمال مجرد افتراض نظرى ؟ كلا •• ولدينا مثال قريب من الاذهان ، هو الضغط الواقع اليوم على يوغوسلافيا • فالنقاد الصينيون — بدون استثناء — يبدأون كلامهم بانكار طبيعة يوغوسلافيا الاشتراكية • ومعنى هذا طبقا لروح المنطق الصينى الحالى أنهم يبدأون باعلان أن يوغوسلافيا بلد خارج على القانون « ••• وثمة مثل يوغوسلافى قديم من أيام تركيا العثمانية يقول « القاضى هو الخصم •• والقاضى هو الحكم » !

ولهذا السبب بالذات ، يلزم اليوم ـ أكثر من أى وقت مضى مراعاة مبادىء ماركس وانجلز ولينين التى تدين وترفض أساسا أية سياسة تهدف الى فرض الاشتراكية ، أو فرض هذا الطراز أو ذاك من العلاقات الاشتراكية من الخارج عن طريق الحرب • ومراعاة هذه المبادىء يعنى ـ من ناحية ـ التقدير المبنى على الواقع للنتائج السياسية والاجتماعية المباشرة والضارة التى ستقع مسئوليتها على عاتق القوى الاشتراكية اذا ما اتخذت من الحرب اداة لفرض الاشتراكية • كما انها تعنى من ناحية أخرى تطبيق الفهم الواقعى للاشياء • فمجرد أن بلدا ما ، اشتراكى ، لا يعطيه الحق أوتوماتيكية فى أن يقدم على ما يشاء من أفعال انانية • ان كل انسان يعلم ان الانحرافات والاخطاء وظهور شتى اشكال الاتجاهات السلبية ليس من الامور المقصورة على تطور مجتمع صغير وهو فى طريقه للاشتراكية ، وانما يمكن أن تتجلى أيضا فى سياسة البلد الاشتراكى الكبير ـ وخصوصا فى علاقاته الأممية ـ فى الفترة التى لا تكون فيها النعرة القومية الضيقة أو « زعامية » الدولة الكبرى قد اختفت بعد • ولهذا السبب بالذات ، لم تستبعد الادبيات الكلاسيكية الماركسية بالمرة امكانية ان يشن بلد اشتراكى حربا غير عادلة •• وفى التطبيق ، يتأكد اليوم ، أن هذه الظاهرة ليست جد بعيدة عن الاحتمال •

يقول لينين •• ذلك الرجل الذى كان عالما ، بقدر ما كان ثوريا واقعيا ، وقد ادرك جيدا أن الدول الاشتراكية معرضة هى الاخرى فيما يتصل بمسألة السيطرة والحرب ـ الى الوقوع فى أخطاء نابعة من مصالحها الذاتية الضيقة ـ يقول فى هذا الصدد :

« لم يكن يرى انجلز ، بحال من الاحوال ، ان العامل الاقتصادى سيحسم من تلقاء ذاته مباشرة ، كافة الصعوبات • فالتحول الاقتصادى سوف يغرى كافة الامم بالاتجاه نحو الاشتراكية • ولكن الحروب والثورات المضادة للاشتراكية تظل ممكنة الحدوث خلال هذا المسار • ان السياسة لابد وان تتفق ـ تدريجيا ـ مع التكوين الاقتصادى • ولكن هذا لايحدث فورا ، ولا يأتى بسهولة أو ببساطة أو مباشرة • ويصر انجلز على التمسك بمبادىء الاممية باعتبارها أمرا لا يقبل النقاش ، وهى التى تطبقها وحدها دون غيرها بالنسبة لكافة الشعوب المضطهدة ، وليس بالنسبة لشعوب المستعمرات فقط ـ تلك المبادىء التى تقول ان فرض السعادة على هذه الشعوب بطريق القسر انما هو بمثابة وضع الالغام فى طريق البروليتاريا •

« ان البروليتاريا لن تكون معصومة أو محصنة ضد الخطأ والضعف لمجرد انها قامت بثورة اجتماعية • ولكن الاخطاء العارضة (والمصالح

الذاتية ومحاولة الركوب على ظهور الآخرين) هى التى ستجعلها تؤمن بهذه الحقيقة » ٠

لقد كان لينين ـ وهو يضع هذا الامر فى اعتباره الى جوار غيره من العوامل ، يعارض دائما تلك التقديرات السهلة التى تبنى على أســاس وحدة الطبقة العاملة العالمية ٠٠ فكتب فى هذا الشأن يقول :

« انه لمن السخف المطلق أن نعلن عدم وجود أية مصـاعب تواجه ثورتنا اليوم قائلين : انا أؤيد كل شيء ، انا لا أؤيد كل شيء فى الحركة الاشتراكية العالمية ٠٠ انا من حقى ان أرتكب ما أشاء من حماقات » ٠

فلنسأل أنفسنا اذن على ضوء ما تقدم كيف ينبغى علينا أن ننظر الى حرب عالمية فى ظل الظروف القائمة اليوم ؟ ان كل انسان يعلم أن حربا كهـذه لن يطول أمدها فحسب ، وانمـا سوف تكون مدمرة بشكل رهيب ٠ وليس صعبا أن يلحظ المرء كافة الاتجاهات الانانية التى قد تظهر على السطح باسم الاشتراكية محمولة على أجنحة القوة ان الحرب ، حتى لو كانت دفاعية سوف تصيب تطور الاشتراكية بضربات قاسية ستظل لفترة طويلة تشوه العلاقات الاجتماعية والدولية ٠٠ فما بالك لو جاءت الحرب نتيجة لمثل تلك السياسة التى يغذيهـا بعض كتاب المقـــالات الصينيين ٠

أم لعل المنظرين الصينيين يعتقدون بحكم ظروفهم المحلية أن الحرب العالمية فى ظروف كظروفهم لن تتمخض عن تلك النتـــائج المدمرة التى يتحدث عنها الناس ، وانما سوف تساعد بلادهم على التخلص من تخلفها الاقتصادى ؟ ولكن البلاد الاشتراكية الاخرى لا يمكن أن تقبل هـــذا المنطق ٠ وخصوصا أن تلك البلاد الاشتراكية تتحمل مسئولية التضحيات الرهيبة والتخريب الفظيع لمجرد انها تريد ـ عن طريق حرب شاملة ـ أن تمنح السعادة للآخرين » ، أن تفرض الاشـــتراكية بالقوة على نظامهم الاجتماعى ؟ واضح أن البلاد الاشتراكية لا تستطيع أن تتحمل هـــذه المسئولية ٠٠ ليس هذا فقط ، وانما الشعب العامل نفسه فى البلدان الاشتراكية لا يمكن أن يمنح تأييده أبدا لأية سياسة مغامرة قد تفضى الى مثل هذه النتيجة ٠

اذن ، فالمسألة ليست مجرد عدالة الحرب وفقـا لما يقدمه الصينيون من حجج ٠ وانما ثمة سـلسلة من العوامل الأخرى ٠٠ هى التى تحسم ـ أو يجب أن تحسم ـ الســياسة الاشتراكيـة ازاء الحرب ـ ونحن ، اذ

ننظر الى المسألة بكل ما فيها من تعقيـــدات ، نرى أن أحد الواجبـــات الاساسية بالنســـبة للقوى الاشتراكية فى الوقت الراهن · وفى نفس الوقت ، من أقوى الوسائل التى تدفع بالاشتراكية الى الامام ، هو بالتحديد النضال من أجل حل التناقضات العالمية لا عن طريق الحرب ، وانما عن طريق الحركة الداخلية للتطور الاجتماعى ، فان هذا التطور سوف ينعكس بالتالى تدريجيا على العلاقات الدولية ، فى صورة اشكال جديدة ، قائمـــة على أسس جديدة ، تتفق مع روح السلام ومبدأ المساواة والتعـاون بين الامم ، أى تتفق مع تلك الروح التى تدخلهـا الاشتراكية ـ أو بالاحرى المبادىء الاشتراكية على العلاقات الديمقراطية والانسانية ·

الفصل الثامن

القديم .. فى ثياب جديدة..

مع أن النظريات الصينية التى تناولناها فى هذه الدراسة ، تعد الى حد ما ، ومن زاوية مضمونها السـياسى الواقعى ، ظاهرة جديدة منبثقـة عن الثورة الصينية ، الا أنها من الناحية الفكرية ليست بالجديدة تماما ، فقد سبق ان أدت تناقضات شـبيهة بتلك الموجودة اليوم فى المجتمع الصينى ، الى ظهور نظريات مثل هذه ، وذلك فى الفترة الاولى من ثورة أكتوبر ٠

وليس فى نيتى هنا أن اؤكد أن النظرية التى تحكم الشـيوعيين الصينيين هى النظرية التروتسكية ، بيد أن الشبه الغريب القائم بالفعل بين هاتين النظريتين يمدنا بدليل جديد على أن الظروف المتشابهة ، تولد أيديولوجية متشابهة ٠

فتروتسكي لم يكن يؤمن بامكانية بقاء الاشتراكية ، وبالتالى امكانية تطورها ، فى الاتحاد السوفيتي ، ما لم تمتـد الاشتراكية الى أوروبا الغربية ، ذلك انه كان من المسـتحيل على عقلية بلغت من السطحية والجمود والانقياد الى الخطط المجردة ما بلغته عقلية تروتسكى ، ان تقبل الاعتراف بأن أمامهم معركة يومية طويلة ممتدة ، حافلة بالمشقة ٠٠ معركة ضد مصاعب هائلة سواء في السياسة الداخلية أو السياسة الخارجيـة للجمهورية السوفيتية الفتية ٠

والذى لا شك فيه أن هذه المصاعب كانت بالفعل مصاعب ضخمة وغير عادية ٠ فقد كان بنـاء الدولة السوفيتية الجديدة فى ظل ظروف من التخلف الاقتصادى البالغ ، وعلى يد طبقة عاملة بالغة الضعف من الناحية العددية ، وبعدد محدود للغاية من الكوادر المدربة المخلصة للثورة ، ومع وجود مراكز لاحصر لها لتفريخ الثورة المضادة ، وعراقيل ثقيلة من العقلية المحافظة في أجزاء واسعة من الامة ، والضعف الشديد لمصادر التنميـة الاقتصـادية الداخليـة وتخلفهـا النسبى كان كل ذلك ينبىء بأن تطوير الاساس الاقتصادى سيكون عسيرا وبطيئا ، بل أبطأ بكثير من كل ما عقدت عليه الآمال التى ألهمت الثورة ٠ وكان العالم المحيط بالدولة الاشتراكية الاولى عالما معاديا عاقدا العزم على تصفيتها فى أول فرصة ، وقادرا بما فيه الكفاية على تحويل مثل هذه التهديدات الى حقيقة واقعة ٠ أما انه عجز عن تنفيذ هذه التهديدات فى الحال ، فى السنوات الاولى للثورة ، فان الفضل فى ذلك يعود قبل كل شىء الى الطبقة العاملة العالمية التى كبلت يديه ٠٠ ولكنه لم يتخل عن هذا الهدف بالمرة ، ولم يدخر وسعا لكى يفرق الثورة فى متاعبها وتناقضاتها الداخلية ، عن طريق الحصار الاقتصادى والسياسى

وعلاوة على ذلك ، فان الآمال التى كانت معقودة على قيام الثورة في أوربا لم تحبط فحسب ، وانما أصـــبح من الواضح أنه بات لزاما على البلد الاشتراكى الاول ، أن يواجه الامر الواقع ٠٠ وهو أمامه فترة طويلة من العيش كجزيرة معزولة وسط بحر من العالم المعادى ٠

كان هذا الوضع فى نظر تروتسكى بمثابة طريق مسدود تماما ، وهزيمة شاملة للثورة العالمية ٠ وعليه ، فلم يبق أمام الثورة الروسية ، الحلقة الوحيدة الباقية من الثورة العالمية ، وقد حوصرت بهذا الشكل ، الا أن تخرق هذا الحصار ، أو تموت دونه ميتة الابطال ، لقد أفضت هذه النظرة بتروتسكى الى ان يعلق آماله بمغامرة مقضى عليها بالفشل ٠٠ الا وهى الحرب ٠ كانت نظرياته عن الثـــورة المستمرة ، واصراره على استحالة بناء الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى المعزول ، وتنبؤاتهالقاطعة بحتمية قيام الحرب بين قوى الامبريالية المتحدة والاتحاد السوفييتى ، ثم تقديره الخاطىء لعوامل التطور الاجتماعى الداخلية فى البلدان الأخرى ، كل ذلك عبر عنه تنبؤه الموهوم الذى ثبت بطلانه بكل قسوة ، باستثناء ما حدث فى وارسو عام ١٩٢٠ ، ذلك التنبؤ القـــائل بأن البروليتاريا الاوروبية سوف تثور ضد برجوازيتها أوتوماتيكيا مع أول خطوة يخطوها الجيش الاحمر ٠٠ ولم يكن هذا الوهم من تروتسكى سوى انعكاس للحالة النفسية التى وقع فيها ٠٠ وهو فى طريقه المسدود ٠٠

وفيما عدا ذلك ، فان الموقف الفكرى لتروتسكى كان مبعثه تقديره الضعيف للحوافز الثورية الاولية ٠ لقد كان عاجزا عن رؤية العــوامل الاجتماعية التى تحضر للحوافز الثورية ، وتدفعها ، كما كان عاجزا عن التمييز بين الدروب والوسائل التى يستطيع الفكر الاشتراكى من خلالها أن يؤثر على حركة هذه العوامل وفاعليتها ٠ كان تروتسكى يرى الثـورة كواقع منعزل ٠٠ أى كحتمية تاريخية مجردة ٠ ولم يستطع رؤيتها كشىء مترابط مع عديد من أشكال الحركة الاجتماعية الأخرى ، أو كشىء لابد وان يحضر له عن طريق التطور الداخلى فى كل بلد من البلدان ٠ وهذا هو السبب فى أن تروتسكى ظن أن الثورة قد باتت فى طريق مسدود ، فى نفس اللحظة التى كانت تقف فيها ، على العكس ، على أعتاب أروع انتصار فى تاريخ العالم كله ٠

وعلى النقيض من تروتســـكى كان لينين يرى كل هذه الظواهر من زاوية مغايرة ٠ فبينمـــــا كانت هزيمة الثورة الاوروبية تمثل فى نظر تروتسكى طريقا مسدودا فى وجه الثورة الروسية ، كان لينين يرى فى

ذلك مجرد علامة تقتضى اجراء تغييرات في التكتيكات السياسية • فهزيمة الثورة الأوربية لم تكن هزيمة مطلقـة • فمع أن الثورة لم تنجح فى نقل السلطة الى أيدى الطبقة العـاملة ، الا أنها نجحت فى منع البرجوازيه الاوربية من مواصلة التدخل فى الاتحاد السوفييتى • هذا الى جوار انها قد تمخضت بالفعل عن قدر من النتائج الطيبة الاخرى التى عززت الدور السياسى والاجتماعى للطبقة العاملة • ولم يكن ذلك يعنى بالنسبه للينين مجرد امكانية تجنب الحرب لفترة ضرورية من الوقت ، ولكنه كان يعنى أيضا ـ من الناحية النظرية على الاقل ـ امكانية تجنب الحرب أصلا • وعليه فقد كانت هناك الفرصة لا لمجرد بناء الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى فحسب ، ولكن أيضا لقيام تعاون اقتصادى بين الاتحاد السوفييتى والعالم الرأسمالى •• تعاون يمكن أن يسهل ويعجل بتشييد أسس التصـنيع فى الاتحاد السوفييتى • ان تزايد قوة حركة الطبقة العاملة ، وانتصاراتها الثورية فى بلاد معينة ، واتساع حركة التحرر الوطنى فى المستعمرات ، والتغيرات الداخلية فى العالم الرأسمالى ، كل هذا لم يكن ليؤدى الا الى تحسين موقف البلد الاشتراكى الاول فى التاريخ •• لا تسويئه ، فحقيقة أن الاتحاد السوفييتى قد حافظ بالفعل على وجوده ، رغم التدخل ، طوال سنى الحرب الأهلية ، كانت فى حد ذاتهـا انتصارا له دلالته فى تاريخ العالم ، كما كانت فى نفس الوقت دليلا جديدا على امكانية بناء الاشتراكية فى بلد واحد • نعم •• فاننا نستطيع بالذات من خـلال تلك الطبيعة المتكاملة ، والترابط ، والتداخل ، ومن خلال العلاقات المتبادلة بين جميع عمليات التقـدم والتناقض ، نسـتطيع أن نصل الى حقيقـة عملية الثورة الاشتراكية العالمية • انها ليست « زحفا ظافرا » للجيش الأحمر عبر أوربا ، وانما هى عملية متصلة من التطور الاجتماعى الداخلى فى كل بلد •• ثم ترابط هذه العمليات كلها فيما بينها على الصعيد العالمى •

وعلى أساس هذه النظرة فى النظرية والتطبيق ، كان لينين يعـارض نظرية الثورة العالمية الدائمة ، التى افتقدت ، بصياغة تروتسكى لها ، طابعها الماركسى ، وتحولت الى برنامج ايديولوجى لسياسة مغامرة حربية، تطالب الأحزاب الشيوعية الأوربية بمقتضاه أن تتبنى سياسة انعزالية تآمرية • وعلى العـكس من ذلك ، وضع لينين سـياسة جديدة للدولة السوفييتية قائما على أساس استمرار فترة مطولة من التعايش بين بلدان النظام الرأسمالى والبلد الاشتراكى •• أى سياسة سلام وتعايش سلمى، وتعاون اقتصادى وغير اقتصادى مع البلدان الرأسمالية • والى جـوار ذلك ، كان لينين يرى انه يجب على الدولة السـوفييتية أن تقدم كل

ما بوسعها من عون للحركات والقوى التقدمية والثورية فى البلدان الأخرى ، بقدر ما تسمح الظروف وبشرط ألا يمثل هذا خطرا على المذهب الاشتراكى ، أو الدولة الاشتراكية ٠

وكان نقد تروتسكى لرأى لينين فى امكانية انتصار الاشتراكية فى بلد منفرد هو مجرد نقطة البدء ، والحجة التى قامت عليها نظريته الاساسية ٠٠ أى نظرية الثورة العالمية الدائمة التى تتلخص فى النهاية فى حرب يعلنها الاتحاد السوفييتى ضد العالم الرأسمالى ، بأمل أن تؤدى هذه الحرب الى اندلاع الثورة فى أوربا الغربية والعالم بأسره ، وان كان من واجبنا أن نضيف ان تروتسكى لم يصغ هذه النتيجة لنظريته بهذا الوضوح ، غير أن هذه النتيجة من المحتم أن تترتب أوتوماتيكيا ، على المنطق الداخلى لنظريته ٠

ومن أن التاريخ قد أزاح آراء تروتسكى هذه الى زوايا النسيان ، بعد أن أثبتت التجربة بطلانها التام ، الا أن العناصر الأساسية لهذه النظريات تبعث اليوم من جديد على المسرح العالمى فى النظريات الصينية المعاصرة ٠

فى ١٩٢٨ كتب تروتسكى يندد ببرنامج الدولية الثانية :

« أن الشىء الذى يشكل الجوهر الحقيقى للأممية الثورية ، هو الايمان الذى لا يتزعزع بأن الهدف الطبقى الأساسى لا يمكن أن يتحقق بالوسائل القومية أو فى نطاق الحدود القومية ٠ فلو كان من الممكن تحقيق الهدف النهائى فى اطار الحدود القومية من خلال جهود البروليتاريا القومية ٠ لا نكسر العمود الفقرى للقومية ٠ ان نظرية امكانية تحقيق الاشتراكية فى بلد واحد تحطم العلاقة الداخلية بين وطنية البروليتاريا الظافرة ، وانهزامية البروليتاريا فى البرجوازية ٠ » (تروتسكى ـ الدولية الثالثة بعد لينين ـ نيويورك ـ ١٩٣٩ ـ ص ٧٢) ٠

« ٠٠ واذا أخذنا فى الاعتبار المستوى الاقتصادى وحده ، فانه سيتضح لنا أن الاتحاد السوفييتى ـ ومن باب أولى الصين أو الهند ـ ما زالت أقصر باعا بكثير من مستوى العالم الرأسمالى ٠ ولكن المسألة كلها تجد الحل فى المعركة الثورية بين النظامين على النطاق العالمى » (نفس المصدر ص ٢١١) ٠

الفقرتان تبينان ـ فى المقام الأول ـ كيف كانت أفكار تروتسكى تنطوى فى جوهرها على طابع مجرد شكلى ذاتى ٠ فهو يبدأ من الايمان الذى لا يتزعزع ثم يلغى ـ بضربة واحدة ـ الامم ودورها فى التطور الاجتماعى

فى عصرنا ، كأنما قد وصل الجنس البشرى بالفعل الى مرحلة من التقـدم فى قوى الانتاج ، ينتهى معها الدور الاقتصادى ــ الاجتماعى للامم .

هذا ، وان هاتين الفقرتين تؤكدان ما ســبق أن أكدته من قبل ، الا وهو أن نقد تروتسكى لفكرة امكانية بناء الاشتراكية فى بلد واحد ، ذلك النقد الذى كان خير تعبير عن تخبطه العقــائدى ، هو الذى أطاح ببساطة بكل نظريته الخاصة بالثورة العالمية الدائمة ، فنحن اذا تناولنـا الفقرة الاولى التى ينكر فيها المساواة بين الامم ويتنكر لاستقلالهـا ، الى جوار الفقرة الثانية التى يعلن فيها أن لا مخرج من التخلف الاقتصادى فى الاتحاد السوفييتى الا بالثورة العالمية ، فلن يصعب علينا ادراك المضمون المادى الحقيقى للاتجاه الذى يلهم هذه النظريات .

وواضح أن هذا الاتجاه لا يتولد الا فى ظروف الكفاح المرير ضـــد التخلف ، والا نتيجة للايمان بأنه لاشىء سوى الاطاحة بالبرجوازية فى البلاد المتقدمة عن طريق الثورة أو الحرب يمكن أن يأتى للاتحاد السوفييتى لا بالنصر النهائى وحده ، وانما أيضا بالوسائل الاقتصادية التى يستطيع أن يتغلب بها على متاعبه وتناقضاته الاقتصادية والسياسية ــ الاجتماعية الداخلية .

ولهذه الاسباب بالذات . كان تروتسـكى يفعل ما يفعله المنظرون الصــينيون اليوم .. اى كان يدين كل ســياسة تهدف للتعايش ، ويعتبرها ضربا من ضروب المناورة ، وبالتالى ، اوتوماتيكيا ، نوعا من خداع النفس .

وفى نفس الكتاب يقول تروتسكى :

« أن التناقض بين الاتحاد السوفييتى والعالم الراسمالى تناقض أساسى لا يمـكن تفاديه عن طريق المنـاورات ، وانما عن طريق تقـديم تنازلات واضحة وصريحة لراس المال ، حتى يمكن للاتحاد السوفييتى أن يجد متنفسا له ، وان يكسب الوقت . مستفيدا من التناقضات بين مختلف قطاعاته . ولكن حتى هذا لن يتاتى الا فى ظروف تاريخية معينـة ، وليس فى أى ظرف كيفمـا اتفق ، وانهـا لخدعة كبرى للنفس أن يصـدق المرء ان البرجوازية يمكن « تحييدها » حتى يتم بنـاء الاشتراكية ، أو أن التناقضات الاساسية يمـكن التغلب عليها بالمناورات وهذه المخادعة للنفس ، قد تكلف الجمهورية السوفييتية حياتها . ان ثورة البروليتاريا العالمية وحدها هى التى تستطيع تحريرنا من التناقض الاساسى » (نفس المصدر ١٣٧) .

خلف هذه الالفـــاظ التى تدعى الراديــكالية يكمن .. لا مجرد الاساس لسياسة حتميـــة الحرب ، ولكن أيضا ــ الرغبة فى رؤية الامور وهى تنتهى الى الحرب • باعتبارها المخرج من التناقضات الداخلية للمجتمع السوفييتى • وفى مناسبة أخرى نجد تروتسكى يقول :

« اذا كانت الثورة لا تســتطيع ان تمنع الحرب ، فان الحرب تستطيع ان تساعد الثورة » .

وبهذه الطريقة يكشف تروتســكى النقاب تماما عن نظريته .. وهذه الحجة بدورها ، تحمل شبها مذهلا لــكثير من حجج المنظرين الصينيين ..

ولكن « المنظرين » الصينيين ــ على العكس من تروتســكى ــ لا يقولون شــيئا عن استحالة بناء الاشتراكية فى بلد منفرد • فبعد كل هذه التجربة الطويلة يفقد مثل هذا الكلام كل قدرة له على الاقناع . ومع ذلك فليس المهم هو النظرية ، وانمــا المهم هو منابعهــا ونتائجها فى ميدان السياسة العملية . وهذه المنابع وتلك النتائج .. هما نفس الشىء لدى « المنظرين » الصينيين وتروتسكى . ومن السهل ادراك ذلك بالاطــلاع على كل ما يكتبه ويقوله الرجال الرســميون والصحفيون الصينيون حول مسائل الحرب والســلام . **والحق ، ان المآخذ التى يأخذها تروتسكى على فكرة امكانية بناء الاشتراكية فى بلد واحد ، هى نفس المآخذ التى يســوقها « المنظرون » الصينيون على امكانية التعــايش السلمى •**

وعلى العموم ، فمن المؤكد ان نظرية امكانية بناء الاشــتراكية فى بلد واحـــد لم يكن لها فى آراء لينين نفس الدور الذى عزاه اليهـــا ستالين وتروتسكى فيما بعد . فجوهر المسألة لدى لينين لم يكن : هل يمكن تحقيق « الهدف النهائى » للثورة الاشتراكية فى بلد واحد ، فان ذهن لينين كان اكثر تعمقا فى «علميته » من ان يخاطر بمثل هذه التكهنات الجامدة ، وانما كان جوهر المسألة لديه ما اذا كان فى وسع بلد ظفر بالثورة الاشتراكية ان يســتمر فى البقاء بينما هو محاصر بالرأسمالية من جميع الجهات .. هل يســتطيع ان يتقدم لبنـــاء الاشتراكية وتطوير العلاقات الاجتماعية ؟ هل يستطيع ان يحمى نفسه ضد عدوان الامبريالية المحتمل أو ان يمنع هذا العدوان اصلا ؟ وكان جواب لينين على كل هذه الاســئلة بالايجاب .. مع كل التحذيرات الضرورية مثل وجوب التنبه الى سمة الامبريالية التى مازالت بحكم

طبيعتها مصدرا للحرب . والخطر الذى تمثله هذه الحروب على بلد الاشـــتراكية الاول . وبعبـــارة اخرى ، ان جوهر نظرية امكانية بناء الاشتراكية فى بلد واحد هو ــ على وجه التحديد فكرة امكانية التعايش بين بلدان ذات نظم اجتمـــاعية مختلفـــة .. بمعنى ــ كما قال لينين نفســـه ــ ضرورة ان يقيم المرء خططه على أساس « فترة مطولة من التعايش » .

وبنفس هذه الحجج نبذ لينين فكرة الحرب بين الاتحاد السوفييتى والعالم الراسمالى كوسيلة لتوسيع نطاق الثورة العالمية .. وهى الفكرة التى انتهت اليها نظريات تروتسكى . لقد كان لينين مقتنعا باستحالة فرض الثورة من الخـــارج ، ولذلك . عارض بشـــدة كافة الاوهام التى كانت تدور حول « الزحف الظافر » للثورة نحو غرب اوربا ، وبدلا من ذلك راح يولى كل اهتمامه للبناء الاشتراكى فى الداخل ، وللتعايش السلميمع البلدان الاخرى .

لقـد عارض لينين على طول الخط كل انعطاف نحو القيـام بمغامرة بونابرتية حمقاء .. وهو خلاصة ما كانت تنتهى اليه آراء تروتسكى .. ذلك ان اية محاولة حربية لفرض سياسة دولة ما تحت اسم النظام الاشتراكى لن تكون الا ضربا « حديثا » من البونابرتية .

ومنذ مائة وستين عاما مضت ، كان كثير من الثوريين يرحبون بنابليون على اســـاس انه حامل لواء الثورة الفرنســـية ضـد اوربا الاقطاعية ، آملين انهم سيستطيعون بهذه الطريقة ان يحققوا الثورة فى بلادهم دون عناء كبير .

ولكن هذا الوهم كلفهم كثيرا .. فان هى الا سنوات قليلة حتى كانوا جميعا اما منفيين عن أوطانهم، أو حلفاء لنفس الاقطاعيين الرجعيين فى بلادهم فى المعركة من أجل الاستقلال ضد نابليون ، بل ان نابليون نفسه قد حطم عنقه اثناء هذه المحاولة .

يقول انجلز :

« ان الحرب الشاملة ضد نابليون ، كانت انعكاسا للشعور الوطنى لدى جميع الامم التى وطىء نابليون ارضها بقدميه » . (انجلز ــ الحـكم بالقوة واقتصاديات نشاة الدولة الالمانية الجديدة) .

اذن ، فقد اصبح من الواضح ان احدا لم يعد يســـتطيع شن حرب عدوانية تحت اسم الثورة .. ثم يمضى دون عقاب .

وقد نسى تروتســـكى هذه الدروس التاريخية ، ولكنها كانت موجودة وكانت تتأكد بمختلف الاشكال .. حتى فى فترات زمنية قريبة

منا . ومع ذلك يبدو ان المنظرين الصينيين ينسون هم ايضا هـذه الدروس احيانا ، فيسوون بين الحرب ، والثورة الاشتراكية . وهم اذ يقعون فى هـذا الخلط ، لا يصبح خطؤهم مجرد خطأ في حق الاشتراكية بشكل عام ، وانما يصبح خطا متعلقا بالمصالح الاساسية لثورتهم على وجه التحديد . ذلك ، ان كل ماسيحققونه لن يكون الا عزل ثورتهم عن القوى التقدمية الاخرى ·

وبالطبع ، فانه يكون من الخطأ ، بل مما لا محل له هنا ، ان نعقد مقارنة ميكانيكية بين مرحلتين . فالاشتراكية تمثل فى حد ذاتها « نفيا لاية بونابرتية من أى نوع » . ولكن هذا لا ينفى انه من الممكن — اثناء الفترة الانتقالية — ان يظهر باسم الاشتراكية ماوصفه لينين « بالمصالح الأنانية ومحاولة الركوب على ظهر الآخرين » سواء كان ذلك دفاعا عن الامتيازات الاقتصادية التى سبق الحصول عليها، او استخداما للقوة السياسية من أجل التغلب على الضعف الاقتصادى فى بلد ما . وكل من الامرين يمكن ان يفضى الى عواقب رجعية ، وكل من الامرين يمكن أن يكون سببا فى تشويه السياسة العالمية للاشتراكية ·· الى حد يسمح بمقارنتها — كظاهرة تاريخية — وقياسا مع الفارق بالطبع ، بظاهرة البونابرتية فى مطلع القرن التاسع عشر .

وقد وضع لينين نهاية ايديولوجية لمثل هذه الاتجاهات فى الاتحاد السوفييتى · وتم هـذا العمل فى نفس الوقت الذى شهد مسـار التطور فى الاتحاد السوفييتى والذى شمل كافة الميادين ، بل سار التطور خارج نطاق الاتحاد السوفييتى أيضـا · ولم يكن ذلك يسيرا الا بالنسبة لعقلية ممتازة مثل عقلية لينين·· فقد استطاع أن يرتفع فوق مستوى التجريبية وفوق ضغط الواقع المادى المحدد الذى قامت فيه ثورة أكتوبر وان يستشف آفاق الثورة من زاوية المصالح التاريخية للاشتراكية عموما ، فهذه النظرة هى التى مكنت لينين من ان يتلمس ، ويجد الحلول المناسبة للمشاكل المحددة التى كانت تواجه الاتحاد السوفييتى . وقد انعكس هـذا الانتصار الايديولوجى الرائع على عصر ستالين . فمن الممكن ان يقال ان ستالين — بالرغم من تقلباته وتعرجـاته من حين لآخر ، والتى كان يقترب فيهـا جدا من آراء تروتسـكى ، الا أنه فيما يتصل بهـذه المسألة بالذات كان يلتزم طريق لينين فى رؤية الاشياء . ومن المؤكد ان الفضل يرجع اليه فى ان الاتحاد السوفييتى لم يستسلم للاتجاهات المغامرة التى تدعى الراديكالية والتى كان من الممكن ان تجعله فريسة سـهلة للامبريالية . ان سـياسة التعايش المبنية على اسـاس امكانية بنـاء

دعمت ــ لا وجود الاتحاد السوفييتي فحسب ، وانما نموه الاقتصادى العلمية بالمرة رغم نعرجاته وتقلباته ، هذه السياسة بالتحديد هى التى الاشتراكية فى بلد واحد ، والتى لم يتخل عنها ستالين من الناحية ايضا .

غير ان هذا لا يعنى ان هذه الاتجاهات الانانية الخاصة « بالتبشير بالقوة المسلحة» لا يمكن ان تظهر فى اماكن او ظروف اخرى . فليس هناك حتى اليوم اشتراكية « خالصة » خالية من كل انانية او تطلعات بالية . وبالتالى فنحن لا نستطيع ان نستبعد مثل هذه الظاهرة . ومن أجل ذلك يحتم على القوى الاشتراكية اليوم ، أكثر من أى وقت مضى ، ان تقف فى وجه كل «نظرية » تنحو الى تبرير مثل هذه الظاهرة . والمسألة برمتها الآن ، هى أن سياسة التعايش قد وصلت اليوم الى نفس المستوى ، واصبح لها نفس الدور ، وتستطيع ان تساعد على كبح جماح نفس الاتجاهات .. تماما كما فعلت نظرية امكانية بناء الاشتراكية فى بلد واحد فى عهد لينين .

لقد ناقشت هذه المرحلة ــ وهى الان تعد ــ تاريخيا ــ مرحلة طويت من مراحل التناقضات فى الفكر الاشتراكى ــ ببعض التطويل . حتى يسهل علينا ان نقارن بين هذا النوع من المنازعات الواقعة فى ايامنا هذه وبين شبيهاتها بالامس . واى انسان ، لديه اقل دراية بتطور المراحل الاولى لثورة اكتوبر ، لابد وان يلحظ ــ رغم اختلاف الالفاظ ــ ذلك التشابه غير العادى بين الآراء التى تطالعنا اليوم فى كتابات الصينيين . وبين أقوال تروتسكى وآرائه .

وأعود فأكرر اننى لا أقصد أن أؤكد أن الشيوعيين الصينيين ، اتباع ايديولوجيون لتروتسكى . ولكن ، من الواضح ان الظروف التاريخية المتشابهة ، تولد تطورات فكرية متشابهة لدى الناس كرد فعل لها . وقد منيت هذه التطورات الفكرية بهزيمة ساحقة فى الحالة الاولى . الا أنها تحظى فى الحالة الثانية بمكانة مؤقتة فى أحد البلدان . غير ان هذا لا يعمل بالمرة على انها قد اصبحت اليوم اقرب الى الماركسية مما كانت ايام ثورة اكتوبر . بل بالعكس .. فانها لا تدل الا على ان الماركسية فى الصين قد اصبحت « صينية » بالفعل .. بمعنى .. أن نرى الى أى مدى قد تعرضت الماركسية للمراجعة ، أو « التجديد » . طبقا للاحتياجات اليومية للسياسة الصينية وتطبيقاتها فى الوقت الراهن .

ولا شك ان الاشـــــتراكية تكسب كثيرا من التوسع فى التطبيق الاشتراكى فى العالم . ولكن الماركسية كثيرا ما « تخسر » بقدر ماتخضع للمتطلبات العمليـة العاجلة للحيـاة اليومية ، ذلك لأنهـا معرضة للكثير من التطوير الشـديد الغرابة فى أذهان الاشخاص ـ ولـكى نكون أكثر دقة ـ فى ايدى الاشخاص المعنيين بالنظرية السياسية وتطبيقاتها . وقد سبق ان تنبأ لينين بمثل هذا المسـتقبل للماركسـية فكتب فى احدى المناسبات :

« ان حركة الثورة العالمية للبرولتياريا لن تسير ، ولا يمكن ان تسير على نفس المنوال فى البلدان المختلفة . فالاستفادة الكاملة المتعددة الجوانب لكافة الامكانيات.فى كافة نواحى النشاط لا تتيسر الا بالاعتماد على الصراع الطبقى للتشغيلة فى مختلف البلدان . ولسوف يضيف كل بلد سماته الاصلية الخاصة به الى التيار العام للحركة ، ولكن الحركة ستعانى ـ فى كل بلد على حدة ـ من نوع ما من التفكير الذاتى ، ومن بعض القصور النظرى أو التطبيقى من جانب الاحزاب الاشتراكية . (لينين ـ المختارات ـ دار النشر التعاونية ـ موسـكو ـ ١٩٥٣ ـ البعثة الانجليزية ـ مجلد ٤ ـ ص ٣٠٢ ـ ص ٣٠٣) .

وأضح ، ان ماتوقعه لينين . قد عاد يتاكد اليوم فى الصين ، بعد ان تأكد من قبل فى غيرها من البلدان .

والحق اننا لســنا بحاجة الى شغل اذهاننا بهذا الامر فى حد ذاته . فان الاشتراكية ليست فى نظر اولئك الذين تخلصوا من الجمود العقائدى ـ شـيئا سـيبقى محتفظا بنفس الشكل الى ابد الآبدين ، وليست شيئا يصب فى « قالب » ماركسى جاهز ، وانما هى عملية تطور تاريخية تتم على يد الملايين من الناس بعملهم العادى . انها عملية لا يتولد عنها حتما اشكال جديدة فى التطبيق فحسب ، ولكن يتولد عنها ايديولوجية جديدة ايضـا . والذين يعملون فى ظل مثل هـذه الظروف المتباينة ، يقعون حتما تحت تأثير هذه الظروف . وكلما أغرقوا فى التجريبية كلما اتضحت هـذه الحقيقة ، **فكل ممارسـة عملية تغرى بالاتجاه اكثر فاكثر نحو التجريبية** . ومما لا شك فيه ان الماركسـية بدورها تمر ـ فى ظل مثل هذه الظروف ـ بعملية تطور ، هنا فى اتجاه، وهناك فى اتجاه آخر . فالاشتراكية تتطور بالفعل ، وتتسع بالفعل ، وتتقدم بالفعل ، والى جانبها تتطور وتتسع وتتقدم كل العلوم .

وبهذا المفهوم ، لانجد نحن ما يدهشـــنا فى وجود هذا المنحى المختلف للماركسية لدى الصينيين . بل لاتدهشنا كذلك تلك الادعاءات

المنافية تماما للماركسية ، والتى تزعم ان قوما معينين بالذات هم وحدهم دون غيرهم المفسرون « للماركسية الحقة » ، كما تفعل اليوم الدوائر القيادية للحزب الشيوعى الصينى . ولكن مايزعجنا هو الجوهر المادى لهذه النظريات .. أى هو ان عناصر السياسة العتيقة والنظم السائدة والاساليب البالية التى لا صلة لها بالمرة بالاشتراكية تفرض اليوم على الغير تحت أسم « الماركسية الحقة » ، بكل ما عرف من وسائل الضغط السياسى . ان هذا الاتجاه ينبىء عن ظاهرة خطيرة من ظواهر السيطرة . ويجب ان يقاوم هذا التشوية للاشتراكية من جانب الفكر الاشتراكى التقدمى . على الا يكون هذا باسم اية «ماركسية حقة» وانما باسم العلاقات الديمقراطية بين البلدان الاشتراكية وسائر الشعوب . باسم المبادىء التى تصبح الاشتراكية بدونها كلمة جوفاء .

ولهذا السبب ، يبدو اننا لسنا وحدنا الذين لاحظنا اوجه الشبه بين آراء الصينيين اليوم وآراء تروتسكى بالأمس . فان خلفاء تروتسكى المعاصرين قد لاحظوا بدورهم هذا التشابه ، فنحن نستطيع ان نقرأ فى مجلة التروتسكيين « الدولية الرابعة » مايلى :

« ان آراء الصينيين تختلف كثيرا عن تلك التصريحات الروسية الرسمية المسئولة حول امكانيات التعايش السلمى . ولا يملك الماركسيون الثوريون الا ان يرحبوا بهذا الاختلاف وان يثنوا على اتجاه القيادة الشيوعية الصينية » .

(الدولية الرابعة ـ ربيع ١٩٦٠ ـ العدد ٩ ـ ص ٣٩ ـ النسخة الاصلية) .

ثم يمضى المقال منتقدا بعض آراء القيادة الصينية ـ أولا ، وقبل كل شىء ، لانهم لا يتخذون الموقف الثابت الكامل من مسألة حتمية وقوع حرب عالمية جديدة . وبعد ان تورد المجلة اقتباسا من مجلة « العلم الاحمر » (مقالة نشرت فى أول ابريل تحت عنوان «الامبريالية كمصدر للحرب ، فى العصر الحديث ، وحول طريق كل الأمم فى المعركة من أجل السلام) . كدليل على ان الشيوعيين الصينيين مع السلام ضد الحرب ولكنهم لا يخافون الحرب ، يمضى التعليق حتى ينتهى الى الافكار التالية :

اما والامور تؤخذ **بهذا الشكل** ، فان كل ثورى لا يملك الا ان يرحب بهذه الكلمات بقدر مافيها من **ثورية** . الا انها فى الوقت نفسه تنطوى على ظاهرة غير ثورية . ظاهرة متناقضة ، شأنها فى ذلك شأن

السياسة الصينية كلها . انها كلمات تعيد الى اذهاننا التصريحات الروتينية المشابهة - وان كانت أقل شجاعة - التى كانت تصدر عن البيروقراطية السوفييتية ، عندما كانت تميل الى تهديد الامبريالية بعواقب الحرب حتى تجعلهم اميل الى قبول التعايش السلمى (نفس المصدر ص ٤٣) .

وبعد أن اعطى كاتب التعليق تقييما عاما للمقال المنشور فى « العلم الاحمر » مقارنا اياه بالموقف السوفييتى من قضايا الحرب والسلام ، انتهى الى الخلاصة الآتية :

« ولا شك ان مقالة « العلم الاحمر » تعد خطوة كبرى للامام . فان المتعصبين وحدهم هم الذين يستطيعون تجاهل مافى موقف الصين من الامبريالية ، من جانب ايجابى ، يكشف فى نفس الوقت عن ان الصين تجنح الى سياسة اكثر ثورية **على الصعيد العالمى** .. الامر الذى لا يمكن الا ان يلقى ترحيبا من جانب كل ماركسى ثورى (نفس المصدر ص ٤٣) . "

اذن ، فالتروتسكيون الموجودون اليوم متفقون مع سياسة الصين بقدر ماهى ترفض سياسة التعايش السلمى وبقدر ما تقول بحتمية الحرب كشكل للثورة العالمية . ومن الناحية الاخرى يلومون سياسة الصين لأنها ليست ثابتة وحاسمة بما فيه الكفاية . أى لأنها لا تقول «ب» بعد ان قالت « أ » . أى بعبارة أخرى انه كان على الصينيين ، وقد صرحوا بحتمية الحرب كشكل للثورة العالمية ، ان ينتقلوا فى الحال الى تصريح ابعد من ذلك يحبذ مثل هذه الحرب .. أى الا يكتفون بمجرد التهديد بالحرب ، وانما يضعونه بالفعل موضع التنفيذ . وهكذا يمارس التروتسكيون ضغطا « مباشرا » من اجل قبول حرب بونابرتية كسلاح من اسلحة السياسة الاشتراكية .. الامر الذى فاقوا فيه حتى تروتسكى نفسه الذى تجنب ادانة نفسه بهذا الشكل .

وعلى اية حال فان « غلطة » اصحابنا التروتسكيين الجدد فى هذه الحالة تتمثل ببساطة فى اتباعهم المنطق السياسى الوحيد الكامن فى الاساس الذى انبنت عليه كل من سياسة تروتسكى واتجاهات السياسة الصينية اليوم ، الى حد يصبح فيه هذا المنطق ضربا من السخف .. فالذى لا شك فيه أنالالف لا بد وان تتبعها الباء فى أية ابجدية سليمة . وبعبارة أخرى ، انك اذا كنت تؤمن بأن الحرب ستكون ذات فائدة لك ، فواجبك أن تعمل لاندلاعها .

بيد ان هذا ، ايضا ، يعنى التالى :

ان التقييم غير الواقعى للظروف القائمة لابد أن يفضى بالتالى الى نتائج غير صحيحة ، والى تطبيق اساليب غير ملائمة . ومن ثم فهو ينتهى الى هزيمة ساحقة . وأى انسان يسىء تقدير عواقب الحرب سيعانى من الهزيمة . وحتى الاشتراكية نفسها لا تستطيع أن تنقذك من الهزائم المترتبة على اخطائك ، تماما كما لم تجد الشعارات الثورية الثلاثة فى انقاذ نابليون .

الفصل التاسع

مغزى التعايش السلمي والإيجابي

لسنا وحدنا فقط ، فى يوغوسلافيا . الذين نؤيد التعايش السلمى بين الامم ذات النظم الاجتماعية المختلفة . فثمة بلاد اشتراكية اخرى تؤيد نفس الشىء . ونستطيع ان نقول ان هذه السياسة هى السياسة الرسمية للمعسكر الاشتراكى . بل انها ليست سياسة رسمية فحسب ، وانما هى السياسة المتفقة مع المصالح الاساسية لشعوب البلدان الاشتراكية • ومن ثم ، فهى تحظى فى كافة هذه البلدان باعظم تأييد شعبى . ولذلك كانت البلاد التى تحاول تغيير هذه السياسة تفتقر الى القوة . ولذلك ايضا ليس من السهل على النقاد الصينيين أن يهاجموا سياسة التعايش بشكل مباشر • ومن ثم فقد لجأوا الى طريق غير مباشر .. اى الى مهاجمة سياسة يوغوسلافيا فى التعايش بطريقة تبدو معها هذه السياسة وكانها شىء مختلف عما ايده لينين فيما مضى ، وعما تؤيده بلاد المعسكر الاشتراكى فى هذه الأيام ..

الا أن المناورة جرت بشكل فج للغاية ، حتى يخيل للمرء أن اصحابها يريدون بالفعل ان يدرك كل انسان حقيقة ماتدور حوله . وسوف اورد هنا عددا من التصريحات المنسوبة لثلاثة من قادة اكبر الاحزاب الشيوعية . وهى تصريحات لا يتفق معها الشيوعيون اليوغوسلاف عن التعايش • وأنا لا أدعى أنه لا توجد خلافات معينة فى تطبيقاتها اليومية . ولو كان « المنظرون » الصينيون يوافقون على هذه التصريحات لما كانوا فى حاجة الى الدخول فى مجادلات حول مفاهيم اليوغوسلاف عن التعايس . وانا لا ادعى انه لا توجد خلافات معينة فى التطبيق العملى لهذه السياسة ، ولكن الواضح انه ليست هناك خلافات مبدئية بين وجهات نظر اليوغوسلاف ، ووجهات نظر أصحاب هذه التصريحات التى سنوردها .

وها هى المقتبسات ، وبدون تعليق ، فهى تتحدث عن نفسها .

« اننا نؤكد ان امكانية استبعاد الحرب من حياة المجتمع البشرى نهائيا والى الابد فى ايامنا هذه قد وجدت بالفعل ، وهذه الامكانية تستمد وجودها من العلاقات الجديدة فى القوى الدولية التى نشأت بعد الحرب العالمية الثانية » . (ن . س . خروشتشوف ــ من خطاب فى الجامعة الوطنية باندونسيا ــ جاو جاما دو ــ البرافدا ــ ٢٢ فبراير ١٩٦٠)

« التعايش السلمى • ليس مناورة تكتيكية • وانما هو مبدأ أساسى للسياسة السوفيتية . فاذا كنا نقول ان النظام الاشتراكى سوف يكون هو الفائز فى المنافسة بين النظامين الراسمالى والاشتراكى . فان

هذا لا يعنى ابدا أن هذا الفوز سوف يتحقق بالتدخل المسلح من جانب البلاد الاشتراكية فى الشئون الداخلية للبلاد الراسمالية .

« ان سياسة التعايش السلمى تكسب كل يوم مزيدا من الاقبال العالمى عليها . وهذا يتفق مع منطق الاشياء . فمع الظروف القائمة فى ايامنا هذه ، يصعب وجود طريق آخر · والحق انه لا يوجد سوى طريقين : اما التعايش السلمى واما اشد الحروب تدميرا فى التاريخ . ولا يوجد طريق » ثالث · (ن · س · خروشتشوف من تقريره الى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى) .

« ان البلاد الاشتراكية تكافح ضد الحرب ومن أجل التعايش السلمى لا لأن الرأسمالية قوية ·· كلا !! وانما نحن ببساطة لا نريد اية حرب اخرى . فحتى النظام الاشتراكى بكل مافيه من سمو وتقدمية لا يمكن فرضه بقوة السلاح على شعب لا يريده . ولهذا السبب فان البلاد الاشتراكية تتبع سياسة سلامية ثابتة وتكرس جهودها للبناء السلمى وهى تلهب حماس الناس وتقودهم بقوة المثل الذى تقدمه فى بناء الاشتراكية . اما مسألة متى ياخذ هذا البلد او ذاك بطريق الاشتراكية فان هذا ماسوف يحسمه الشعب بنفسه . وهذا ـ بالنسبة لنا ـ هو اقدس شىء نعرفه » (ن . س خروشتشوف ـ خطاب القاه عند استقباله فى بكين بمناسبة العيد العاشر لجمهورية الصين الشعبية ٣٠ سبتمبر ١٩٥٩)

« ماذا يعنى التعايش السلمى بين البلدان الاشتراكية والراسمالية؟ انه يعنى الاحترام المتبادل للحدود الاقليمية، والسيادة ، وعدم الاعتداء ، وعدم التدخل فى الشئون الداخلية لاسباب اقتصادية أو سياسية او ايديولوجية ، والمساواة ، والمنفعة المتبادلة ، والتعايش بين البلاد وبعضها الآخر · ان مبادىء التعايش السلمى قد حازت بالفعل القبول على الصعيد العالمى (ن . س . خروشتشوف . خطاب فى اجتماع عقد فى موسكو للصداقة السوفيتية ـ التشيكية ـ ١٢ يوليو ١٩٥٨) .

« اننا ، اذ نؤيد سياسة التعايش السلمى بين الدول على اختلاف نظمها الاجتماعية ، لا نقصد بالطبع ان نؤكد انه لا توجد تناقضات بين الاشتراكية والراسمالية ، او انه من الممكن ان يقوم وفاق كامل بينهما، أو انه من الممكن الوصول الى مصالحة بين الايدلوجية الشيوعية والبرجوازية ، فان أى انسان يتبنى مثل هذه الآراء يكون قد تخلى عن الماركسية واللينينية · فالخلافات الايديولوجية فى الرأى لا تقبل

المصالحة ، وسوف تظل قائمة ، ولكن هذا لا ينفى التعايش السلمى والتنافس بين البلدان الاشتراكية والراسمالية». (ن. س. خروشتشوف - فى الاجتماع اليوبيلى للمجلس الاعلى ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٧) .

« مرة اخرى يعلن الشيوعيون انه لم يحدث ابدا انهم دفعوا احدا ما الى استعمال اساليب العنف فى الحكم ، وانهم لن يفعلوا ذلك ابدا. والى جانب ذلك فان مجرد التفكير فى ثورة تفرض بواسطة الجيوش الاجنبية انما هو سخف ومدعاة للسخرية » (نقاط الاعلان السياسى للحزب الشيوعى الايطالى فى المؤتمر الثامن - كالتشرا - ١٩٥٧ - ص ١١١) .

« ان حربا عالمية ثالثة لن يكون لها من نتيجة الا نهاية الحضارة الانسانية كما نعرفها اليوم .. الحضارة التى نعتز بها . أى انها ستعنى تحول المراكز الرئيسية لهذه الحضارة - وفى اوربا قبل غيرها - الى مقابر باردة » (تولياتى - تقرير فى الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى الايطالى - ٩ ديسمبر ١٩٥٧) .

« المطلوب - باختصار - هو اتباع سياسة اوروبية وعالمية جديدة ، تقوم على اساس التخلى عن التكتلات العسكرية التى تقسم العالم وتدفع به نحو الحرب . فقد دفعت فترة الحرب الباردة التى انقضت بعدد من التغيرات فى الوضع العالمى الى ذروتها ، بحيث لم يعد أى بلد) معنيا فقط بسياسة السلام ، ومهتما فقط بتطبيق مثل هذه السياسة ، نقول لم يعد معرضا بحال من الاحوال للعزل او العيش تحت رحمة اية كتلة معادية . لقد اصبح العالم اليوم متعدد المراكز. وحتى فى قلب المعسكر الاستعمارى توجد خلافات يمكن ان تصلح كأساس لسياسة سلام وطنية » (تولياتى - تقرير للمؤتمر الثامن للحزب الشيوعى الايطالى) .

« لقد رفعنا اصواتنا مؤكدين بشدة : «لا.. الحرب ليست حتمية». ولقد درست هذه القضية فى جوهرها فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى ، كما اكد ذلك المؤتمر الفارق بين الجانب الاقتصادى والجانب السياسى لهذه القضية . فالاساس الاقتصادى الذى يدعو الى التحريض على الحرب يظل قائما ، طالما الامبريالية موجودة . ولكن الحرب ليست مجرد ظاهرة اقتصادية . ذلك ، انه عندما يكون السؤال هو : هل سنصل الى الحرب ، ام لا ، فان علاقات القوى السياسية ، والارادة الواعية للبشر ، والمستوى الذى وصلوا اليه من التنظيم ، كل ذلك يكون له دور بارز فى حسم المسألة. واليوم ،

هناك من القوى ما يكفى لمنع وقوع كارثة كهذه » . (موريس توبيز - تقرير للمؤتمر الحادى عشر للحزب الشيوعى الفرنسى) .

حتى ستالين الذى كان كثيرا ما يتبنى مواقف متناقضة فى بعض المسائل التى نتناولها هنا لاسباب متعلقة بسياسته الداخلية ، حتى يكاد يقترب كثيرا من وجهة نظر الصينيين اليوم ، لم يحدث ابدا ان انزلق — فيما يتصل بمساندة السلام والتعايش السلمى — الى السياسة المغامرة التى انحدر اليها الشيوعيون الصينيون بهذا الشكل.

وعندما سأل مراسل السنداى تايمز ، الكسندر ورث ، ستالين فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٦ ، عما اذا كان التقدم المطرد للاتحاد السوفييتى نحو الشيوعية قد قلل من امكانيات التعايش السلمى ، اجاب الاخير :

« انا لا اشك لحظة فى ان امكانيات التعاون السلمى لن تتناقص، بل انها يمكن ان تزداد » .

وفى حديث مع اليوت روزفلت فى ٢١ سبتمبر ١٩٤٦ ، نشر لاول مرة فى مجلة « لوك » الامريكية . اجاب ستالين عندما سئل عما اذا كان يعتقد أن التعايش السلمى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، متضمنا الاقلاع عن التدخل فى الشئون الداخلية من كلا الطرفين ، أمر ممكن ، فقال :

« اجل . انه لكذلك بالتأكيد . بل هو ليس ممكنا فقط . انه أيضا أمر يتفق مع العقل ، ويمكن تحقيقه تماما . فعندما كان التوتر فى قمته خلال فترة الحرب . لم تحل الخلافات بين كلتا الحكومتين دون أن يوحد بلدان قواهما وينزلا الهزيمة بأعدائنا . والاحتفاظ بهذا المستوى من العلاقات أكثر سهولة فى زمن السلم » .

اذن .. فان « المنظرين » الصينيين ، بآرائهم عن حتمية الحرب . وليس نحن بسياستنا فى التعايش السلمى — هم الذين يفتقرون الى السند ، سواء من الأدبيات الكلاسيكية الماركسية واللينينية ، أو من آراء الاحزاب الشيوعية اليوم .. أو حتى من لدن ستالين الذى كثيرا مايستشهدون به .

أما الفرصة « السعيدة » التى مكنت المنظرين الصينيين من تمييز التعايش ، « المراجع » عن التعايش « غير المراجع » فهى أننا نسمى سياستنا : سياسة تعايش **ايجابى** .

فقد أصبحت كلمة « ايجابى » هذه موضوعا لكل العبارات الجوفاء

التى تتحدث عن « الطابع المراجع » لمفهوم اليوغوسلاف عن التعايش ، كشىء متميز عن سياسة التعايش « الحقيقية » « والسلمية » . ولعل من المناسب أن نشير هنا الى أن عددا آخر من نقاد السياسة الخارجية اليوغوسلافية فى بعض البلاد الاشتراكية الأخرى قد انضم الى ركب النقاد الصينيين ، كما لو كانوا يريدون أن يؤكدوا لأنفسهم وللعالم أجمع أن النقاد الصينيين على صواب ، اذ يهاجمون سياسة يوغوسلافيا فى التعايش دون أن يهاجموا سياستهم هم .

والآن فلنتأمل الأمر لنرى ما هو معنى هذه الكلمة التى أصبح لها فجأة ــ كما تقول كتابات النقاد الصينيين ــ كل هذه القوة السحرية المراجعة لدرجة أنها استطاعت أن تحول التعايش الى شىء آخر .. ليس هو « التعايش الحقيقى » .

أولا ، وقبل كل شىء ، ان التعايش بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة ليس بدعة مستحدثة ، أو أمرا يحتاج الى « اختراع » أو جدلا حول كيفية اختراعه ــ وانما هو واقع موجود بالفعل . منذ أربعين عاما وهناك نظامان اجتماعيان مختلفان يعيشان جنبا الى جنب . بل لقد حدث أثناء الحرب العالمية الثانية أن حارب البلد الاشتراكى الأول . متحالفا مع بعض البلدان الرأسمالية ضد بعضها الآخر . وهذا دليل ايجابى كاف على أن التعايش بين النظم المختلفة واقع تاريخى قوى وقادر على الاستمرار لفترة تاريخية مطولة ، بل وأيضا أثناء حرب عالمية عظمى ، وحتى الكتاب الصينيون يسلمون بهذه الحقيقة ، فان أربعين عاما من التاريخ لا يمكن تجاهلها ببساطة . ثم ان فكرة التعايش السلمى ذاتها ليست بحال من الاحوال بدعة اشتراكية ، ولم تولد فقط مع الماركسية ، فالتاريخ كله فى الواقع عبارة عن تعايش دائم بين النظم الاجتماعية المختلفة ، وذلك لسبب بسيط هو أن المجتمع يتطور ويتغير بلا توقف ، أما الحروب التى كانت تقطع الطريق على هذا التعايش ، فلم تكن انعكاسا لاستحالة التعايش وانما كانت انعكاسا للقانون الداخلى للتطور فى كافة نواحى المجتمع الطبقى .

أما الشىء الجديد ، فهو أننا فى عصرنا هذا ، لدينا ظاهرة هى : وجود مجتمع اشتراكى لا يمكن أن يتطور بالكامل الا اذا انتهت الحرب والتناقضات بين الأمم من العالم عموما ، وإلا اذا حلت محلها أشكال أخرى كما كان يحدث فى التاريخ من قبل . وقوى المجتمع الاشتراكى قد نمت اليوم بحيث أصبحت قادرة على أن تعكس تأثيرها الحى على العالم بأسره . ومعنى هذا أنها تستطيع بالفعل ، وفى جميع الاحتمالات ، أن تمنع كل مايعترض

طريق التعايش اذا ما سعت لهذا الغرض . أو بعبارة أخرى : ان السياسة الاشتراكية فى جوهرها ليست الا سياسة تهدف الى منع الحرب حتى لا تعترض طريق التعايش .

وهذا فقط ، دون غيره هو جوهر السياسة اليوغوسلافية فى التعايش .

وبالطبع ، ان سياسة التعايش ليست ، ولا ينبغى أن تكون ، سياسة دفاع عن الأمر الواقع سواء فى العلاقات الدولية أو فى العلاقات الاجتماعية الدخلية ، وانما هى تعنى ببساطة نبذ الحرب كوسيلة لحل التناقضات الدولية ، والاعتماد فى نفس الوقت على نتائج التطور الاجتماعى الداخلى الذى سيغير بدوره من العلاقات الدولية .

وعلى أية حال ، فان التعايش يصبح فى نفس الوقت عاملا من عوامل الدفع والتعجيل بكل هذه العمليات ، فحيث أن الاشتركية لم تعد مجرد قوة سياسية ، وانما هى الآن قوة اقتصادية عالمية كذلك ، فمن الواضح ان هذه القوة التى توافرت لها ، وهذا الدور الذى تلعبه سوف يؤثران - بل وحتما سوف يؤثران - على التطورات الثورية والديمقراطية والتقدمية بشكل عام فى الحياة الاجتماعية لجميع الأمم . فان الشعوب التى لا يشغل بالها خطر الحرب العالمية هى وحدها التى ستستطيع أن تولى انتباهها الى معالجة مشاكلها الاجتماعية الخاصة .

ليس هذا فقط ، فان ظاهرة وجود عالم اشتراكى متعاظم النفوذ فى العلاقات الدولية انما تؤثر وسيتزايد أثرها فى مجرى الاحداث ، بظهور عوامل اشتراكية وديمقراطية جديدة فى العلاقات الدولية ، مثل الاحترام المتبادل بين الأمم ، والعلاقات الديمقراطية فيما بينها ، والتعاون الشامل ، والتقارب الودى ، والعلاقات الثقافية ، وتقدم الصناعة العالمية ، والتقسيم الدولى للعمل ، وانهاء الاستغلال الاقتصادى فى العلاقات الاقتصادية بين الدول ، وتنظيم المعونة للبلاد غير المتقدمة بما فيه الكفاية ، واقامة التنظيمات والخدمات الملائمة لتوكيد التعاون الدولى ، وتقسيم العمل بين الدول ، وتهيئة الظروف العالمية اللازمة للتنافس السلمى فى مجال الكفاية الانتاجية للعمل ، والاختبار العملى لفاعلية المؤسسات الاجتماعية والعلاقات من خلال النتائج التى تسفر عنها تجارب كل الأمم والبشر .

وكل هذا بالطبع لا يمكن الا أن يؤثر فى التطور الداخلى لمختلف البلدان الرأسمالية والاشتراكية معا بالشكل الذى تتدعم به القوى الاشتراكية والديمقراطية والمعادية للاستعمار فى هذه البلدان .

وبهذه الطريقة فان البلاد الاشتراكية وكافة القوى الاشتراكية تصبح عاملا من أقوى العوامل فى تغيير عالم اليوم • وان هذا الدور الذى ستكتسبه القوى الاشتراكية وكافة القوى التقدمية والمحبة للسلام فى ظل ظروف التعايش هو أول الأسباب التى جعلتنا نسمى سياستنا تعايشا سلميا ايجابيا •

غير أن هذا ليس السبب الوحيد لهذه التسمية على أية حال • فغنى عن البيان أن التعايش السلمى بين كتلتين مقفلتين على أنفسهما ومسلحتين حتى الاسنان ، لا يمكن أن يكون أساسا لسلام دائم أو مستتب • فمثل هذا التعايش قائم بالفعل من الناحية الواقعية اليوم • ولكن أحدا لا يستطيع أن يحس نحوه لا بالرضا العميق ، ولا الاطمئنان الكامل فالمسألة ــ فى حقيقتها ــ ان ثمة ضرورة لاتخاذ خطوة أبعد • بمعنى ، أن السلام والتعايش فى حاجة الى أن يتدعما بالسعى لنزع السلاح ، وللأمن الجماعى ، والغاء الحواجز الاقتصادية ، وتقوية أواصر التعاون الشامل بين الدول ، وما الى ذلك • ولقد كان من رأينا دائما أن سياسة التعايش تتطلب حتما نضالا عنيدا من أجل التغلب تدريجيا على الحواجز بين الكتلتين ، عن طريق كل مايمكن من اشكال التعاون المتعدد الجوانب بين الشعوب على اختلاف نظمها الاجتماعية •

اذن فلكى يصبح السلام أكثر استتبابا ، فاننا نحتاج الى النضال حتى لا يكون التعايش فى العالم تعايشا بين كتلتين مسلحتين ، وانما بين شعوب تعمل سويا وبهمة فى جميع الميادين حيثما توجد مصالح مشتركة •

وبكلمات أخرى أن التعايش أمر لا يمكن استتبابه الا اذا أقيم على قاعدة من التعاون الدولى الايجابى الشامل • والنتيجة النهائية بالطبع انه كلما كان السلام والتعايش اكثر استتبابا ازداد نشاط كافة العوامل المادية والذاتية للتقدم الاجتماعى فى عالم اليوم •• بينما تضاعف تلك العوامل بدورها من اشكال التعاون ، والتلاحم بين شعوب العالم أجمع • وبهذه الطريقة يزداد انعطافها نحو ربط مصالحها فى اطار الاقتصاد العالمى ونحو التطور الواسع فى القوى الانتاجية على الصعيد العالمى •

وفيما يلى نورد كيف يحدد تيتو هذا الهدف :

« ان التعايش السلمى يجب أن يفهم لا بمعنى أن تعيش الشعوب والدول جنبا الى جنب ، ولكن باعتباره علاقات دولية قائمة على أسس

جديدة تتفق مع عصرنا ، ومن النوع الذى يجعل فى الامكان قيام أعظم أوجه النشاط السلمى حيوية بين الدول ، حتى ولو اختلفت فى نظمها الاجتماعية • والظروف الملائمة لتعايش من هذا النوع تتهيأ بتسوية كافة مواضع النزاع بطريقة سلمية ، وباستبعاد الحرب • ان التعايش لا يعنى مجرد مسكن مؤقت أو مناورة مؤقتة يحاول فيها كل من الطرفين أن يتفوق على الآخر ، وانما يعنى قواعد ومبادىء أكثر دواما ، وأحرى بأن تسود جو العلاقات الدولية فى عصرنا هذا • ان التعايش يعنى نبذ التدخل فى الشئون الداخلية للأمم الأخرى • الا أنه ينبغى ألا نخلط بين التعايش فى العلاقات الدولية ، وبين حركة التطور الداخلى فى المجتمع والعـلاقات بين طبقاته • فانه لأمر موكول الى الشعوب فى مختلف الدول أن يحسم كل منها الاتجاه أو الطريق الذى سيسير فيه تطور النظام الاجتماعى فى داخل بلاده • وهكذا ، فان تطبيق مبادىء التعايش السلمى بهذا الشكل بين الدول والشعوب ، بعيدا عن التدخل فى الشئون الداخلية للآخرين ، سيجعل من الممكن حدوث مزيد من عمليات التطور الاجتماعى السلمى الخالى من الآلام بالنسبة لمختلف الشعوب (تيتو ـ تقرير للمؤتمر الخامس للاتحاد الاشتراكى للشعب العـــامل اليوغوسلافى ـ ١٨ ابريل ١٩٦٠ ـ كالتشرا ـ ص ٥٤) •

وهنا ، نجد لدينا أيضا تفسيرا ثانيا للسبب الذى يدعونا للاكثار من الحديث عن التعايش الايجابى • ولكن اذا كان البعض يبغضون كلمة « ايجابى » الى هذا الحد ، وبقدر ماتحتويه هذه الكلمة من معنى ، فلا حاجة بنا الى الجزع •• ان المرء يستطيع أن يتركها ، ولن يغير هذا شيئا من سياستنا نحو التعايش السلمى •

وبالطبع ، على المرء ألا يسقط فريسة لأى وهم من الأوهام ، فان القوى الاشتراكية وقوى التقدم والسلام ، سوف تواجه فى هذه المعركة بمقاومة عنيفة من جانب القوى الامبريالية وسائر العناصر الرجعية فى النظام الرأسمالى التى ستحاول ـ لا مجرد الاحتفاظ بامتيازاتها ـ وانما التوسع فيها أيضـــا • غير أن المسألة ليست فقط ماتود هذه القـوى الرجعية تحقيقه ، **وانما ماتستطيع بالفعل أن تحققه • واذا كان لدى القوى الاشتراكية ذرة من الثقة بالنفس وبثمار الاشتراكية المقبلة فانها يتعين عليها بالتـالى أن تثق فى قوة تأثير الاشتراكية فى التطور الـكلى للجنس البشرى نتيجة لسياستها الدولية الايجابية اليوم •**

ان القوى الاشتراكية تستطيع أن تقوم بدورها كممثلة للمصالح الأســـاسية لكل الأمم ، وتستطيع أن تنال تأييد كل البـلاد اذا اتبعت

ـ بالتحديد ـ سـياسة تعايش وسـلام ، بل وفقط باتبـاع مثل هذه السياسة • فانها ـ كما يقال ـ « مطلب يومى » في السياسة الدولية •

والمعركة من أجل تحقيق هذا المطلب ستستطيع أن تجمع حولها كل البشر التقدميين فى كفاحهم ضد كافة أشكال القهر والاستغلال • ففى نفس الوقت الذى تغير فيه هذه المعركة من العلاقات الاجتماعية الداخلية • فان العالم ككل سيصبح أكثر قدرة على تحويل العلاقات الدولية فيه •

وانه لمنطق عجيب ولاشك أن يؤكد بعض الناس أن الاستعمار « نمر من ورق » ، ثم يعلنون فى نفس الوقت أن العالم الاشتراكى القوى الواسع الأرجاء عاجز عن ارغام هذا « النمر من ورق » على حفظ السلام الا عن طريق الحرب !

ان سياسة التعايش هى ـ تلقائيا ـ الطريق الوحيد الذى يمكن للبلاد الاشتراكية عن طريقه ، لا أن تحقق تقدما ماديا سريعا فحسب ، وانما أيضا أن تعجل بتطوير العلاقات الاجتماعية والسياسية نحو أشكال من الاشتراكية أكثر رقيا • ان التخلف المادى والظروف السياسية الشاقة التى جرى فيها تطور البلدان الاشتراكية فى الماضى قد عرقلت وأبطأت تطور العلاقات الاشتراكية •• الأمر الذى جعل الفكر المحافظ كثيرا ماقام بدور « الفرملة » التى تعوق التقدم الاجتماعى • والتحرر من هذه الفرملة اليوم هو المهمة العظمى للعالم الاشتراكى• فالبلدان الاشتراكية لاتستطيع أن تكسب العالم الا اذا ضربت له المثل •• وليس بالتهديد وخطر الحرب • **وهذا بالتحديد هو السبب فى أن التقـدم الداخلى فى هذه البلدان هو الواجب الرئيسى لهذا العصر** • الا أنه واجب لا يمكن أن يتحقق الا فى ظل السلام •

الفصل العاشر

ماهو ثوري .. وما هو غير ثوري

يقوم الخط الأساسي لحجج « المنظرين » الصينيين في مسألة الحرب والسلام هذه على أساس أن التعايش يعني « السلام الطبقي » ، أي يعني السير وفقا للنظرة الاصلاحية كطريق الى الاشـــتراكية • ولكي يبرهن « المنظرون » الصينيون على سلامة موقفهم في هذا الصدد ، يبدأون بقلب مفهوم سياسة التعايش الذي تقاتل يوغوسلافيا من أجله في الداخل والخارج ، ثم يمضون بعد ذلك في مناقشة المفهوم المقلوب الذي خلقوه بأنفسهم • فهم يقولون مايلي :

« ان هدف المراجعين الجدد هو نشر البلبلة في السياسة الخارجية السليمة للبلدان الاشـــتراكية • فهم يعتبرون أن التعايش السلمي بين البلدان ذات النظم الاجتماعية المختلفة يعني أن الرأسمالية تستطيع أن تتطور سلميا الى الاشتراكية ، وأن الشعوب ، في البلدان التي تحكمها البرجوازية ، تستطيع أن تتخلى عن الصراع الطبقي ، وأن تطبق « تعاونا سلميا » مع البرجوازية والامبريالية ، وأن البروليتاريا وكافة الطبقات المستغلة يجب أن تنسى حقيقة أنها تعيش في مجتمع طبقي•• وهلم جرا •

« وكل هذه الحجج التي يسوقها المراجعون اليوغوسلاف تهدف الى تسميم عقول البروليتاريا وشعوب كافة البلدان ، ومساعدة سياسة الحرب الامبريالية » • (العلم الأحمر عن وكالة هسنهوا — ١٩ أبريل ١٩٦٠) •

وفي مناسبة أخرى ، يضع كاتب آخر النقط على حروف هذه الدعاوى فيقول :

« ان كل انسان يعلم أن المعركة بين المقهورين والقاهرين انما هي معركة حياة أو موت ، لابد أن تنتهي بانتصار هذا الجانب أو ذاك • ان السلام والتعايش السلمي بين البلاد ذات النظم الاجتماعية المختلفة لا يمكن توفرها الا بشن المعارك الحاسمة ضد القهر الامبريالي • (خطاب لوى نينج يي ، رئيس ، اتحاد نقابات الصين في اجتماع للمجلس العام للاتحاد العالمي للنقابات في بكين نقلا عن وكالة هسنهوا — ٨ يونيو ١٩٦٠) •

وقد أكدنا من قبل أن الشيوعيين اليوغوسلاف اذ يناضلون من أجل التعايش السلمي لا يقفون فقط ضد الأفكار القـــائلة « بانهاء الصراع الطبقي » أو « صراع المقهورين ضد قاهريهم » •• أو القائلة « بالتعاون السلمي » بين الطبقة العـــاملة والبرجوازية ، أو بين الشعوب المقهورة والسادة الامبرياليين ، وانما هم يرون بالعكس أن كافة هذه الاشكال من الصراع كفيلة بأن تتطور وتزداد قوتها في ظل التعايش السلمي أكثر مما هي في ظل الحرب الباردة والخوف من حرب عالمية جديدة • ومن ثم ، فان

ترجمة « المنظرين » الصينيين لوجهة نظرنا فى سياسة التعايش ، من أولها الى آخرها ، تزييف ركيك وافتراء صارخ ٠

غير أنه من المؤكد أن تفسيراتنا لن تقنع النقاد الصينيين بسلامة السياسة اليوغوسلافية ٠ ولكن من المسلم به أن التطبيق هو خير سبيل لاختبار صحة نظرية ما ٠ ولما كنا نحن أيضا من هذا الرأى ، فاننا نلقى نظرة على ماقاله التطبيق حول الأثر « الثورى » للنظريات الصينية ، والأثر الثورى لسياسة التعايش ، فلقد تجمع بالفعل قدر معين من الخبرة فى هذا الشأن ، رغم قصر الفترة التى أتيحت لهذا الاختبار ٠

لقد أخذت العلاقات الدولية بعد الحرب ـ باستثناء السنوات الأولى التى أعقبت الحرب مباشرة شكلين : شكل الحرب الباردة ، وشكل آخر ، خفت فيه حدة التوتر ، أى ماقامت فيه سياسة تعايش ٠ فماذا قدم لنا كل من الشكلين ، من وجهة نظر الاشتراكية والتقدم الاجتماعى ؟

لقد قدمت لنا الحرب الباردة وسياسة الرعب المترتبة عليها حلف الاطلنطى ، واغلاق أبواب العالم غير الاشتراكى ، وعزل المعسكر الاشتراكى الى أقصى حد منذ الحرب ، وعودة النزعة العسكرية الى ألمانيا ، والضغط على يوغوسلافيا الاشتراكية، ودفع المشاكل الاجتماعية الداخلية فى البلدان الرأسمالية الى الخلف فى ظل الجو الناجم عن خطر الحرب ، واضعاف الحركات الشيوعية وغيرها من الحركات الثورية فى عدد من البلدان ـ فى كلمة واحدة ، قدم لنا هذا الشكل عديدا من العراقيل ٠

أما عندما كانت تخف حدة التوتر ، حتى ولو كان ذلك بشكل متقطع ، وضئيل ، فقد كنا نشهد عديدا من الأحداث الهامة ٠ ففى سنوات قليلة وجهت الى النظام الاستعمارى ضربات حاسمة ٠٠ ومع أن السوس والعفن كان قد دب فى الاستعمار من قبل ، الا أنه كان لايزال متماسكا الى حد ما بفضل الحرب الباردة ٠ ولقد وقعت فى كثير من البلدان تغيرات ثورية هامة ، وتغيرات أخرى تقدمية ٠ بينما تضاءلت الى حد بين مراكز القوة ومصادر القوى الامبريالية ، وتزايد عدد أعضاء هيئة الأمم ، وبالتالى تحسن الوضع فى داخل تلك المنظمة ، وتعاظم نفوذ البلدان غير المنحازة ، وازداد نفوذ قوى السلام والتعايش فى أمريكا وأوربا الغربية ، بما فيها دوائر قيادية معنية فى الحكم ، وتزايدت امكانية توحيد حركة الطبقة العاملة ، أو على الأقل ، تحسن موقف جميع قطاعاتها ، وتمت المعارضة ضد سياسة استخدام القوة ، كما اتسعت الآفاق أمام الشعوب للقيام بدور مستقل نشيط فى المعركة من أجل السلام والتخلى عن الانحياز

للكتل ، وبدأت تتداعى تلك المخلفات الرجعية المتطرفة التى ولدتها الحرب الباردة مثلما فى كوريا الجنوبية وفى غيرها ، واجتذبت فكرة التعايش وعدم الانحياز جماهير واسعة من الشعوب ، وبدأت تخرج الى الوجود العملى فى بلاد مثل اليـابان ، كما أنه فى أمريكا الجنوبية أحرزت الحركة الديمقراطية الثورية سلسلة من الانتصارات ، وفى أوربا الغربيـة بدأت تنمو قوة الحركة المضادة لعودة النزعة العسكرية الى ألمانيا ، وتزايدت فرص التعاون السلمى بين الاتحاد السوفييتى والبلاد الاشتراكية الأخرى. كـذلك بدأت الشـعوب تلتفـت بشـكل متزايد الى مشـاكل تطـورها الاجتماعى الداخلى ، الأمر الذى يمثل قـوة دافعة جديدة لكافة القـوى والحركات التقدمية والاشتراكية . وبعبارة أخرى ، ازداد تعاظم القوى الاشتراكية وقوى السلام والتقدم الاجتماعى بشكل عام فى غضون سنوات قليلة خفت فيها نسبيا حدة التوتر ، وساد فيها جزئيا سياسة التعايش السلمى .

وبمعنى آخر ـ ولكى نكون أكثر دقة ـ بينما نجد سياسة التعايش حسب هذا المفهوم الذى قدمناه هنا ـ تؤدى الى تقليم أظفار قوى الحرب والامبريالية والرجعية المتطرفة ، فاننا نجد سياسة الصين تبذر الشكوك ضد النوايا السلامية للبلدان الاشـتراكية فى كل مكان وخصـوصا فى البـلدان الآسيوية ، مفزعة بذلك النـاس من الشـيوعية ، ومقوية بذلك ـ موضوعيا ـ القوى الرجعية ودعاة التكتلات العسكرية ، كأنما تسعى هذه السياسة عامدة الى حفر هوة عميقـة تفصل بين المعسكر الاشتراكى فى جانب ، وكافة بلدان العالم الأخرى فى الجانب المقابل . والشعوب لا تستطيع أن تفهم لماذا تدافع الصين باسم الاشتراكية عن مراكز التجار والرأسماليين الصينيين فى البلاد الأخرى ، بينما هؤلاء يصفون فى داخل الصين ذاتها . لا عجب اذن ان فسرت هذه السـياسة بأنها من قبيل سياسات الدول الكبرى وهـذا بالطبع يثير كثيرا من الارتياب .. بل من التخوف . وما على المرء الا أن يتذكر سياسة لينين تجاه البلدان المجاورة حتى يرى مدى ضعف حجة «المنظرين الصينيين» اذ يستشهدون باللينينية دفاعا عما يقولون .

واذا كانت الطبيعة الثورية لسياسة ما تتحدد وفقا لما ينتج عنها ، وليس وفقا لما تحمل من كلمات ومزاعم ثورية ، فمن المؤكد أننا لن نجد صعوبة فى تبين أى السياستين هى الثورية .. سياسة التعايش أم تلك التى تحبذ سياسة القوة فى العلاقات الراهنة بين الشرق والغرب .

وبالطبع سوف يستشهد الصينيون رهم بسبيل الدفاع عن أنفسهم ضد هذه الحجج ، بما يجرى فى اليابان وكوريا الجنوبية ، على أساس أن ذلك يؤكد سياستهم ، ولكن بالعكس ، آن هذه الأحداث بالذات التى تمت فى آسيا لهى أبلغ دلالة ضد مفاهيم الصينيين • ان السياسة الصينية قد ساعدها موضوعيا ــ سينجمان رى فى كوريا كما ساعد أشد الدوائر رجعية فى اليابان • ان الشعب اليابانى قد انتفض ضد ربط اليابان باحدى الكتلتين ، لا لشيء الا أنه كان فى صف السلام ، والا لأنه كان يرى مستقبله فى سياسة التعايش السلمى التى بدأت تؤتى ثمارها •

ان كل هذا ليؤكد مرة أخرى ، ان هذه الراديكالية اليسارية المتطرفة والثورية المزيفة انما تسفر عن نفس النتائج الرجعية التى يسفر عنها الاستسلام المباشر للقوى الرجعية • وأن نفس السمات الانعزالية واليسارية المتطرفة ، ونفس النتائج السلبية تظهر مرة أخرى فى بعض التكتيكات الصينية فيما يتصل بعدد آخر من المشاكل العاجلة للسياسة الاشتراكية والعلاقات الدولية •

ولنتناول ــ على سبيل المثال ــ مشكلة البلدان المتخلفة ، فبينما يزداد اقتناع العالم أن تضييق الهوة بين البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة اقتصاديا هو أحد الأركان الأساسية فى سياسة السلام والتقدم ، ودعامة من دعامات الكفاح من أجل الاشتراكية كنظام عالمى ، فاننا نجد الكتاب الصينيين يدينون اليوم كل عمل فى هذا الاتجاه •

فمثلا ، نجد لوى نين يى ، رئيس اتحاد نقابات كل الصين يقف فى احدى دورات انعقاد المجلس العام للاتحاد العالمى للنقابات فى بكين ، فى يونيو ١٩٦٠ ، موقف المعارضة الصريحة ضد آمال كل شعوب الدول الناشئة فى التعجيل بتنمية بلادها عن طريق المعونة الاقتصادية الأجنبية ، زاعما أن مثل هذه الآمال انما هى مراجعة ، ويدلى بالتصريح التالى : ــ

« ان مايسمى » بالمعونة « الامبريالية للبلدان المتخلفة هو فى الحقيقة « تصدير لرأس المال » ، هدفه تشديد العدوان والاستغلال والسيطرة على البلاد التى تتلقاها ، من أجل اقتناص أقصى حد من الربح ، ومن أجل مساعدة البرجوازية ، و « ليس من أجل توفير السعادة لشعوب هذه البلاد » وما من منظمة واحدة ، تمثل بالفعل مصالح الطبقة العاملة ، تجرؤ على السماح بالخلط بين المعونة الامبريالية وبين المساعدة المخلصة الودية التى تقدمها البلاد الاشتراكية بدون أية شروط » • (فى وكالة هسنهوا ــ ٧ يونيو ١٩٦٠) •

ثم يضيف ليو شانج شنج نائب رئيس الاتحاد العالمى للنقابات الى هذا الرأى مايلى : —

« يقال ، انه بعد نزع السلاح ، سنستعمل الامبريالية اعتماداتها التى كانت مخصصة للأغراض الحربية من أجل « رفاهية الطبقات الكادحة » ومن أجل « تقديم المعونة للبــلاد المتخلفة » • وانها أيضا « سوف تساهم فى التقدم العلمى للعالم أجمع دون استثناء » • والغرض من وراء هذا الزعم هو — بلاشك — اسباغ قناع جميل على وجه الامبريالية ، واخفاء طبيعتها • وفى هذا — ولاشك — خدمة للامبريالية التى تتزعمها الولايات المتحدة الأمريكية ، بهدف خداع شعوب العالم بأسرها » • (عن وكالة هسنهوا — ٨ يونيو ١٩٦٠) •

ونحن نحتاج هنا أولا الى ايضاح مسألتين مبدئيتين :

الأولى : ان رئيس اتحاد نقابات الصين قد خلط عمدا — كما هو واضح — بين « تصدير رأس المال » فى شكله الامبريالى الكلاسيكى ، وبين المعونة الدولية المنظمة للبلدان المتخلفة التى نؤيدها كما يؤيدها غيرنا من الأمم • ذلك ، أنه من الواضح بالنسبة لنا — كما هو بالنسبة لهم — ان جوهر الامبريالية ليس هو الرغبة فى تقديم المساعدة ، وانما هو اخضاع البلاد الأخرى اقتصاديا • ولكن ما نؤكده هو **ان علاقات القوى فى العالم ، جنبا الى جنب مع وعي الجنس البشرى والعلاقات بين الشعوب •• كل هذا قد تغير الى حد أصبح معه السعى من أجل ايجاد منظمة دولية ديمقراطية لتقديم المعونة الاقتصادية للبلدان المتخلفة اقتصاديا سياسة واقعية •**

وغنى عن البيان أن المنظمات الاحتكارية الرأسمالية تقاوم مثل هذه الاتجاهات ، وسوف تظل تفعل ذلك • ولكن هذا أمر يختلف عن القول بأن المرء يتعين عليه لهذا السبب أن ينصرف عن السعى لهذه الفرصة ، **فان مطلبا من هذا النوع يعد من قبيل « المطالب اليومية » فى السياسة العملية •• مطلبا من أجل التقدم الاقتصــــادى الذى يعبىء الشعوب فى المعركة فى سبيل الاستقلال والتقدم • ومطلبا من أجل اضعاف الاساس المادى والسياسى للامبريالية •** هذا ، على أنه مازال يوجد الى جوار ذلك تلك الأشكال التقليدية المعهودة لتصدير رأس المال الخاص التى تصبح مصدرا لاستنزاف الأرباح الفاحشة من البلاد المتخلفة اقتصاديا • غير أن المسألة فى نهاية الأمر هى : ماهى وظيفة رأس المال المستثمر فى الاقتصاد القومى لبلد ما ؟ هل هذا الرأسمال يساهم فى تنمية القوى الانتاجية

الداخلية أم أنه يقوم بدور نهب هذه القوى بهدف تصدير الارباح الفاحشة الى جيوب أصحاب رءوس الأموال الأجانب ؟

ان المعونة التى نسعى لها ليست بالطبع المعونة التى تحمل طابع العلاقات الرأسمالية ، ففى عالم اليوم ، لم تعد العلاقات الرأسمالية والقوى الرأسمالية هي وحدها السائدة ، ولكن هناك أيضا العلاقات والقوى الاشتراكية وعن طريق السعى الدءوب العنيد من أجل ايجاد نظام ديمقراطى دولى للمعونة الاقتصادية للبلدان المتخلفه ، وفى نفس الوقت ضد كافة أشكال الاستغلال أو « المعونة المشروطة » ، عن هذا الطريق ستستطيع القوى الاشتراكية بالفعل أن تكسب تأييد أعمق آمال الشعوب التى تحيا فى البلدان المتخلفة والهادفة الى تحرير نفسها من التبعية الاقتصادية • ولهذا السبب فان الكفاح فى سبيل هدف كهذا يصبح سياسة واقعية ، بل لقد أعطى بالفعل عدة نتائج حاسمة • **كذلك ، فان الخبرة تدل على أن علاقات القوى السياسية اليوم قد وصلت بالبلاد الرأسمالية ذاتها الى وضع تجد نفسها فيه مرغمة على التقدم بتنازلات معينة** فيما يتصل بمبدأ المعونة وأنا لا أزعم ان هذا الامر قد وصل الى حد تحقيق الاشتراكية فى العلاقات الدولية ، ولكن النتيجة تبين كيف ان السعى من أجل ايجاد معونة دولية منظمة للبلدان المتخلفة قد أصبح من الامور العملية والضرورية فى آن واحد •

ومن الناحية الاخرى ، فان الصين هى التى هبطت حتى بالعلاقات التجارية العادية مع يوغوسلافيا الى أدنى حد وذلك لا لشىء الا لكى تمارس عليها ضغطها السياسى • فكان هذا دليلا ثانيا ــ بعد الاول الذى قدمه ستالين عندما فرض الحصار الاقتصادى على يوغوسلافيا ــ على أنه مازال هناك الكثير مما ينبغى عمله فى مجال العلاقات بين البلاد الاشتراكية ، حتى تكون المعونة الاقتصادية مبرأة من الانانية ، وغير مشروطة بالفعل دائما ، وباستمرار •

أما المسألة **الثانية** التى تحتاج الى توضيح ، فهى ما يساق فى الخطب والمقالات الرسمية الصينية كحجة ضد المعونة الدولية للبلدان المتخلفة من توكيد ان مثل هذه المعونة سوف لا تساعد الا برجوازيات البلدان المتخلفة ، ولن تدعم الا مراكزها ، وهذا ــ كما يقال بوضوح تطبيق لمبدأ « كلما ساءت كان افضل » ليس بالتأكيد فى صالح الثورة • ولا يوجد هناك مثال كهذا نستطيع أن نطالع فيه كل مالدى «المنظرين» الصينيين من جمود وتحجر وبعد عن الروح العلمية • ان نظرياتهم هذه

ترى العالم كشيء غير متحرك فى كافة أجزائه : فالرأسمالية سيئة ، اذن فالمعونة للبلدان المتخلفة من أجل التنمية الاقتصادية للبلدان ضارة ما دامت العلاقات الراسمالية هى التى تحكمها — ومن ثم يتعين علينا — أى على الثورى — ان يقف ضد التنمية الاقتصادية للبلدان المتخلفة .

ولو كانت هذه النظرية سليمة ، فلابد ان ماركس كان غارقا حتى اذنيه فى الخطأ عندما كتب عن الدور التقدمى العظيم للراسمالية فى المراحل الاولى من تطورها . ومع ان « المنظرين » الصينيين يزعمون عن انفسهم انهم المدافعون الذين لا يشق لهم غبار عن الجدلية ، فانهم عاجزون تماما عن ادراك أن أية عملية من الممكن ان تحتوى شيئا ما واشياء مغايرة بل مناقضة له .. بمعنى انه يجوز ان توجد فيها اشياء ينبغى تأييدها واخرى ينبغى نبذها ونقدها ، وانه لابد من تأييد الاولى حتى يكتسب نقد الثانية قوته السياسية والعملية .

ومن الطبيعى ، أن أى رأس مال ، سواء كان من البلاد الرأسمالية، أو من البلاد الاشتراكية ، بشروط او بغير شروط يستثمر فى اقتصاد بلد متخلف تسوده العلاقات الراسمالية ، فان دوره يتخذ نفس طابع رأس المال السائد فى نظام الرأسمالى عموما .. بمعنى انه سوف يخلق أو يجدد علاقات راسمالية ، كما يخلق ويجدد الى جانبها صراعا طبقيا بين البرجوازية والطبقة العاملة .

وعلى اية حال ، هل يستطيع « المنظرون » الصينيون ان يتصوروا وجود صراع طبقى أو صراع من أجل الاشتراكية بدون طبقة عاملة ؟

ان أول شروط الاشتراكية الحقيقية — أى حركة الطبقة العاملة — هو وجود طبقة عاملة حديثة .. أى وجود مستوى معين من النمو الصناعى . وهذا أمر يمكن توفره باحد طريقين :

اما طريق التطور التقليدى للراسمالية — أى للبرجوازية الوطنية والطبقة العاملة ، واما عن طريق اشكال وعلاقات راسمالية الدولة ، التى يمكن لها بشروط معينة ان تصبح بدورها اما نقطة البدء فى التطور الاشتراكى — فى حالة ما اذا توفرت العوامل الذاتية التى تؤكد وجود مثل هذا التطور — واما أن تصبح نقطة البدء فى تكوين برجوازية وطنية .

بيد أن النمو الاقتصادى فى هذه الحالات الثلاث يمثل من الناحية التاريخية حقيقة تقدمية ، وهو يعيد طريق النضال من أجل الاشتراكية ولا يعطله . ان قوة الاسس الاقتصادية للاشتراكية تزداد فى الحالات الثلاث كلها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، تزداد قوة الطبقة

العاملة ويزداد دورها الاجتماعي . هذا ، فضلا عن مبدأ الاستقلال الوطني الذي قد يصبح بدوره ، في حالات معينة ، ومع تطبيق سياسة ملائمة من جانب القوى الاشتراكية ، عاملا يضعف من الأساس المادي للامبريالية .. الامر الذي تدل عليه خبرة عدد من البلدان غير المنحازة .

كل هذا قد تبتت صحته ، حتى ولو لم يتغير شيء في العلاقات الاجتماعية في البلاد المتخلفة. وعلى اية حال ، فان المساعدة الاقتصادية قد يكون لها تأثير مباشر على تطور هذه العلاقات ، في اتجاه تعزيز الاسس السياسية والاقتصادية والاجتماعية للاشتراكيه .. بل وتعزيز التطور الاشتراكي بالفعل .

اننا نشاهد في عالم اليوم كافة علاقات راسمالية الدولة التي تتباين في اساليبها وفي دورها التاريخي الاجتماعي . فبينما تنبع هذه العلاقات في البلدان المتقدمة من الاحتكارات ، وتأخذ شكل راسمالية الدولة الاحتكارية التي تسعى بوسائل جديدة للحفاظ على جوهر العلاقات الراسمالية ، فانها تبدو في كثير من البلدان المتخلفة كتعبير عن الدور المتقدم للدولة في جهودها من أجل الدفع بعجلة التنمية الاقتصادية في البلاد . ويتوقف على الوضع السياسي الداخلي ، ما اذا كانت هذه الاشكال ستصبح مجرد مرحلة انتقالية في طريق تكوين البرجوازية الوطنية والرأسمالية ، أو انها ستصبح قاعدة للانتقال المباشر الى الاشتراكية .

والمحرك الاساسي لهذه التطورات في عصرنا الراهن ، حيث الاشتراكية هي العامل السائد ، ليس هو دائما الاحزاب الشيوعية وحدها ، وانما هو ايضا ، وبدرجة أكبر أو أصغر ، غيرها من الحركات المعادية للامبريالية . ومن هنا ، فان تدعيم هذه الاتجاهات — اقتصاديا — قد يعني ايضا وجود دافع مباشر لسلوك طريق الاشتراكية في بعض هذه البلدان . ثم ان كافة البلدان الاشتراكية — في نهاية الامر — قد مرت أو هي تمر الآن ، وبدرجة كبيرة أو صغيرة — باشكال من راسمالية الدولة .

وهنا يكون من ضيق الافق والانعزالية العاجزة ان يقال ان الافضل للاشتراكية ان تبقى البلدان المتخلفة على تخلفها حتى تصبح اكثر ثورية . فان هذا اشبه ما يكون بالوقوف ضد كفاح الطبقة العاملة لرفع أجورها حتى تصبح اكثر ثورية .

وانه لأمر بالغ الضرر بالنسبة للاشتراكية العالمية ألا تبصر القوى الاشتراكية امكانيات الاشكال السلمية التي قد ياخذها التطور الاشتراكي في تلك البلدان .

وأنا لا أدعى هنا ـ بطبيعة الحال ـ انه من الممكن ان تتطور الأمور نحو الاشتراكية بفعل عمليات اولية . الا ان هذا بالذات هو السبب الذى يحتم على البلدان الاشتراكية ان تتبنى موقفا محددا فيما يتصل بالمعونة للبدان المتخلفة اقتصاديا . ولا يتسع المجال ـ فى اطار هذا البحث ـ لعرض مناقشة تفصيلية لهذا الوجه من وجوه المسألة ، ولكن من الواضح تماما ان القوى الاشتراكية لا تستطيع اليوم ، ولا ينبغى لها أن تتجاهل الوسائل الاقتصادية التى يمكن أن تدفع بعجلة التقدم الاجتماعى الى الامام ، بشكل يتفق مع امكانياتها المادية ـ كلما كان هذا ممكنا .

وبدون الطبقة العاملة لا يمكن ان يكون هناك اشتراكية أو أى تقدم بالمرة ، وبالتالى فان البقاء مكتوفى الايدى، ثم الاكتفاء بمراقبة النمو الاقتصادى للبلدان المتخلفة وترديد الشعار الانعزالى .. « كلما ساءت كان أفضل » ـ لا يعنى سوى اخلاء الطريق للآخرين . أى للقوى الامبريالية والرجعية كى تصبح هى العامل الذى يقوم بالدور القيادى فى الحياة الاقتصادية وفى التقدم الاجتماعى للبلدان المتخلفة .

ام لعل الساسة الصينيين يقفون ضد نضالنا لمعاونة البلاد المتخلفة لأسباب تكتيكية كألا يقع مثلا فى صدام مع رغبات الجماهير ؟

ان الامر على العكس ، فلو تبنت القوى الاشتراكية نفس الموقف الذى ينادى به بعض الشيوعيين الصينيين لحفرت بذلك هوة عميقة بينها وبين البلدان المتخلفة اقتصاديا..ولعزلت نفسها عن الطبقة العاملة فى تلك البلدان فان كل انسان يعرف ان الوقوف ضد المساعدة الاقتصادية حينما يريدها الشعب لا يمكن ان يكون شيئا محبوبا .

اذن : ما هى علة تبنى بعض الشيوعيين موقفا كهذا ؟

ان العلة تكمن بوضوح فى رأيهم الانعزالى العقائدى الجامد حول مضمون الثورة الاشتراكية فى عصرنا الحالى . ولعل من المناسب هنا ان نورد الكلمات التالية للينين ، فى هذا الصدد :

« اذا كنا نتخيل أن الثورة الاجتماعية يمكن تصورها بدون هبات الشعوب الصغيرة فى المستعمرات وفى أوربا ، وبدون الانتفاضات الثورية لقطاعات من البرجوازية الصغيرة **بكل ماتحملها من أوهام** ، وبدون حركة جماهير البروليتاريا وشبه البروليتاريا ـ غير الواعية طبقيا ـ ضد قهر أصحاب الارض والكنيسة والعرش والجيوش الاجنبية ... الخ ـ اذا كنا نتخيل ذلك ، فان هذا يعنى **انكار الثورة الاجتماعية** . انما فقط أولئك

الذين يتصـــورون ان أحد الجيوش ســوف يضـم صفوفه فى مكان ما ثم يقول « نحن مع الاشتراكية » ، بينما يقف جيش آخر فى مكان ثان ويقول « نحن مع الامبريالية » فتكون هذه هى الثورة الاجتماعية ٠٠٠ ان هؤلاء الذين يعتنقون مثل هذه الفكـرة المتحذلقة المضـــحكة ، هم فقط الذين استطاعوا وصم الثورة الايرلندية بقولهم بأنها « انقلاب » ٠ ان أى شخص يتوقع حـــدوث ثورة اجتماعية « نقية » لن يراها أبدا ٠ ان أمثال هذا الشخص لا يخدمون الثورة الا بأفواههم ، بينما هم لا يفهمونها **أبدا** ٠
(مختارات لينين ـ دار النشر التعــاونية ـ موســكو ١٩٥٣ ـ الطبعة الانجليزية المجلد الخامس ـ ص ٣٠٣) ٠

وهكذا نجد نفس الأمر ينطبق تماما على موقف الصين من المساعدة الاقتصادية للبلدان المتخلفة ٠ وهو موقف جذرى بالغ التطرف ٠٠ فى كلمات لا تقدم سوى العجز والعبودية الانتهـازية للحـــوافز السطحية والانعزال عن الجماهير والتأييد العملى للقوى الرجعية ٠

وهكذا نجد تكتيكات الصين فيما يتصل بنزع السلاح ، عندما نسلط عليها أضواء مشابهة ٠ ففيما يلى ماقال ليوشانج شنج حول هذا الموضوع فى يونيو ١٩٦٠ ، فى اجتماع للمجلس العام للاتحاد العالمى للنقابات :

« نحن نؤيد اقتراح نزع السلاح المقدم من الاتحاد السوفيتى وان كان من غير المحتمل أن تقبل الامبريالية اقتراحا بنزع السلاح نزعا تاما وشاملا ٠ ان الغرض من تقديم هذا الاقتراح هو دفع شعوب العالم أجمع الى الاتحاد والوقوف بقواها المتكاتفة ضد مخططات الامبريالية الخاصة بسباق التسلح ، والتحضير للحرب ، وكشف القناع عن الطبيعة العدوانية الشرسة للامبريالية أمام شعوب العالم ، حتى يستطيع أكبر عدد ممكن عزل الكتلة الامبريالية وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية ٠ حتى لا تجرؤ على اشعال الحرب ٠ هكذا باستهتار ٠ ولـكن ثمة قوما يظنون أن مثل هذا الاقتراح ممكن تحقيقه والامبريالية مازالت قائمة أو أن خطر الحرب ممكن استبعاده على أساس مثل هذا الاقتراح ٠٠ الا أن هذا وهم كاذب » ٠

انما فقط عندما تنتصر الاشتراكية فى العالم كله ٠ سيمكن وجود عالم متحرر من الحرب ٠٠ عالم بدون سلاح ٠ ان واجب الاتحاد السوفييتى والبلدان الاشتراكية الأخرى ان يواصلوا تنمية زعماتهم فى مجال الطاقة الذرية ٠ وواجب شعوب العالم ـ فى نفس الوقت ـ أن تشن معركة أكثر حسما ضد الامبريالية ، وضد الأسلحة النووية ٠ وفى هذه الحالة فقط ، يمكن الوصول الى اتفاقية كهذه ٠

« ولكن حتى عندما نصل الى مثل هذه الاتفاقية فسيبقى دائما من الممكن للامبريالية أن تعتبرها قصاصة من ورق • وحتى اذا كان الامبرياليون لا يجرؤون على البدء بحرب ذرية على نطاق واسع حرصا على مصالحهم الخاصة ، فمازال من المحتمل أن يشنوا الحرب بما يسمى « الأسلحة التقليدية » • (عن وكالة هسنهوا ـ ٨ يونيو ١٩٦٠) •

والحق أننا ـ هنا ـ لا نملك الا أن نتساءل : هل هذه « التعاليم » التى يقدمها « المنظرون » الصينيون حول نزع السلاح ، يمكن أن تصاغ بحيث تتفق مع المبادىء التى قام عليها **بيان السلام** الصادر فى ٢٣ نوفمبر ١٩٥٧ والذى وقعه ضمن من وقعه الحزب الشيوعى الصينى ؟

اننا نطالع في ذلك البيان مايلى :

نحن ممثلى الاحزاب الشيوعية والعمالية نعلن ـ ونحن ندرك تماما مسئوليتنا عن مصير الشعوب ـ ان الحرب ليست حتمية •• ان الحرب يمكن تجنبها • ان السلام يمكن صيانته وتعزيزه •

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الاقتراحات المقدمة الى هيئة الأمم والمتصلة بوقف سباق التسلح وابعاد خطر الحرب الذرية ، والتعايش السلمى بين الدول ، وتنمية التعاون الاقتصادى فيما بينها ـ الأمر الذى يشكل عاملا حاسما فى خلق الثقة التى لا غنى عنها فى العلاقات بين الدول ، انما هى اقتراحات تتفق والمصالح الحيوية لكافة الشعوب •

ان مصير العالم •• مصير الأجيال القادمة ، يتوقف الى حد كبير على اقرار هذه المسائل • ان هذه الاقتراحات تعلو فى وجه كل المعارضة النشطة التى يبديها أولئك الذين لهم مصلحة فى التوتر الدولى •

ان البلدان الاشتراكية لن تفرض نظامها الاجتماعى أو السياسى بالقوة على أى شعب من الشعوب • انها مؤمنة تماما بالانتصار الحتمى للاشتراكية • ولكنها تدرك أيضا أن الاشتراكية لا يمكن أن تفرض من الخارج وانما يجب أن تكون قبل كل شىء نتيجة للصراع الداخلى للطبقة العاملة وكافة القوى التقدمية فى كل بلد • ولهذا السبب فان البلدان الاشتراكية أبعد ماتكون عن الخوض فى العلاقات الداخلية فى البلدان الأخرى ، كما أنها ـ أيضا ـ لا تسمح للآخرين بالتدخل فى شئونها الداخلية •

« اننا نوجه هذا النداء لكم جميعا ، طالبوا بوقف سباق التسلح الذى يضاعف خطر الحرب يوما بعد يوم ، والذى يقع عبؤه أكثر مايقع عليكم أنتم معشر العمال » •

وواضح أنه لم تحدث فى الوقت الراهن تغيرات فى العالم يمكن أن تتطلب تغييرا جذريا فى الموقف من نزع السلاح والسلام منل ذلك الدى نلاحظه اليوم فى موافف زعماء الصين ، أو تحتمل هذا التناقض الواضح الحاد مع نص وروح البيان • ومن تم يتعين علينا أن نفتش عن أسباب هذا التغيير لدى الصينيين أنفسهم • انه ، طبقا لنظرة الصينيين للأمور ، لا يمكن ان يتغير شىء فى العلاقات الدولية الا بعد زوال آخر رأسمالى من على ظهر الأرض • وابتـداء من هـذه النقطة أخذ « المنظرون » الصينيون يفسرون كل المفاهيم الاساسية ــ للبيان ، فجردوها من كل قوى دافعة فيها •

ان أكثر الأشياء أهمية فى أى تكتيك سياسى هو أن يكون الهدف الذى نكافح من أجله هدفا عمليا ، والا فان هذا التكتيك يكون قد حكم على نفسه مقدما بالفشل ، وحكم على الذين يطبقونه بالهزيمة الساحقة • وهذا يعنى أنه لا يمكن تعبئة الشعوب حول قضية نزع السلاح الا اذا كانت تتضمن هدفا عمليا • أما من يدافع عن نظرية تدعى أن النضال من أجل نزع السلاح ليس الا مناورة تكتيكية « لكشف القناع عن بعض الناس » فانه لا يبدد فحسب من قوة المناورة نفسـها ويجعلها عقيمة تدعو الى السخرية ، بل هو يسـاعد مباشرة من النـاحية الموضوعية أكثر الدوائر عدوانية وأشدها فى الدعوة الى الحرب فى الدول الرأسمالية • اذا شئنا التحديد فان هذا هو مايتمخض عنه التفسير الصينى للتكتيكات المتعلقة بنزع السلاح • « والمنظرون » الصينيون يستخفون كثيرا بتفكير الشيوعيين اليوغوسلاف عندما ينسبون اليهم الوهم القائل بأنه يمكن حل مشكلة نزع السلاح عن طريق « الاقناع » • ولكنهم يستخفون الى درجة أكبر بتفكير الشيوعيين اليوغوسلاف عندما ينسبون اليهم وجهة النظر القائلة بأنه يمكن لهـذه التكتيكات الصينية المتعلقـة بنزع السـلاح أن تكشف القناع عن أى انسان أو أى شىء فى العالم اللهم الا هذه التكتيكات نفسها • ان ذلك يعنى أن ما ينتج عن هذه التكتيكات الراديكالية المتطرفة هو العقم والسلبية والمساعدة الحقيقية لقوى الحرب •

وزيادة على ذلك ، فان القول بأن الامبريالية بعد أن ينزع سلاحها لابد أن تشن حربا عالمية ، أى تشن حربا تستخدم فيها البقية الباقية من الاسلحة التقليدية ، لا يعدو أن يكون مادة لمجلة فكاهية • وليس واضحا ما اذا كان هؤلاء « المنظرون » الصينيون ، يشعرون حقيقة بالخوف الغامض المنبعث من « النمر المصـــنوع من الورق » أم أنهم يبـذلون كل ما فى استطاعتهم لتحطيم النضال من أجل السلام ونزع السلاح بتحـويل هذا

النضال الى مادة للفكاهة • وأيا كان الامر ، فانهم بعملهم هذا يتشابهون ، مثلما تتشابه حبات البسـلة ، مع أولئك الصحفيين الامريكيين الذين يعارضون بدورهم أيضا المفهوم القائل بأن نزع السلاح سياسة يمكن تنفيذها ، والذين كتبوا قائلين ، انه لو تم نزع السلاح كلية فان الصين ستكون قادرة على قهر كل العالم باستخدام أسلحة من العصى والحجارة •

وترتبط بهذا أيضا تلك التفرقة التى يضعها الكتاب الصينيون بين النضال من أجل السلام وبين النضال من أجل الاشتراكية ، هذه التفرقة التى تفصل هذين « النضالين » عن بعضهما ، بل وتضع أحـدهما فى مواجهة الآخر •

وها هى بعض المقتطفات من الصحافة الصينية :

« ان النضال من أجل السلام والنضال من أجل الاشتراكية هما شيئان متمايزان ، وانه لمن الخطأ عدم وضـع تفرقة محددة بين هـذين النوعين من النضال • وان التركيب الاجتماعى للذين يلعبون دورا فى حركة السلام هو تركيب فى غاية التعقد دون شك • فان حركة السلام تحتوى أيضا على البرجوازيين المسالمين •• وسوف ينضم لهـذه الحركة عديد من المجموعات الاجتماعية المعقدة التركيب •• وسوف تنجز اتفاقات ضرورية من أجل انتصار السلام • ولكن يجب أن نتشبث فى نفس الوقت بمبادىء حزب الطبقة العاملة ولا ننقص من مستوانا السياسى والايديولوجى بأى شكل كان ، ولا ننزل فى كفاحنا من أجل السلام الى مستوى أنصار السلام ، البورجوازيين • وهنا تبرز قضية التحالف والنقد •••

« ان كلمة « السلام » على شفاه المراجعين الجدد تتجه الى تغطيـة الاستعدادات التى تقوم بها الامبريالية للحرب •• وتصبح على شفاههم أيضا ترديدا للأغنية القديمة عن « الامبريالية العليا » التى كان يغنيهـا المراجعون القدامى ، والتى رفضها لينين منـذ زمن بعيد ، وذلك لكى يحدثوا انقساما فى سياستنا الشيوعية المتعلقة بالتعايش السلمى ، بين البلدان ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة ، ولكى تنحرف هذه السياسـة حتى تستبعد ثورات الشعوب فى البلدان المختلفة •

« ولهذا السبب فان السـلام الذى يتحدثون عنه يتسـاوى فى التطبيق مع « سلام » تقبله الامبريالية فى ظروف تاريخية معينة • ان الامبريالية عازمة على تخفيض المستوى الثورى لشعوب البلدان المختلفة ، وعلى ثلم حد ارادتهم الثورية » (١) •

(١) جريدة العلم الاحمر ـ عن وكالة أنباء الصين الجديدة ، بكين ١٩ أبريل ١٩٦٠ •

ان مدى تحريف هذه العبارات للمعنى التاريخى للنضال من أجل السلام والتعايش السلمى واضح بما فيه الكفاية من عرضنا السابق ـ ولا أرى هنا ضرورة لتكرار تلك الحجج من جديد .. ولكن هناك مظهرين « للتكتيكات » الصينية الخاصة بالنضال من أجل السلام يحتاجان الى العناية بهما بنوع خاص .

أولا ، وقبل كل شيء ، فاننا نرى ان النضال من أجل السلام والتعايش السلمى جزء لا يتجزأ من النضال فى سبيل الاشتراكية . انه ليس نضالا آخر ، وانما هو نفس النضال . انه لا يضعف النضال من أجل الاشتراكية والتقدم والاستقلال الوطنى فى كل بلد ، بل على العكس يقدم تسهيلات لهذا النضال ـ بالوسائل الملائمة لظروف ذلك البلد ، وهو علاوة على ذلك يسهل النضال الداخلى بانقاص امكانيات التدخل من الخارج الى حدها الادنى .

ولكن النضال من أجل السلام عند « المنظرين » الصينيين هو نوع « آخر » من النضال فماهو ذلك النوع ؟ . هل هو نضال من أجل السلام بشكل عام ؟ من الواضح أنه ليس كذلك ، لأن مثل هذا النضال يصبح بشكل محدد مسالة عقيمة . وعلى اية حال ليس هناك داع لكى نتعب انفسنا فى البحث عن محتوى ذلك النضال « الآخر » لانه ليس هناك سلام من هذا النوع على الاطلاق . ومن الناحية المبدئية فان « المنظرين » الصينيين لا يعتبرون النضال من أجل السلام والتعايش نضالا عمليا بأى شكل كان ، وذلك لأنهم يرون أن قضية الثورة العالمية يجب أن تتم عن طريق الحرب . ولهذا فقد حرفوا الشعارات الخاصة بالسلام حتى اصبحت مجرد شعارات سياسية « لكشف القناع عن البرجوازية » .

كما اتخذوا نفس الموقف بالنسبة للشعارات المتعلقة بنزع السلاح .

ويبرز من جديد السؤال التالى : ما هى النتائج التى تتوقعها التكتيكات الصينية الخاصة بالنضال من أجل السلام اذا حكمت مقدما بعدم جدوى هذا النضال ؟ وكيف تستطيع الجماهير العاملة الاندفاع بقلوبها من أجل السلام اذا كانت هذه الجماهير تتوقع انه لا مفر لها من ان تاخذ اماكنها بين صفوف هذا الجانب او ذاك وترابط حول « الخط الفاصل » لجبهة القتال بين المعسكرين ؟ وفى النهاية ، ما هى الحالة التى يصبح عليها ذلك التحالف الموجود بين الشيوعيين والمجموعات السياسية الاخرى فى النضال من أجل السلام عندما تعلم هذه المجموعات

ان هناك خلافا بين اهداف الشيوعيين وبين اهدافهم ـ وان هذا الخلاف يكمن فى اعتقادهم بامكانية صيانة السلام بينما لا يعتقد الشـــيوعيون ذلك ، بل يرغبون فى مجرد تفجير ذلك النضال من أجل اغراض سياسية معينة تخدم مصالحهم الخاصة ؟ أن هذا الموقف يؤدى حقيقة الى تخريب مباشر للكفاح من أجل تدعيم السلام. ان هذين السؤالين كافيان وحدهما لتوضيح مدى عدم جدوى وعجز التكتيكات التى يقدمها « استراتيجيو الصين » . تماما كما قال لينين : « احد الجيوش فى جانب .. وجيوش على الجانب الاخر ، وهلم جرا » .

وبطبيعة الحال ، فاننا مثلهم ليست لدينا اوهام من أى نوع حول امـكانية وجود الطبيعة الســلامية لدوائر امبريالية عدوانية معينة فى العالم . ولهذا فان اقتناعنا بان الدفاع عن السلام سياسة يمكن تطبيقها لاينبع عن اية « ثقة فى الامبريالية » ، مثلما اتهمنا النقاد الصينيون ، بل ينبع من الثقة فى مقدرة القوى الاشتراكية والتقدمية والديمقراطية، وكل القوى المحبة للسلام فى العالم على الكفاح من أجل السلام وتحقيق وضع لا يستطيع فيه أى انسان أن يخرق السلام دون أن يحـكم على نفسه سلفا بالهزيمة .

وهذا يختلف فعلا عما يقوله النقاد الصينيون حول جوهر نضالنا من أجل السلام .

ومن البديهى ايضا انه لا يمكن كسب هذه المعركة نهائيا بين عشية وضحاها . وان خطر العدوان سيظل خطرا حقيقيا لفترة طويلة من الزمن ، وبقدر ما يستحث السلام النضال الداخلى من أجل الاشتراكية والتقدم الاجتماعى فى كل بلد على حدة ، بقدر ما يتعزز السلام نتيجة لذلك النضال . ونرى لهذا السبب ان النضال من أجل السلام هو بالتحديد احدى وسائل النضال من أجل الاشتراكية .

ان ذلك يعنى اننا رجعنا ثانيا لنفس الخلاصة : الا وهى ان النتيجة الوحيدة للتكتيكات الصينية الخاصة بالنضال من أجل الســلام هى نقص الثقة فى السلام نفسه ، وترقب عاجز لعملية تجميع الشعوب والبشر فى جبهتين من أجل « الحرب الحتمية » المقبلة ، والى جانب ذلك تعطى البرجوازية البلدان الرأسمالية فرصـــة لتجعـــل من نفسها البطل المدافع عن الاستقلال الوطنى ، ومن فوق هذا الموقع تحرز بشكل اكبر تأييد جزء كبير ، بل اكبر اجزاء الطبقة العاملة . ومرة اخرى نرى ان نتائج لغة التطرف الراديـكالى هى العزلة والترقب العـاجز لتطور الحوادث .

وفى النهاية ساقتبس مثالا آخر من هذه التكتيكات الصينية :

فعند الحديث عن افاق النضال من أجل الاشتراكية والسلام ، يشير المنظرون الصينيون الى الدور الحاسم للطبقه العاملة فى البلدان الراسماليه ، ولكن عن اى طبقة عاملة يفكرون بالتحديد ؟

انهم يتصورون فى اذهانهم الطبقة العاملة التى اخترعوها فى كتبهم العقائدية ، طبقة قد نفد صبرها فى كل مكان وتتمنى الحرب العالميه باعتبارها الشكل الذى تتخذه ثورتها . ولكن لا يوجد هناك اليوم طبقة عامله كتلك التى فى اذهانهم . واكثر من ذلك فان الطبقة العامله الموجودة فعلا — مثلما يعلم كل انسان — ليست وحدة متسقة حتى داخل نطاق حدودها القومية ، فما بالك بوضعها على النطاق العالمى .

ولكن الشىء الاكثر اهمية ان هذه الطبقة **تناضل من أجل السلام وتقف ضد الحرب العالمية ولا تستطيع ان تقبل ذلك الافتراض القائل باغتصاب السلطة عن طريق الحرب العالمية . وعن طريق الجيوش الاجنبية .**

فاذا كان لدور الطبقة العاملة فى العمليات الاجتماعية فى العالم ، وكذلك لدورها فى النضال من أجل السلام ان يجد التعبير الكامل عن نفسه ، فانه من الضرورى للقوى الاشتراكية الفائدة ان تطبق المناهج والاساليب السياسية الملائمة للظروف الخاصة بالزمان وبتركيب الطبقة العاملة .

وذلك بالتحديد هو مالا يستطيع أدراكه « المنظرون » الصينيون أو انهم غير راغبين فى ذلك . فان الطبقة العاملة لديهم هى من تتبنى وجهات النظر الصينية دون قيد أو شرط . اما الذين لا يفعلون ذلك فهم تابعون لمعسكر الاصلاحيين ولمعسكر الرجعيين ، ولمعسكر خيانة الاشتراكية ، أى انهم تابعون لمعسكر الامبريالية . وعلى اية حال ، فانه من الممكن ان تقع الطبقة العاملة فى بلد ما تحت تاثير الافكار الاصلاحية، ولكنها تظل فعلا فى جانب السلام . وفى امكان هذه الطبقة العاملة ان ترفض الوصفات الصينية الخاصة بالثورة الاشتراكية ، ولكنها تظل على الاقل عاملا نشطا فى النضال من أجل الاشتراكية . ولهذا فانه لا معنى ، بما فى كل هذه الكلمة من بساطة لترديد حقائق تاريخية حول « تبرجز البروليتاريا » فى بلاد معينة ، وحول الارستقراطية العمالية ، وانتهازية الطبقة العاملة فى مجموعها فى أمم معينة ، ثم ان نتوقع فى نفس الوقت سلسلة من التغييرات الآلية فى أفكار هذه الطبقة . وقد لاحظ ماركس ولينين منذ زمن بعيد انه حتى بالنسبة للطبقة العاملة لا توجد

هناك طبقة بشكل مطلق ـ أو طبقة مصنوعة من قالب واحد • ولكنها أيضا عملية تعتمد على التطور ـ وعلى تركيب قوى الانتاج فى مجموعها • وبما انه لم يتغير شيء ما من تلك الحقائق التاريخية ، فان هذه الحقائق في تطورها المضطرد تصبح فى حاجة أكثر للتوضيح والتأكيد • والآن فان هذه الحقيقة تخبرنا باننا لسنا أمام مشكلة يمكن حسمها عن طريق المناقشة الايديولوجية ، أو يمكن حلها بين عشية وضحاها ، ولكننا أمام ظاهرة أوجدتها بشكل جبرى القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعى ، واذا أرادت الاشتراكية الثورية أن تظل على أرض صلبة من الحقيقة العلمية والثورية ، فانه يجب عليها الا تسجل هذه الحقائق فحسب ، وانما أن تضع لها اعتبارا فى السياسة الفعلية ايضا .

وبتعبير آخر ، اذا كان « المنظرون » الصينيون لا يعتقدون ان الطبقة العاملة فى بلد معين يجب ان « تتحسن » اوضاعها عن طريق الثورة ، فانه امر لا معنى له ، بل ووهم أن ينشروا سياسة تقوم على آمال عقيمة فى أن الطبقة العاملة الموجودة فى بلد معين على سبيل المثال ، والواقعة فريسة لتضليل الانتهازية والافكار الاصلاحية ، سوف تحسن من اساليبها وتحرر نفسها من الانتهازية بشكل آلى عملى ، بالرغم من ان التركيب الداخلى لهذا المجتمع المعين وللطبقة العاملة الذى ينتج هذه الانتهازية بقوة القانون الطبيعى . ان معنى ذلك ان يحكم الانسان على نفسه بالسلبية وبالانعزال السياسى الكامل . وهذا هو ما يحدث فعلا بالنسبة للسياسية الصينية الراهنة فى عدد من البلدان . انها سياسة ليست جديرة بكسب تأييد الطبقة العاملة .

وبصراحة فان مزيدا من التعقل يتطلب أن تبدأ من الوضع الحقيقى للاشياء ، ثم تبحث عن الموضوعات التى هى على صلة بالطبقة العاملة فى وضعها الحالى • وعن القضايا التى تتفق مع آمال ومصالح الطبقة العاملة فى العالم أجمع ، أعنى ، مصالح وآمال الطبقة العاملة فى الدفاع عن السلام وفى التطور الحر للاشتراكية ، وفى التقدم الاجتماعى فى كل بلد من البلدان عن طريق الوسائل التى يتفق فى كل بلد على اختيارها .

وان مثل هذا الاسلوب فى العلاقات لا يحرم النقد والصراع الايديولوجى والسياسى المتبادل بل على العكس فان هذه العلاقات تستلزم كل ذلك . ولكنها تدعو فى نفس الوقت الى وضع المجموع الكلى للتطورات فى الاعتبار ، وتحرم طبعا فرض أى آراء أو قضايا على الآخرين، عن طريق القوة أو عن طريق الضغط أو الارهاب الخارجى .

وبهذا الفهم على وجه التحديد فان نضال القوى الاشتراكية من أجل اشمل واعظم وحدة ممكنة للطبقة العاملة أو لحركات الطبقة العاملة

ذات الاتجاهات الايديولوجية المختلفة يجب أن يقام على تلك النقاط التى تجعل الوحدة امرا يمكن تحقيقه .

وعلى كل فهذه المشكلة تحتاج لمزيد من الدراسة التفصيلية . وقد اشرت اليها فى هـذا الفصل باعتبارها مثـالا فقط يوضح انه لا مفر من ان يحرر الماركسيون أنفسهم من الاقتباس الآلى للكلمات المكتوبة التى يتبعهـا البعض بدلا من التمسـك بروح الاكتشافات العلمية الأسـاسية للماركسية ، التى تفهم الحوادث الجارية على اساس التحليل الموضوعى للحقائق . فعلى اساس هذا التحليل تتحدد الاسلحة والادوات والمناهج الملائمة للنضال من أجل الاشتراكية .

ومن الواضح اليوم ان الظروف المادية اكثر تطوراً وانها تتلاءم مع اتسـاع نطاق الاشتراكية الى درجة اكبر مما تحقق بالفعل ، وقد تكون هذه الظاهرة على الارجح نتيجة التخلف الهائل فى الفكر الاشـتراكى المعاصر الذى اصبح مكبلا بالعقائدية المحافظة التى لا تبصر التغيرات العظيمة التى تحدث فى العالم . ولهذا السبب بالتحديد فانه يمكن ــ كرد فعل لهذا التخلف فى الفكر الماركسى ــ أن تظهر كل المظاهر البغيضـــة لمختلف النزعات الديمقراطية الزائفة والنزعة الانسانية المرائية والأخلاقية الزائفة ، باشكالها التجريدية والسوقية ، على انها تيارات تقدمية .
ان كل التكتيكات التى دافع عنها «المنظرون» الصينيون فى مجال النضال من أجل وحدة الطبقة العاملة على النطاق العالمى ، وتلك التكتيكات التى طبقوها فى مجـال تجميع الطبقة العاملة فى النضــال الداخلى من أجل الاشتراكيــة ، قد عانت أيضـا من نفس نقـط الضـعف ، مثلمـا عانت نصائحهم الاخرى حول التكتيكات التى ناقشناها . وان هذه التكتيكات لتفزع أقساما كبيرة من الطبقـة العاملة وتحـكم على الاشتراكية الثورية بالانعزال ، كما تحكم عليها ايضا بالانتظار السلبى للتغيرات الاولية ، الامر الذى يساعد البرجوازية بالفعل على ان تجد منبرا مشتركا مع اجزاء صغرت أو كبرت من الطبقة العاملة حول السياسة الخارجية .

ان التطرف الراديكالى فى الكلمات والعبارات الانعزالية ليس دليلا على الصفة الثورية .

ولن يكون الطريق لتحقيـق أية نتائج ثورية حقيقيـة · وأيا كان الامر فان الطبقة العاملة ــ وعلى الاقل كل الطبقات العاملة التى لديها تاريخ طويل فى النضال الطبقى ــ لا توزن الكلمات الجوفاء لاى انسان بقيمتها اللفظية ــ فذلك هو ميزتها الكبيرة . اما كسب ثقة الطبقة العاملة فيمكن ان يتم عن طريق حركة نضالية ثابتة على الدوام ، وقادرة على اظهار نتائج فى العمل ·

الفصل الحادي عشر

مأزق تاريخي لا مفرّ منه

من الواضح انه قد بدأ يتبلور ، داخل العالم الاشتراكي في عصرنا هذا مازق محدد تماما يتعلق باستمرار تطور الاشتراكية باعتبارها نظاما عالميا . اعنى انه لحل التناقضات بين النظامين الاشتراكي والراسمالي لابد للمرء اما أن يقيم سياسته على أساس العوامل الداخلية للاشتراكية وعوامل التقدم الاجتماعى في كل بلد وعلى اساس النشاط العالمى للقوى الاشتراكية خلال نظام من التعايش ـ وهذا هو المفهوم الثورى والديمقراطى السليم والوحيد للنضال من أجل الاشتراكية ، واما ان يقيم سياسته على : أساس حتمية الحرب ، وهذا مفهوم يحمل فى طياته اخطارا محققة من التشويهات والانحرافات العميقة التى لابد ان تنتج من هذا المفهوم فى تطور الاشتراكية .

وليس هناك بالطبع مجال لمناقشة الاغراض والامال الشخصية للمسئولين عن السياسة الصينية الخارجية . فان المازق لا يمكن ارجاعه الى مسألة من «يريد» ومن ذا الذى «لا يريد» الحرب لان النتيجة النهائية لتطبيق سياسة معينة هى الاعتبار الحاسم فى هذا المجال . واذا ما نظرنا الى الاشياء فى هذا الضوء فانه لايمكن تجنب النهاية المحددة والواضحة تماما لتلك المفاهيم الصينية حول الحرب والسلام . اعنى ، ان المنطق الداخلى للموقف الصينى يؤدى حتما الى تبنى الموقف الذى «يحل» التناقضات العالمية عن طريق الحرب سواء اراد «المنظرون» الصينيون ذلك ام لم يريدوه .

ولدينا اليوم معسكران ضخمان مسلحان يواجه كل منهما الآخر بطاقات هائلة قادرة على تدمير وابادة القوى الحيوية للبشرية . وان مسارا مرتكزا على حتمية الحرب بين هذين المعسكرين ، ما هو الا مسار يهدف الى زيادة بناء تلك القوى المدمرة الى درجة يصبح فيها مجرد وجود الطاقات المدمرة المتعادية الاهداف سببا «ممكنا» لقيام الحرب . وفى مثل هذه الظروف يجب على كل الناس البسطاء ان يدركوا ان خطا سياسيا قائما على حتمية الحرب انما هو فى الحقيقة خط من أجل الحرب بما فيها الحرب العدوانية . ولا جدال فى ان هذا الخط السياسى يساعد اكثر دعاة الحرب رجعية ويضعف من الناحية الاخرى قوى السلام والتعايش ، وبعبارة أخرى فان مجرد رسم السياسة على اساس حتمية الحرب فى الظروف العالمية الراهنة يؤدى فى واقع الامر الى تقوية القوى الامبريالية والحرب ، وتصبح هذه السياسة من الناحية العملية شكلا من أشكال التحريض على الحرب . وغنى عن هذا القول أن مثل هذا الاتجاه السياسى لابد ان تخضع له السياسة الداخلية للبلد الذى يتبنى هذا الطريق .

ومن هنا تنبع خصائص الانتقادات الصينية حول الطريق المتبع حاليا لاحراز السلام ونزع السلاح فمن يتعلق بهذه الاوهام يعتبر على الاقل غير مخلص لمصلحة السلام ، وقد ينظر اليه على انه « يقدم فعلا مساعدة للامبريالية » ومن يثق حقا فى امكانية نزع السلاح ولا ينظر الى الاقتراحات الخاصة بهذا الامر على انها مجرد مناورة دعائية فهو من وجهة نظر تلك الانتقادات يقوم ببذر الأوهام ٠

أن المنظرين الصينيين لا يدركون انهم بذلك يقررون أن النضال من أجل الاشتراكية فى مجموعه ماهو ألا وهم ، وذلك لان النضال من أجل السلام بدوره ما هو الا جزء لا يتجزأ من النضال فى سبيل الاشتراكية .

وبالطبع ، فاننا لسنا مع السلام بشكل مجرد ولسنا ضد الحرب بشكل مجرد ، ولكننا مع سلام محدد تماما وضد حرب محددة تماما أيضا ، وفى عام ١٩٤١ لم نكن نحن الشيوعيين اليوغوسلاف فى صف السلام وانما كنا فى صف الحرب بينما كان البرجوازيون اليوغوسلاف واقفين فى صف السلام فى ذلك الوقت ٠ ولكن القضية أصبحت مختلفة تماما اليوم ٠ وأكرر : يكمن المأزق التاريخى الحتمى الذى يواجه العالم الاشتراكى اليوم ، آولا ، **فى التساؤل الآتى : اما أن يحل التناقض الرئيسى بين العالم الاشتراكى والعالم الرأسمالى ولو حتى عن طريق حرب عالمية جديدة، واما أن نجد الحل تدريجيا من خلال العمليات الداخليه للتطورات الاجتماعية فى البلدان المختلفة** ٠ ويكمن ثانيا فيما اذا كانت قوى الاشتراكية اليوم قوية بدرجة كافية تمكنها فى ظل السلام وفى ظل نظام من التعايش الوطيد ، من الاصرار على مجرى آخر لحل ذلك التناقض ٠ وهذا المجرى هو طريق التقدم الاجتماعى الداخلى الذى يعتبر من الناحية السياسية والتاريخية الطريق الوحيد الملائم لروح المصالح المباشرة للاشتراكية ولروح المدنية الانسانية الحديثة ٠

هنا يكمن جوهر النضال من أجل السلام ، ولهذا فانه لا يمكن النظر الى هذا النضال الا باعتباره جزءا من النضال فى سبيل الاشتراكية، جزءا حقيقيا لا يختلف عن أى جزء آخر من هذا النضال ٠ وبصرف النظر عن ذلك فقد وقفت الاشتراكية من الناحية المبدئية مع السلام دائما ، ولم تكن ضده أبدا ٠ ان الاشتراكية فى حد ذاتها مرادفة للسلام الدائم ، انها تحمل بين طياتها تلك القوة التى ستمحو فى الغد كل أسباب الحرب ، والاشتراكية تؤيد فقط الحروب الدفاعية الثورية والحروب التحريرية

للشعوب ، والتى تفرضها القوى الرجعية والقوة الامبريالية ، أو تلك الحرب التى تنتج عن النضال الذى لا مفر منه ضد القوى الرجعيه وضد الامبريالية • ويعنى ذلك ان الاشتراكية ليست مع السلام فى الغد فحسب ولكنها مع السلام الآن أيضا بقدر ما يكون ممكنا من الناحية الموضوعية ، أى بقدر ما تستطيع قوى الاشتراكية التى يتزايد نضجها أن تجعله ممكنا اليوم • وانه لمن قبيل اللغو بل هو أمر معاد تماما للاشتراكية ، أن نؤكد أن حتمية الحرب تزداد مع ازدياد نمو القوى الاشتراكية ، لأن ذلك معناه التأكيد بأن الاشتراكية نفسها سبب من أسباب الحرب •

ان الاشتراكية ، وهذا اذا ما قصدنا العلاقات الاشتراكية الحقة ، وليس السمات المرتبطة بالعلاقات القديمة والمنعكسة فى داخل المجتمع الجديد ــ لا يمكن أن تكون مصدرا للحرب ، وانما يجب أن يصبح تدعيمها فى العــالم عاملا يقلل من خطر الحرب ، عاملا يعمل من أجل استئصال حتمية الحرب • وان تأكيــد العكس انما يعنى الافتراض بأن سـياسة أى بلد اشتراكى انما يتسلط عليها أفكار متطلعة الى الســـيطرة ومعادية للاشتراكية • وهذا ليس معناه أننا ندعو الى المسالمة على حساب التقدم الاجتماعى ، أو المسالمة لدرجة الاضرار بالتضامن الاشتراكى ، أو المسالمة على حساب المساعدة التى يجب أن تقدمها الدول الاشتراكية والديمقراطيه الى قوى الديمقراطية والتقدم والى قوى الثورة • وكما رأينا من قبل فان التعايش ليس دعوة للتسليم أمام العدوان ، ولا يمثل عقبــة أمام النضال الثورى • بل هو على العكس من ذلك ، يسهل نضال القوى الاجتماعيــة التقدمية •

اننى بالطبع ، لا أهدف الى القول بأنه من الممكن فصل العمليــات الاجتماعية الداخلية ، ثورية كانت أو غير ثورية ، عن العلاقات الدولية ، اذ لا يمكن فصلها ، وعلى وجه الخصوص عن التناقضات الأساسية فى العالم المعاصر : أى لا يمكن فصل تلك العمليات بجدار صـــينى عن التعارض الموجود بين النظامين العالميين ، فهذا أمر غير واقعى بالمرة • ان ما يحدد علاقات القوى على النطاق العالمى هو أولا وقبل كل شىء التطور الداخلى فى كل بلد من البلدان • ولهذا السبب فان كل نضال ثورى وتحريرى ، وكل اندفاع من أجل الاستقلال السياسى والاقتصادى ، انما يكتسب أهمية عالمية معينة ، ويتشابك مع القوى العالمية ، التى تؤثر بدورها من جديد فى العمليات الاجتماعية الداخلية • وبهـــذا المعنى نعيش دون شك فى مرحلة تجرى فيها عملية مستمرة للثورة العالمية ، انها عملية تظهر بأكثر الاشكال اختلافا وان كل تحرك جديد لها نحو الأمام ، فى هذا الاتجـاه

أو ذاك ، انما يؤثر فى القوى الاجتماعية لكل الشعوب • ان الشعوب لم تعد تتطور بمعزل عن بعضها منذ فترة طويلة ، لم يعد كل شعب يتطور داخل نطاقه الخاص ، بل أصبحت الشعوب تتطور فى بيئة عالمية محددة يربط بينها خيوط لا حصر لها من التأثير المتبادل ومن العلاقات المتبادلة •

وعلى أية حال فان الاقتصــار على رؤية هــذا المظهر أو ذلك الجــانب من الحركة ، وتحديد الموقف السياسى على أساس عوامل التطور العالمى هذه وحدها ، معناه أن يخدع الانسان نفســه ويعرضــها لخطر الهزائم الساحقة •

والتطور الاجتماعى للانسانية اليوم فى مجموعه ، انما تقرره عمليتان أساسيتان ، فمن جانب هناك عملية تمركز فى طريقة الربط بين الظواهر، عملية من الصهر ومن التوحيد ومن الارتباط المتبادل المتزايد على الدوام على نطاق العالم ، وتنتج هذه العملية عن الوضع العالمى المعــاصر ، وعن تطور قوى الانتاج ، وعن الحاجة الى مزيد من التقسيم الدولى المخطط للعمل بشكل أكثر شمولا وعمقــا ، بينمــا تظهر فى الجانب الآخر عمليــة بنــاء استقلالية الفرد ـ ويحدث ذلك بالنسبة للشعوب مثلما يحدث للأفراد ـ وعملية بناء كل أشكال النشاط الاجتماعى ، وعن هذا الطريق يظهر السعى الى اللامركزية التىهى التعبير عن درجةوجود الطابع الاجتماعى فى العمل، والتى تدل أيضا على مدى التقــدم الى زيادة فى العــلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين البشر • وهاتان العمليتان معا وجهان لا ينفصلان من نفس الحركة الاجتماعية ، ويجب على القوى الاشتراكية أن تضع كل ذلك فى اعتبارها فى السياسة الداخلية والخارجية معا •

والنظر الى الجانب الأول وحده فى السياسة الداخلية معناه الوقوع فى الروح المحافظة التى ترتكز على تسلط الدولة البيروقراطية ، ومعناه عرقلة نشاط البشر فى عملية تطور القوى الانتاجيــة • أما النظر الى الجانب الآخر بمفرده فمعناه أن تصبح برجوازيا يدعو الى ليبرالية زائفة، ويستسلم للأمور البــدائية ، ويجرد قوى التقــدم الاجتماعى الواعية من سلاحها •

كما أن تطبيق النظرة الاولى فى السياسة الخارجية يؤدى الى المبالغة فى تأثير التناقضات بين النظامين العالميين على العمليات الثورية الداخلية ، والعمليات الاجتماعية الاخرى ، وربما تؤدى هذه النظرة فى الموقف الحالى الى نهاية تعتبر فيها سيادة هذه الدولة الاشتراكية أو تلك ، أو ســيادة مجموعة من الدول الاشتراكية ، أو سيادة الحرب ، هى أفضل الأسلحة من

الناحية العملية لزيادة تقدم الثورة العالمية ، كما تؤدى الى وضع تصبح فيها القوى الثورية الداخلية ، والقوى التقدمية الاخرى ، عاجزة عن احراز النصر بالاعتماد على نفسها • كما أن تطبيق النظرة الثانية يؤدى الى التسليم للقوى البدائية ، وذلك معناه تسليم الأشياء للعوامل الرجعية وتغيير علاقات القوى الاجتماعية فى العالم لصالح هذه العوامل الرجعية •

وفى كلتا الحالتين ، فان كل المسئولين عن السياسة التى تنظر الى الأشياء من جانب واحد فقط ، انما يعرضون أنفسهم لخطر الهزائم الشديدة ، بينما يوقعون بالتطور الاشتراكى انحرافات بعيدة المدى •

وعندما نختبر تلك العمليتين فى تداخلهما المتبادل ، نرى بوضوح ان القوى الاجتماعية الداخلية للبلدان المتخلفة أو للشعوب المختلفة ، تظل المحرك الأساسى والأول للتقدم الاجتماعى ، ولزيادة التحول الاشتراكى فى العالم • وان الأهمية العالمية لتلك العمليات الاجتماعية غير الداخلية لاتنشأ عن طبيعتها الخاصة ، وانما تنشأ من تأثيرها على علاقات القوى الاجتماعية على نطاق العالم • وهذا يؤكد بالفعل أفكارنا ، وعلى وجه التحديد لأن العمليات الثورية الداخلية والمعادية للامبريالية ، والعمليات التقدمية الاخرى التى تجرى اليوم ، انما تكتسب أهمية عالمية ، وكلما أصبح السلام العالمى أكثر رسوخا ، ظهرت هذه العمليات بطريقة أسرع وأكثر حتمية وأكثر سهولة وأقل الماما فى كل بلد من البلدان على حده • وعلى العكس من ذلك ، كلما ازداد التوتر الدولى وعدم الاستقرار ، ازداد الضغط الذى يكبت العمليات الثورية الداخلية • أى ان كل خطوة فى ظروف عالم اليوم ، فى اتجاه سلام دائم ، هى فى نفس الوقت خطوة فى اتجاه تعزيز قوى الاشتراكية والتقدم ، وفى اتجاه تعزيز التعاون الديمقراطى بين الأمم •

وبتعبير آخر أقول ان الوطنية الدولية الضرورية للدول الاشتراكية فى مجال مساعدة العمليات التقدمية فى العالم ، لا تعنى فرض سيادة البلدان الاشتراكية ، أو فرض أنظمتها على الآخرين ، ولكنها تعنى أولا وقبل كل شىء استخدام قوة البلدان الاشتراكية لمنع الحرب ، أو لمنع التدخل فى الشئون الداخلية للبلدان الاخرى ، ولضمان تدعيم السلام والتعايش السلمى بين الامم بغض النظر عن أنظمتها • وان النضال من أجل هذه الأهداف فى العلاقات الدولية هو فى الوقت الحالى جزء أساسى من نضال القوى التقدمية فى داخل كل بلد • مهما تكن الاهمية الدولية للعمليات الاجتماعية الثورية الدلخلية فانها تظهر دائما داخل اطار

علاقات قوى عالميـة محـــددة • فاذا كان ميزان تلك العلاقات يميل فى صالح القوى المحبة للسلام ، فان نضالا من أجل الاشتراكية يمتد الى أجزاء أكثر اتساعا من العالم ، لا يفترض مطلقـــا انه لا يمكن تجنب الحرب بين دول النظامين العالميين •

ومن أجل تحديد المدى الذى تتـم فى نطاقه مســاعدة الحركات التقدمية والحركات المعادية للامبريالية ، لا نحتـــاج الى أكثر من لفت الأنظار من جديد الى كلمات لينين التى اقتبسناها من قبل حول حـدود المساعدة التى يمكن أن تقدمها البلدان الاشتراكية الى تلك الحركات فى البلدان الأخرى • ومما لا شك فيه ان موقف لينين هذا لم يفقد ، حتى فى يومنا هذا ، شيئا من أهميته ، بل هو قد اكتسب بالأحرى أهميـة أكبر ، وهو موقف يبين لنا ان لينين لم يكن مطلقـــا أقل اكتراثا من الشيوعيين الصينين اليوم بالحركات الثـورية فى البلدان الاخـرى ، وانما يؤكد فقط ان لينين قد بين ان آفاق الاشتراكية العالمية تعتمد على القوى الثورية الداخلية وعلى القوى التقدمية عموما فى كل بلد على حدة• وليس على الحروب أو على فرض الاشتراكية من الخارج •

وانه لمن قبيل الوهم ولا شـــك أن يعتمد المرء انه من الممـكن فى الظروف الحالية احراز نتائج سريعة فى مجال توطيد السلام والتعايش •

ومهما يكن الأمر فان القضية ليست على الاطلاق مشكلة السرعـة أو الوقت ، ولكن القضية هى ما اذا كان خط السياسة القائم على السلام والتعايش ونزع السلاح وهلم جرا فى الظروف الراهنة أى فى المرحلة السابقة لاختفاء آخر رأسمالى من على سطح الأرض افتراضا عمليا أو غير عملى •

والى جانب ذلك فهل من الممكن ان تكون القضية هى ، ان صيانة السلام يعنى الوصول بالامبريالية نفسها الى طريق مسدود ، وفى هذه الحالة نسرع من خطى الحركات الاجتماعية الثورية الداخلية فى اتجـــاه التصفية النهائية لبقايا ذلكالنظام ـ واذا كان الأمرالأول ممكنا فان الأمر الثانى يمكن بالتالى حدوثه أيضا •

وبتعبير آخر ليست القضية هى ما اذا كان من اللازم لتحقيق هذه السياسة ان ينقضى وقت طويل أو قصير ، وليست أيضا ما اذا كانت هناك امكانية كبيرة أو صغيرة لتحقيقها ، بل القضية لا تتعدى السؤال التالى :

هل توجد هـــذه الامكانية أم لا توجد ؟ فاذا كانت موجودة فانه لواجب مقدس على كل القوى الاشتراكية ان تكافح من أجل تحقيقهـــا

غير ناسية بالطبع الامكانية المضادة أى انه عليها الا تنسى ان قوى الحرب قد تظل قادرة على اثبات أنها ما زالت أكثر قوة . وعلى أية حال فانه يجب ألا يؤدى هذا الاحتمال الآخر الى اضعاف مجهوداتنا لتحقيق الاحتمال الأول .

وقد قدم « المنظرون » الصينيون ، كما رأينا ، فى مقابل هذه الآراء ، حجة تقول ان النضال من أجل السلام والنضال من أجل الاشتراكية نوعان مختلفان من النضال . وبالاضافة الى ذلك فقد اعتبر « المنظرون » الصينيون بوضوح ان النضال من أجل السلام يقع كلية فى مجال الاثارة والدعاية بهدف توضيح الأمور للشعب ولكشف الأقنعة وهلم جرا . بينما يقع النضال من أجل الاشتراكية فى مجال التحول المادى الحقيقى للأشياء . والنتيجة هى انه اذا استهدفنا تغيير الأشياء عن طريق حتمية الحرب ، فليس أمام السياسة السلامية الا ان تدخل فى صراع مع النضال من أجل الاشتراكية .

وقد أخضعت قيادة الحزب الشيوعى الصينى بوضوح كل القضايا الاخرى المتعلقة بالسياسة الاشتراكية لهذا الخط السياسى القائم على أساس حتمية الحرب ، ويمكن ان نرى بالفعل فى ذلك الخط السياسى المنبع الرئيسى للمواقف الراديكالية المتطرفة الانعزالية ، وللمواقف الجامدة التى ناقشناها سابقا والتى أضفتها تلك القيادة على التكتيكات المختلفة المحددة فى السياسة العالمية للاشتراكية .

وليس من قبيل الصدفة أن تظهر مثل تلك الآراء اليوم ، وبذلك فان الشيوعيين الصينيين يستجيبون تلقائيا ودون وعى منهم ،لتلك التغيرات الهامة فى العلاقات الكمية للقوى الاجتماعية التى أعلنوا انها لن تأتى بجديد فى عالم اليوم .

ومهما يكن الأمر فنظرا لأن تلك التغيرات الكبيرة ، هى على وجه التحديد ، نتيجة لنمو القوى الاشتراكية فانها تطرح من جديد ، وفى المحل الأول ، قضية الطرق والوسائل اللازمة لزيادة تطور الاشتراكية باعتبارها قضية ملحة . ومن الواضح ان كل الأشكال والطرق قد تضاعف عددها كما أن الوسائل قد أصبحت أكثر تعددا أيضا ولا يستجيب جميع الماركسيين ـ على الرغم من أن الماركسية تجمعهم جميعا ـ بنفس الطريقة لهذه التغيرات وعلاوة على ذلك فهم لا يستجيبون لنفس الطريق لأن الماركسية والاشتراكية بوصفهما ايديولوجية ليستا الا أحد عوامل تلك الاستجابة . أما العامل الآخر فهى الظروف الداخلية التى يتشكل فيها الوعى بفعل العوامل الاجتماعية الرئيسية والنتيجة اذ

حتى يمكن تفسير وجود انجاهات اجتماعية معينة ليس كافيا ارجاعهــا الى الماركسية ، وانما يجب أيضا وضع الظروف الموضوعيه والذاتيــة الأخرى في الاعتبار ، تلك الظروف التى تؤثر فى عملية تشكيل السياسة المعنية ٠

ولقد كافح تروتسكي في ايامه لكي يزكى نيران الحرب بين الاتحاد السوفييتى وبين البــلدان الرأسمالية تلك الحرب التى اعتقــد تروتسكى انها حتمية لأنها طريق الثورة العالمية ٠

ولقد كان ذلك انعكاسا لضعف الاشتراكية ، ولنقص الثقة فى قوة الثورة الاشتراكية ، ويأمل الشيوعيون الصينيون الآن ان الحرب سوف تساعد الثورة العالمية ماداموا يعتبرون ان هناك علاقة حتمية بين الحرب والاشتراكية ٠ وليس ذلك سوى انعكاس لقوة الاشتراكية وفى نفس الوقت انعكاس لنقص الثقة فى القوى الثــورية فى البلدان الأخرى ٠ ولكن النتيجة العملية لا تختلف فى كلتا الحالتين ، انها تنحصر فى محاولة قصيرة النظر تهدف الى حل المصاعب الداخلية للثورة حتى ولو اخضعت المصالح العالمية للاشتراكية للمصالح الافتراضية الوقتية للبلد الاشتراكى المعين ٠

وبالطبع فان المساعدة المتبادلة للقوى الاشتراكية بروح الامميــة الاشتراكية وبروح التضامن هى أحد العــوامل الأســاسية للتطورات الاشتراكية فى العالم ٠ ولكن حينما يريد البعض أن يفرضوا مصالح معينة خاصة ، حتى ولو كانت مصالح لها ما يبررها ـ ويزداد الامر سوءا بالطبع اذا لم يكن لها ما يبررها ـ على الحركة الاشتراكية العالمية ، فان الأممية الاشتراكية تكف عن الوجود فى هذه الحالة ويبدأ صراع من أجل السيطرة، وتبدأ كما أوضح لينين محاولة « الركوب على أكتاف الآخرين » من أجل ارضاء واشباع مصالح أنانية ذاتية ٠

وتشجع المرحلة الحالية على ظهور مثل هذه الاتجاهات وعلاوة على ذلك فان المشكلة تصبح أكثر حدة نظرا لأن علاقات القوى الاجتماعية على نطاق العالم تتغير تدريجيا لصالح الاشتراكية وهذه الحقيقة لا بد أن تطلق حركات قوية تقدمية فى صفوف الاشتراكيين تؤدى الى انطلاق بمعنى أنها تفتح آفاقا جديدة للاشتراكية ولكنها سوف تحرك أيضــا ظواهر سلبية ، ومن بينها على وجه الخصوص ظاهرتان محددتان ٠ أولا سيكون هناك من يرون وجوب استخدام القوة الحالية للاشتراكية لكى يحسم « نهائيا » مصير التناقض بين الرأسمالية والاشتراكية فى حرب

هي تحت كل الظروف « حتمية » ، لأنها واقعة لا محالة وسيكون هناك ثانيا من يرغبون ، عن وعى أو عن غير وعى فى استخدام قوة الاشتراكية بشكل لا يتآلف مع مصالح الاشتراكية الأساسية وانما لارضاء بعض المصالح الأنانية أو المصالح الخاصة الضيقة الأفق أو المصالح القومية لهذا البلد أو ذاك ، وغنى عن القول انه اذا ما شقت مثل هذه الاتجاهات طريقها الى السياسة الاشتراكية العالمية والداخلية فانها تسبب انحرافات بالغة الخطورة فى التطور الاشتراكى وسوف تضعف بشكل ملحوظ قوى الاشتراكية لفترة معينة وهنا بالدقة تكمن الأهمية التاريخية للمأزق الذى ناقشناه ٠

الفصل الثاني عشر

الحرب والاشتراكية

لكل هذه الأسباب ، وفى هذا المأزق التاريخى الذى يتحدد فيه مصير العالم بين سياسة تقوم على التعايش وأخرى تقوم على مذبح الحرب العالمية، فان قضية اتخاذ هذا القرار أو ذاك هى أولا وقبل كل شىء قضية الأساليب التى تحقق المزيد من تطور الاشتراكية كنظام عالمى ، وليست مجرد قضية المسئولية عما ستلحقه الحرب بالأمم والمدنية فى عصرنا من ضحايا وخراب ، ولا هى بقضية العواقب السياسية المباشرة المؤثرة على موقف البشرية عموما من الاشتراكية ، بل وليست حتى فى الأخلاق والسياسة • وهذا ما يجعلنا فى حاجة الى ان نخضع هذه القضية لدراسة خاصة •

ونحن أولا فى حاجة الى أن يكون لدينا وضوح تام بصدد ذلك الوهم الذى سيطر على عقول « المنظرين » الصينيين سيطرة كاملة • فهم يرون ان « العالم الاشتراكى المتحد » الذى سينشأ فى الغد نتيجة للحرب العالمية الثالثة التى يفترضون نشوبها سوف يعنى نهاية كل الحروب « نهاية التسلح » ، « نهاية النزاع » وباختصار سيبرز هناك عالم على درجة رائعة من التناسق والانسجام يتجه الى خلق مستقبل رائع حقا لشعوب العالم • ومن تحصيل الحاصل ان نقول انه بناء على هذه النتيجة فهناك تبرير كاف لأن تتحمل مسئولية التضحيات التى ستصحب حربا عالمية جديدة •

ومع ذلك فنحن نواجه هنا وهما خطيرا لدرجة يعجب معها المرء حقا كيف يستسلم له أناس يعتبرون أنفسهم ماركسيين • لأن أول ما يجب ان يعرفه الماركسى هو ان حالة قوى الانتاج هى التى تشكل فى المرجع الأخير العالم الذى ستتحدد طبيعته وكذلك شكل العلاقات بين الناس •

وطبقا لكل ما نعلمه اليوم فى مجال تكنيولوجيا الحرب فان الحرب العالمية الثالثة لن تشبه الحرب الأولى فى شىء على الاطلاق • ذلك ان أشكال التكتيك الحربى الحديث تغير جوانب عديدة من طبيعة الحرب ونتائجها الاجتماعية والاقتصادية تغييرا كيفيا• ودون أن نغرق فى التشاؤم ونتصور ان الحرب العالمية الثالثة ستكون نهاية العالم فان علينا أن ندرك على الأقل ان هذه الحرب اليوم لا يمكن الا أن تكون حرب ابادة واسعة جدا •

ثم من ذا الذى يستطيع اليوم ان يحدد القوى السياسية التى ستتمخض عنها هذه الحرب ، أو كيف ستتصرف هذه القوى فى حالة التدمير الفظيع للاقتصاد العالمى كله ؟ أما « المنظرون » الصينيون فحسبهم أن يقرروا ان النتيجة هى الاشتراكية •

ولكن حتى لو افترضنا ان رأى الصينيين لا يقبل الجدل ، مع انه لن يكون فى الحقيقة كذلك بمجرد أن تحاول البلاد الاشتراكية فرض نظامها على البلاد الأخرى ، فاننا لا يجب أن ننسى ان الاشتراكية ذاتها ككلمة ليست عصا الساحر التى تمحو كل شىء ، وتخلق بين يوم وليلة وفرة فى السلع وفى الامكانيات ، وتجعل الناس اخيارا ، وتضع حدا للتطاحن والنزاع بين الناس منذ اليوم الأول للثورة ، ولا بعد حرب مدمرة • ان حربا من هذا النوع ستجلب الدمار أساسا لأكثر أجزاء العالم تطورا مما قد يتمخض عنه ، على الأقل فى مجالات معينة ، تدهور مروع فى مستوى القوى الانتاجية العالمية لفترة معينة ، فتنشأ بذلك متناقضات جديدة هامة بين البلاد وبعضها وفى داخل كل بلد أيضا • ففى نظام اشتراكى عالمى يستند الى قوى اجتماعية غير متطورة ، ومدمرة دمارا فظيعا ، ولا تزال به آثار من السيطرة والتعصب القومى وعدم التكافؤ بين الأمم وهلم جرا ، نجد ان نطور الاشتراكية سيكون فى هذه الحالة عملية معقدة ، ومن المؤكد انه ستبقى فيه هذه الآثار زمنا معينا بل وتزداد قوة فى حالات كثيرة • ولا مفر من أن تؤدى هذه العملية الى الابقاء على التناقضات العدائية لوقت طويل ، وازدياد نموها مما يبعث فى مخلفات النظام الاجتماعى القديم دوافع جديدة ، ودما جديدا •

وبعبارة أخرى سينتقم التاريخ من أى انسان يتجاهل القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعى بأن يحاول فرض الاشتراكية بالقوة ، سينتقم التاريخ بأن يبعث من جديد التناقضات فى هذا النظام الاشتراكى العالمى « المتحد » والذى يشيد ويدعم بوساطة الحرب والسيطرة • فهذه التناقضات لن يكون الوقت قد حان بعد للقضاء عليها لأن تطور القوى الانتاجية فى العالم لن يمكن من ذلك ، لهذا السبب لن يفلت أى تطور للاشتراكية فى ظروف كهذه من تشويهات ضخمة تصاحبها •

وهكذا نرى أن الأوهام الصينية حول « حالة الانسجام » فيما بعد الحرب تنبع من نفس المصدر الذى نبعت منه كافة النظريات الأخرى التى ناقشناها ، فهم اذ يضعون الحرب والثورة على قدم المساواة ، ينسون أن الحرب العالمية لها قوانينها الخاصة ، وأن للثورة قوانينها الخاصة هى الأخرى •

ولكن لهذه المسألة جانبا آخر أكثر أهمية •

فمن المألوف أن نقول ان السياسة الخارجية هى انعكاس للسياسة الداخلية ، والعكس على أية حال صحيح أيضا ، فللسياسة الخارجية آثار محددة على كل من التطورات الاجتماعية الداخلية والتطورات السياسية ،

ويصدق هذا على كل من البلاد الرأسمالية والاشتراكية • رغم أن كلا من هذه العمليات تجرى فى مســارات مختلفة فى هذين المجالين • ولكن للسياسة الداخلية والسياسة الخارجية قبـل كل شيء ، أثرا كبيرا على تطور الاشتراكية كنظام عالمى ، هو فى حقيقـة أمره نتاج تشـابك بين عمليات وأشكال ومسارات معقدة جدا **وهذا التعقيد ذاته هو فى نفس الوقت ثورة الاشتراكية، أى أن تلك القوةالباطنة التى تتيح لهذهالعمليات أن تتشـابك وتتبادل النقـد ، هى التى تضمن من ثم لحركة التحرر أعظم عنفوان وسرعة ، وهكذا فان أى شيء يخفف من هذه القوة ويميل بها الى الرتابة والحلول المفروضة انما يعوق هذه التطورات •**

كتب ماركس فى ١٨ برومير لـويس بونابرت « ان الثورات البروليتارية من الناحية الأخرى دائما ماتنتقد نفسها ، ودائما ماتعترض كل منهـا طريق الأخرى ، ثم تعـود الى ما أنجزته لتبدأه من جديد ، ساخرة فى غير ما رحمة من قصور وضعف وتفاهة محاولتها الاولى » •

ولا شك أنه فى الوقت الراهن تزداد أهمية قضية اختيار طريق وأشكال التطور الاشتراكى ، وبالطبع لا توجد من حيث المبدأ الا اشتراكية واحدة ، ذلك اذا مانظرنا الى الاشتراكية كنوع من النظم الاجتماعية والاقتصادية خلال التاريخ • ولكن الاقطاع والرأسمالية والنظم الاجتماعية الأخرى هى أيضا أنواع محددة بدقة تامة ، ورغم ذلك فان الطـرق والأشكال التى تنشأ وتتطور خلالها تكون شديدة التنوع ، ومن باب أولى فان الأمر نفسه ينطبق على الاشتراكية أيضا ، لأننا نكون هنا ازاء عملية نشوء وتطور مجتمع لاطبقى وبالتالى تكون العملية أكثر تعقيدا •

يضاف الى ذلك أن مشاكل التناقضات بين عالم الاشتراكية وعالم الرأسمالية ستصبح تدريجيا ذات أهمية تاريخية ، ان ادخال تطورات جديدة على العلاقات الاجتماعية الاشتراكية والمشـاكل المتعلقة بهـذه المسألة فسوف تصبح أكثر فأكثر الطريق الحقيقى الذى سيسير عليه عصرنا •

والحق أن من الخطأ أن نقلل اليوم من أهمية هذه التناقضات ، طالما أن قوى الرأسمالية لا تزال لها قيمتها ، ولكن خطأنا سيكون أكبر اذا تصورنا أننا قد قلنا كل شيء يجب أن يقال لمجرد أن وصفنا هـذا البلد أو ذاك بأنه اشتراكى • ان المعركة بعينها تدور على أرض الاشتراكية أيضا وان كانت تختلف فى الاشكال التى تتخذها وكل هذا يوجد فى نفس الوقت فى حالة تشابك مع التناقضات الداخلية للتطور الاشـتراكى ذاته ، وهـو الأمر الذى يسـمح بالدقة فى المرحلة الانتقـالية ، بظهور

اتجاهات السيطرة والانانية القومية والاستئثار البيرقراطى بالسلطة وهلم جرا .

وغنى عن البيان أن التناقضات بين عالم الاشتراكية وعالم الرأسمالية لابد وأن تكتسب طابع التغلب التدريجي على مخلفات العالم القديم وذلك على أساس الحقبة التى تتوفر لكل عملية طبيعية . ومن ميزاتها العملية التدعيم الاقتصادى للاشتراكية وسيتحقق هذا التطور خلال عمليات داخلية سياسية واجتماعية متعددة سواء فى البلاد الرأسمالية أو الاشتراكية ، وبعبارة أخرى ، خلال عمليات تتضاعف سرعتها نتيجة لتأثير الدور الدولى للاشتراكية الذى يتجلى فى الاشكال المختلفة للتعاون ، وتقسيم العمل بين الامم ، وأيضا فى كافة أشكال التأثير بوساطة المثل والخبرة .

ان أقصى حد ممكن من الحرية في اختيار طرق وأشكال التطور الاشتراكى على أساس النظرية الاشتراكية العلمية والخبرة العملية للاشتراكية هو الشرط الاول والأهم للسلامة وسرعة تطور الاشتراكية كنظام عالمى . وهو فى الوقت نفسه الشرط الاول والأهم الذى يتيح القضاء على الاتجاهات المخافظة التى تصحب كل استئثار بالسلطة سواء فى النظام السياسى لبلد اشتراكى أو فى أى نظام اجتماعى آخر . وهذا هو مايؤدى اليه مجرد التنوع فى العوامل الموضوعية والبشرية والذى يجعل الاشكال والمسارات الواقعية المحددة للاشتراكية بهذا التعدد الكبير ، وذلك التباين فى نقطة البداية للتطور الاشتراكى فى البلاد المختلفة ، مما يؤدى الى تنوع عظيم فى الاشكال ، ودرجة الترابط ، بين عناصر القديم والجديد كما تؤدى اليه أخيرا الضرورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لكل بلد يريد أن يطور بغير انقطاع العلاقات الاشتراكية ، مستهدفا وحدة الطبقة العاملة والشعب ، وهى ضرورة ليست لها ارتباط بنقطة انطلاقه المادية . وهذا بالدقة هو ما يجعل مشكلة الاختيار بين طريق يقوم على التعايش ، وآخر يقوم على حتمية الحرب ذات أهمية عظمى لكافة القوى الاشتراكية فى العالم : ان أية سياسة تحتوى من حيث نتائجها النهائية على أى أساس من أسس البونابرتية لهى سياسة ضارة ، ليس فقط من زاوية ما يمكن أن تثيره من رد فعل فى البلاد غير اشتراكية ، الأمر الذى ناقشناه فيما سبق ، وانما أيضا وفوق كل شيء من زاوية تطور الاشتراكية . فهذه السياسة ذاتها ستكون انعكاسا لتشوبهات محددة فى التطور الاشتراكى لأى بلد تظهر فيه هذه الاتجاهات ، بل ان هذه السياسة ماتلبث عند ظهورها

أن تلعب دورها الخاص المستقل فى زيادة تعميق هذه التشويهات فى النظام الاشتراكى العالمى .

أما وقد اظهرت التجربة من قبل كيف يمكن أن يتنوع التطبيق الاشتراكى ، فاننا مواجهون هنا أساسا ، بسؤال : ما هو جوهر ذلك المفهوم عن الاشتراكية الذى يمكن لأناس بوساطته تنفيذ سياسة غزو العالم عن طريق الحرب من أجل الاشتراكية ؟ وسؤال آخر : هل تستطيع هذه الاشتراكية موضوعيا ، وهى اشتراكية تفرضها الحرب فى أشكال لا تتفق مع البناء الاقتصادى الاجتماعى الفعلى للبلد ـ أن تلعب دورا تقدميا على الاطلاق ؟ الا تؤدى الاشتراكية هنا الى اعاقة تطور قوى الانتاج ؟ ذلك أن هذا العامل الأخير هو الذى يحدد تقدمية أو عدم تقدمية أى نظام اجتماعى ، بما فى ذلك النظام الاشتراكى .

واذا مانظرنا الى الاشتراكية ، لا كنموذج اجتماعى كامل ، وانما كعملية تحول تدريجى للعلاقات الاجتماعية فى تناسق مع التطور ، ومع الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ، فسنرى عندئذ أن التناقض الذى يميز العالم اليوم لا يقوم بين اشتراكية مجردة هى خير مطلق ، ورأسمالية مجردة هى شر مطلق ، وانما بين نظام اشتراكى محدد فى **عملية تكوين** ونظام رأسمالى محدد فى **عملية انهيار** . وبالتالى ، فان أى محلل ماركسى موضوعى يريد أن يقدر الحالة الفعلية للسياسة الدولية فى عصرنا والمهام الموضوعية التى تواجهها ، لن يضع فى اعتباره الطبيعة النوعية للتناقض فقط بل سيضع فى اعتباره أيضا مظاهرها الكمية ، أى قسماتها النسبية الانتقالية ، الخاضعة للتغير والتى تؤدى بتغييرها الى أحداث قفزة « ثورية حاسمة » أماالاشكال التى ستتخذها هذه القفزة ، فهذا أمر يتوقف على البناء الاجتماعى الداخلى للبلد المحدد ، أو بعبارة أدق ، على حالة « العلاقات الكمية » القائمة فى لحظة أى تحول ثورى .

كتب ماركس يقول أن مهمة الثورة البروليتارية ليست تحقيق نوع من المثل الأعلى المرسوم من قبل « وانما مهمتها الوحيدة هى تحرير تلك العناصر الخاصة بالمجتمع الجديد والتى تكون قد تكونت بشكل جنينى فى أحشاء المجتمع القديم . واذا نظرنا الى الأشياء من الزاوية التى يتحدث عنها ماركس ، وليس من أى زاوية أخرى ، فسنرى بجلاء أن عناصر كثيرة من الجديد تنضج بالفعل داخل « القديم .. » وهنا نواجه أساسا سلسلة من الأبنية الواقعية المادية ، والاجتماعية ـ الاقتصادية ، التى تتجه بشكل متزايد الى مضاعفة حدة التناقضات

الداخلية للرأسمالية ، والى ابراز ضرورة الاشتراكية كمخرج من الازمة العامة للمجتمع البشرى .

وأحد هذه العوامل ، هو على سبيل المثال الطابع الاجتماعى للانتاج الذى تتجلى قوته باستمرار وبشكل متزايد . ففى ايام ماركس لم يكن أثر هذه القسمة يبدو خارج الورشة الرأسمالية الفردية . ومع ذلك استطاع ماركس فى ذلك الوقت أن يكتشف فى ظاهرة الشركات المساهمة والمصالح الرأسمالية الضخمة التى أخذت تتجه الى مزيد من التعقيدات الواسعة فى الانتاج ، دليلا على الأثر القوى المتزايد للطابع الاجتماعى للعمل فى عصرنا . وقد سارت كافة هذه العمليات خطوات جديدة الى الأمام فى العقود الأخيرة . فرغم أن الملكية الرأسمالية لاتزال قائمة ، الا أن نتائج الطابع الاجتماعى للعمل تؤدى اكثر فأكثر الى ظهور نظام كامل من التكامل الاجتماعى والاتجاه الاجتماعى فى تطور الصناعة. وغنى عن القول أن هذا لا يغير من تلقاء نفسه طبيعة العلاقات الاجتماعية - الاقتصادية الرأسمالية - بل ان هذا التكامل يتحقق بالدقة لصالح استمرار تلك العلاقات ولكنه رغم ذلك برهان مقنع على مدى خضوع القوى الأساسية للعلاقات الرأسمالية لضغط عامل **من العوامل الخارجية بالنسبة لذلك** ومن ثم تتضح مدى السرعة التى تسير بها عملية التحلل الداخلى لهذه العلاقات .

وهناك عامل آخر مشابه ، هو انهيار الامبراطوريات الاستعمارية، وارساء مبدأ الاستقلال الوطنى . فهذا العامل يضيق بشكل ملحوظ من مجال السيطرة الاقتصادية والسياسية للامبريالية ، ويحصر حدود النضال فى سبيل التقسيم الامبريالى للعالم . وفى الوقت نفسه يمارس هذا العامل ضغطا ماديا وسياسيا واقعيا فى سبيل ظهور اشكال جديدة من العلاقات الاقتصادية الدولية وظهور تقسيم دولى للعمل ، وكل هذا يشكل نتيجة جديدة للطابع الاجتماعى للعمل على النطاق الدولى . وبالطبع لا يؤدى هذا كله من تلقاء نفسه الى اندثار الامبريالية ، فضلا عن العلاقات الرأسمالية ، ولكنه يبين الى أى مدى اهتز الأساس المادى للامبريالية . كما يؤكد ان الهزات التى اصابت هذا الاساس لن تتوقف فى المستقبل ويمكننا أن نتبين عاملا ثالثا مماثلا فى مجال العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية ، حيث ينتقل مركز النقل بشكل متزايد الى القوى الاشتراكية . ففى هذا الميدان بالذات ، تغيرت القوى الاشتراكية فى العالم تغييرا جوهريا منذ عصر لينين . لقد كان يرى لينين أن قوة الاشتراكية تكمن فى طابعها التقدمى ونفوذها من

الناحية السياسية ، وان ضعفها الأساسي يكمن فى تخلفها الاقتصادى . ولهذا السبب كان يرى أن الاتحاد السوفيتى لن يمارس تأثيره بوساطة قوته الاقتصادية • وانما بوساطة نفوذه السياسى وثورته الظافرة اللذين سيكون من شأنهما أن يغلا أيدى قوى الامبريالية والحرب •

أما اليـــوم ، فالموقف مختلف تماما ، فطالما اتبعت الاشـــتراكية طريقا اشتراكيا ثابتـــا فانها ســـوف تمارس نفوذها كقوة سياســـية واقتصادية أيضـــا • لقـــد أصبحت الاشتراكية عاملا اقتصـــاديا قويا ، وستلعب دورا متزايد الأهمية فى التقســـيم الدولى للعـــمل وفى كافة العلاقات الدولية أيضا • بل ان هذا العامل الاقتصادى سيصبح ، وقد بدا يصبح بالفعل ، عاملا سياسيا شديد الاهميـــة بسبب بسيط هو أنه ــ من حيث التأثير فى العمليات الاجتماعية ــ الاقتصادية الداخلية فى العالم اليوم ــ أكثر قدرة من أى دعاية سياسية عامة .

ان أولئك الماركسيين الذين لا يرون هذه الحقائق انما يبرهنون على أنهم ، سواء فى روحهم المحـــافظة الجامدة أو طريقتهم القصيرة النظر فى فهم الأشياء ، قد أصبحوا عاجزين عن القيام بأى تحليل ماركسى للحقائق الواقعية .

واذا ما اضفنا الى ذلك نتائج انهيار الاستعمار الذى ســـبق الحديث عنه ، يكون معنى ذلك أن طبيعـــة **العـــلاقات الدولية ذاتها ــ كما تنشأ من العلاقة الكمية المعينة للقوى الاجتماعية فى العالم ــ لم تعد تتجه الى انعـــاش الرأســـمالية وتقويتها ، بل على العكس الى تضييق الخناق على هذه القوى ، والحد منهـــا ، وعرقلة نموها مما يؤدى الى ازدياد عمق الأزمة الداخلية للرأسمالية** ».

ويمكن أن نورد هنـــا عوامل أخرى مماثلة • فالجميع يعلمون أن عملية تملك الرأسمالية لا تتضح فقط فى الصدام المباشر بين الطبقة العاملة وقادة الاحتكارات الامبريالية والدولية الرأســـمالية ، ولكنها تتضح أيضا فى أكثر أشكال الصدام تنوعا ، حول تكوين جهاز الدولة ، وحول المؤســـسات الديمقراطيـــة ، وحـــول دور الدولة او الاشراف الاجتماعى فى تخطيط اتجاه التطور الصناعى • وتظهر هذه العملية أيضا فى المركز الهام الذى تحتله حركة الطبقة العاملة اليوم ، وفى خلافاتها التى هى انعكاس للظروف الموضوعية المختلفة التى يتطور فيهـــا النضال من أجل سلطة الطبقة العاملة ، ويظهر أيضا فى نضال الطبقة العاملة فى جهاز الدولة وجهاز الصناعة وفى الوضع الذى وصلت اليه الحركات

المعادية للامبريالية والحركات التقدمية الأخرى ، وفى ازدياد تأثير ما يسمى « بالرأى العام » فى حياة المجتمع ، الذى يعتبر الآن الى درجة أكبر بكثير من ذى قبل انعكاسا لمصالح الجزء الأساسى من الشعب ، وهلم جرا ، وبالطبع فان العامل الحاسم هو الطبقة العاملة مع بقية القوى المعادية للامبريالية والقوى التقدمية الأخرى ، التى يجب أن تطلق كل تلك العمليات المادية ، أى أن تحقق أيضا ـ بوساطة القوى الاشتراكية والتقدمية ـ نصرا سياسيا .

وبايجاز ، فان كافة هذه العوامل اذا أخذت مجتمعة ، من شأنها أن تعوق بشكل متزايد الأهداف الجوهرية للامبريالية ، وتضيق الخناق على هذه الأهداف ، وتقلل من امكانيات تحققها ، وبذلك تدفع بالامبريالية الى حالة الازمة ، وتسرع بتحللها الداخلى وتدعم قوى الاشتراكية . أما اقحام سياسة الحرب فى تلك العمليات فسوف يؤدى الى وقفها ويعطى قوة جديدة للامبريالية وكافة القوى الاجتماعية الرجعية ، التى ستظهر فى هذه الظروف كقوى قائدة للدفاع عن الاستقلال الوطنى .

ومن الناحية الأخرى ، فان تطور العلاقات الاجتماعية ذاته فى البلاد الاشتراكية لم يعد يتحدد كلية على أساس التناقض بين الاشتراكية والرأسمالية ، بالمعنى الضيق الذى يمكن أن أسميه « ما قبل الثورة » . فالتناقضات التى تولد وتنبع من تربة التطور الاجتماعى نفسه فى فترة الانتقال ، لم يعد يمكن أن ترتبط بالآثار الظاهرة للنظام القديم . فحتى فى الاشتراكية ، لا يوجد ثمة نهاية للتقدم .

وفى ذهنى ، أساسا ، التناقضات التالية : ـ

١ ـ الضرورة التى تحتم ظهور الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج فى شكل ملكية الدولة . لفترة معينة ـ مما يتولد عنه اتجاه الى الابقاء، على علاقة العمل المأجور بوساطة الدولة .

٢ ـ ضرورة اعتماد القوة الاشتراكية لفترة معينة على قوة الدولة ، وهذا يولد اتجاها نحو اقامة بيروقراطية كما يولد أيضا اتجاها الى التشويهات المرتبطة بجهاز الدولة فى العلاقات الاقتصادية الاجتماعية.

٣ ـ ضرورة أن تكون الدولة هى واسطة العلاقة بين البلاد الاشتراكية مما يتيح الفرصة لظهور اتجاهات نحو الرغبة فى السيطرة على الآخرين والتعصب القومى ، والظواهر المشابهة .

٤ ـ ضرورة أن تتطور الاشتراكية فى العالم فى المراحل الأولى على أساس وجود درجات من التطور متفاوتة للغاية فى التطور الاقتصادى مما يؤدى الى ظهور مطامح لتحقيق نوايا اقتصادية من ناحية ، ومطامح تسوية الخلافات الاقتصادية بالقوة أو الضغط على حساب الآخرين من الناحية الأخرى ٠

٥ ـ ضرورة ان يجرى توزيع منتجات العمل ـ لوقت طويل ـ طبقا للعمل المبذول والكفاءة الفنية ، بل وطبقا لدرجة المسئولية المباشرة فى عملية الانتاج ، وهلم جرا ، مما يؤدى جميعه بل وسيؤدى فى المستقبل ولفترة طويلة نسبيا الى المحافظة ، لاعلى مجرد عدم المساواة فى العلاقات المادية بين الناس ، وانما ايضا على الحاجة الى تدخل الدولة ـ بقدر يزداد أو ينقص ـ فى العلاقات الاقتصادية ، بل ويتجه فى بعض البلاد الى المحافظة على بعض القسمات المميزة للعلاقات الخاصة برأسمالية الدولة ، وهذا كله يؤدى الى ايجاد اتجاه بيرقراطى للابقاء على هذه العلاقات والاختلافات الاقتصادية ، ولو فى ظروف تجعل التغيير التدريجى للأمور ممكنا ومنطقيا ٠

٦ ـ الضرورة التى تفرض على الثورة ان يتولد عنها الاحتكار السياسى ، ويحاول هذا الاحتكار بالغريزة ان يطيل من عمره ، لا فى مجال الدفاع عن الاشتراكية ضد اعادة الرأسمالية فحسب ، وهو أمر ضرورى فى بلاد كثيرة لزمن طويل ، ولكن ايضا فى مجال العلاقات الاقتصادية والانسانية العادية ٠

٧ ـ ضرورة تطبيق المقاييس العلمية الموضوعية التى وضعتها الماركسية بين أيدى الطبقة العاملة ، عند حل التناقضات الاجتماعية ، وذلك فى مقابل تلك التجريبية السائدة التى تميز النظم الطبقية ، (وهذا لا يعنى بالطبع ان العلم لم يلعب دورا على الاطلاق فى هذه النظم) ، وهذه الضرورة يتولد عنها فى نفس الوقت اتجاه الى تجميد الماركسية وخلق احتكار ايديولوجى لصالح الابقاء على بعض الاشكال والعلاقات الاجتماعية العرضية التى عفى عليها الزمن ٠

وهناك أمثلة أخرى كثيرة يمكن ان نوردها ٠

والنتيجة ، ان التطور الاجتماعى يتم من خلال التناقضات الداخلية الموضوعية للاشتراكية التى يستطيع الناس أن يتحكموا فى بعضها بوعى تتفاوت درجته بينما لا يستطيعون التحكم فى البعض الآخر ، لأن عقليتهم هى نفسها تقع تحت تأثير تلك الاتجاهات الواقعية فى التطور ٠ وانه

لأمر بالغ السخف ان تفترض مسبقا أن الناس بعد الثورة سيصبحون على الفور شطارا ومســتقلين عن العوامل المادية الى درجة تجعل عقليتهم قادرة على ادراك كل التعقيد فى التطورات الاجتماعية والمادية ، وتوجيهها جميعا بدقة علمية كاملة • والأكثر اثارة للسخرية أن نفترض مسبقا أن حكومة هذه الدولة او تلك قد تتمتع لمجرد كونها حكومة بلد اشتراكى ، بموهبة فذة على تقدير الحق المطلق ــ فحتى فى ظل الاشتراكية لابد وان نحكم على سياسة اية حكومة بالنتـــائج الواقعية التى يحققها التقدم فى العلاقات الاجتماعية ، فبهذه الانجازات فقط يمكن أن نجد دليلا أيضا على مدى قدرة أى حكومة فى الواقع على اكتشاف الاساس الخلاق فى العلم •

ان أولئك الماركسيين الذين يظنون ان كلمات انجلز حول الانتقال من أرض الضرورة الى أرض الحرية ، تتحقق غداة الثورة ، انمـا يحملون مفهوما خاطئا وجامدا للغـاية ، ويصبغون حالة سـكون (ستاتيكى) على ماكان يعنيه انجلز • ان الذى يهتم بروح الماركسية لا بنصوصها ، ليدرك أن كلمات انجلز هنا يجب أن تؤخذ على أنها مجرد عبارة تعكس عملية • ولا أكثر من ذلك ، وبكلمات أخرى ، فان الماركسية ، والتطور اللاحق لعلم الاشتراكيه ، قد أعدت القـــوى الاشتراكية الواعية للقيام بحل التناقضات حلا واعيا ، ولكنها حتى الآن لم تهب لهذه القوى موهبة « الحكمة المطلقة» التى قد تمكنها من فهم كافة التطورات الاجتماعية وتوجيهها تماما أو تجعلها قادرة على الارتفاع بشكل مطلق فوق هذه التطورات ، حاصلة بذلك على مستوى من الحكمة يفوق المستوى الطبيعى • وهكذا يتضح لنا كوضوح النهار ، ان الاشتراكية ستحتفظ دائما بمتناقضات ، تستمر فى الظهور بوصفها نتاجا للضغط المباشر الذى تمارسه الحقائق الموضوعية على الوعى الاجتماعى •

وبالطبع لا تتخذ المتناقضات من هذا النوع حتما شـــكل الصراع الطبقى ، ولا تحل حتما بوساطة الصدام بينها وبين نقائضها ، ومع ذلك فانها لا تحل أيضا بأى خطة أو سياسة مثالية تضعها الحكومة ، وانما تحل أولا وأساسا من خلال اصطدام المصالح الشخصية والصراع بين الافكار • وفى ظل هذه الظروف نجد ان الروح المحافظة ، كقوة مادية وايديولوجية ، انما هى ظاهرة يحكمها قانون ، شأنها شـأن تلك الظاهرة الأخرى التى لا يمكن اعاقتها ، والتى تتجسد فى مولد لا يمكن الوقوف دونه لاتجاهات تهدف الى تطور اسرع للاساس المادى ، ولاشكال اكثر تقدما للعلاقات الاجتماعية • وفى الوقت الراهن ، كثيرا ما يحدث ان تتعقد هذه العمليات بسبب ما يصيب هذه التناقضات ، ألتى يمكن حلها والتى يجب ان تحل

بطريقة ديمقراطية متطورة ، من أثر المخلفات السياسية للقوى الاجتماعية القديمة وايديولوجيتها المتصلة مباشرة بعالم الرأسمالية • ان ضغط هذه التأثيرات يعمل على تعطيل التطور ، وخصوصا عن طريق خلق الحاجة الى تأسيس دولة اشتراكية ، تأسيسا تتفاوت درجته ، كوسيلة للتحكم فى العلاقات الاجتماعية بالقوة • وفى هذه العملية يمكن ان تكتسب بعض التناقضات طابع الصدام الحقيقى • ومع ذلك لا يجب أن تخفى عنا هذه الظاهرة ، ان هذه التناقضات توجد وتعمل داخل العلاقات الاشتراكية لفترة الانتقال ، بل وبشكل مستقل عن أى ضغط نابع من مخلفات المجتمع القديم ، سواء عظم هذا الضغط ام ضؤل •

ومن الواضح تماما أن كافة هذه العمليات يمكن أن تقل الآلام المرتبطة بنموها وأن تتطور بشكل أكثر ديمقراطية وبالتالى بأقصى سرعة طبقا للمستوى الذى تكون عليه • وكل أمة حرة فى أن تختار بشكل مستقل طرق تطورها الاشتراكى واشكاله • ان الخبرة المتعلقة بممارسة التطور الاشتراكى فى مجموعه ، والتحليل الموضوعى لها ، سيكون من أقوى الحوافز الايديولوجية التى تدفع بالبلد الاشتراكى فى طريق تقدم العلاقات الاجتماعية •

ان اتساع رقعة الاشتراكية فى العالم لن يتم — بالتأكيد — ولا يمكن أن يتم بأية عملية نقل ميكانيكى لاشكال تلك العلاقات الاشتراكية التى قامت أو تقوم اليوم فى البلاد الاشتراكية ، وانما بمولد أشكال تفوق تلك التى وجدت من قبلها بشرط أن يتوفر الاساس لهذا التقدم • وهذا يعنى ، من الناحية الأخرى ، ان الاشتراكية ستواصل شق طريقها فى البلاد الرأسمالية بأكثر الطرق تنوعا ، وبأكثر الاشكال تنوعا ، مما يؤدى لا الى توسيع نطاق الاشتراكية فحسب ، بل يكون له أيضا فى نفس الوقت أثره فى زيادة تقدم الاشكال الاجتماعية داخل البلدان الاشتراكية القائمة •

ان حربا تهدف بها البلاد الاشتراكية الى فرض الاشتراكية على البلاد الأخرى بالقوة ستؤدى بلا جدال الى فرض سيطرة سياسة محددة واحتكار ايديولوجى ، لفترة معينة ، على البلاد الاشتراكية ، وعلى تطور الاشتراكية فى العالم •

ومن الواضح لهذا السبب ، ان حربا كهذه ستكون عاملا رجعيا ، وبالذات من وجهة نظر التطور الاجتماعى •

وبالتالى لا توجد ثمة حرب تقدمية وعادلة غير الحرب الدفاعية من قبل العالم الاشـــتراكى ضـــد العدوان وغير حروب التحرير والحروب الثورية الداخلية .

ولهذا السـبب بالضبط فلا يمكن لأى بلد اشـتراكى أن يسـمح فى سياسته الدولية ، بأى غموض أو تردد بالنســـبة لموقفه من القضـية الأساسية للبشرية فى عصرنا هذا ، قضية السلام أو الحرب ، التى تعنى اليوم بشكل أساسى الخيار بين طريق يقوم على التعايش وآخر يقوم على حتمية الحرب .

الفصل الثالث عشر

حول العلاقات بين البلاد الاشتراكية

ان مشكلة فرض الاشتراكية بالقوة من الخارج هى فى الوقت نفسه مشكلة العلاقات بين البلاد الاشتراكية • فمن الناحية المبدئية ، لو أمكن فرض الاشتراكية على بلد غير اشتراكى ،فمن الممكن أيضا فرض هذا أو ذاك من أشكال التطور الداخلى أو هـذه أو تلك السياسة الداخلية أو الخارجية على البلد الاشتراكى • ان الحملة الصينية ضد يوغوسلافيا هى شكل من أشكال الضغط فى هذا الاتجاه •

وفى مثل هذه الظروف يبرز سـؤال عن المبـادىء التى يتخيل « المنظرون » الصينيون انه يجب اقامة العلاقات بين البلاد الاشتراكية على أساسها • **فمن الواضح انهم يستبدلون المبادىء الديمقراطية فى التعاون والوحدة على أساس من الحقوق المتساوية بمبدأ آخر** هو سيادة أمم معينة • ولكن هذا لا يعنى فقط فتح البـاب لكافة أنواع اتجاهات الدولة الكبرى فى العلاقات بين البلاد الاشتراكية ، وانما يعنى ايضا اثارة الاشتباكات بين الأمم • وأخيرا فان هـذه العلاقات لن تقود الا الى العودة المشئومة لبعض أساليب السياسة الاستعمارية ، الى العالم الاشتراكى •

وأحب أن أعطى مثلين عن النتائج العملية لنظريات المنظرين الصينيين الذين نناقش آراءهم •

المثل الأول يتعلق بالتطور الاجتماعى ــ الاقتصـادى الداخلى فى الصين اليوم ، وقبـل كل شىء نظام « كوميونات الشعب » « فالمنظرون » الصينيون ــ كما يبدو من تصريحاتهم ــ يعتبرون هذه الكوميونات من أكثر الاشـكال تقـدما ، ان لم تكن أكثرها على الاطلاق ــ فى تطور الاشتراكية فى العالم ، ويوصون الآخرين بتبنيها •

ويقول « المنظرون » الصينيون عن أهميـة هذه الكوميونات : ان الهدف الأساسى من تأسيس كوميونات الشعب هو الاسراع بمعدل البناء الاشتراكى ، بينما يكون هدف تحقيق الاشتراكية هو الاعداد النشـط للانتقال الى الشـيوعية ، ويبدو أن تحقيق الشيوعية فى الصـين ليس مسألة تمت الى المستقبل البعيد • فيجب أن نستخدم بنشاط ــ شكل الكوميونات لبحث الامكانيات العملية للانتقال الى الشيوعية (١) ويقولون فى مكان آخر :

« رغم أن شكل الملكية فى كوميونات الشعب هو أساسا وحتى الآن الملكية الجماعية ، التى يغلب عليها الطابع الاشتراكى ، فان الكوميونات

---

(١) قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى ١٦ سبتمبر ١٩٥٨ •

تحتوى بالفعل على عناصر الملكية القومية العامة التى ستتطور بلا توقف ، ولسوف تتغير الملكية الجماعية بشكل كامل فى مدة تتراوح بين ثلاث وأربع سنوات أو خمس أو ست سنوات • ان كوميون الشــعب لازال حتى الآن ذا طابع اشتراكى ، ولكنه سيصبح أفضل الاشكال التنظيمية لبناء الاشتراكية والانتقال التدريجى الى الشيوعية • ولهذا السبب فان اقامة الكوميونات يمثل حدثا ذا أهمية تاريخية عظمى (١) •

ان هذه التأكيدات لهى فى الواقع أمثلة كلاسيكية على التفكير الذاتى فكل ماتعكسه هو الاعتقاد بأنه من الممكن بناء الشيوعية ببساطة عن طريق اقامة أشكال سياسية جديدة بشكل مستقل تماما عن تطور قوى الانتاج •

والحقيقة أن هذه الكوميونات هى الانعكاس السياسى لجهود تحددها ظروف سياسية مؤقتة وانتقالية فى بلد ثورى ينقصه التطور الكافى لخلق الأسس الاقتصادية للتطور الاشتراكى وبعبارة أخرى ، انها لا تمثل قيام الاشراكية على الاطلاق ولكنها مجرد اعداد مادى لبناء الاشتراكية •

ان الفقرات التالية من مقالات الكتاب الصينيين ، تعبر بوضوح عن جوهر الكوميونات ؟ •

« ان تنظيم العمل فى كوميونات الشعب يتم فى شــكل عسكرى ، ان نشاطها كله يجرى بروح النضال ، الحياة تخضع للجماعيـــه ، وهو ما يتفق واحتيــاجات الوضــع الراهن الذى تتحقق فيــه قفزة عظمى الى الأمام » (٢) •

« ان الوجبات المجانية والدخل الشهرى المنتظم فى الوقت نفسه ، لهو حدث ذو مغزى عالمى • فمنذ أن تقدم ماركس بذلك الهدف النبيل ، الشيوعية ، وجد أناس عارضوا هذا الهدف بحجة أن تنفيذ ســياسة تستند الى مبدأ « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجته » سيخلق الكسالى من الناس • ولكن الحقائق أوضحت زيف هذا الزعم • ان تنفيذ نظام من التوزيع يشمل اعطاء الناس جزءا من أجورهم عينا وجزءا آخر نقدا ، ووسائل أخرى تستخدم للشراء ، قد حرر النــاس من قلق البحث عن الطعام والملابس • والآن أصبح اهتمــام الناس الاســاسى مركزا على تحسين عملهم • والعمل على أن يكونوا جديرين بالمجتمع الجديد ، وابراز

(١) المقال الافتتاحى فى جيمنج باو ــ أول سبتمبر سنة ١٩٥٨ بعنوان « عبد كل الشعب ، انتصار كل الشعب » • عن وكالة الصين الجديدة •

(٢) المقال الافتتاحى فى جيمنج باو ــ أول اكتوبر سنة ١٩٥٨ بعنوان « عبد كل الشعب ، انتصار كل الشعب » • عن وكالة الصين الجديدة •

عرفانهم بالجميل للحزب الشيوعي والرئيس ماوتسى تونج · ولم يصبح الناس كسالى · بل على العكس ، اصبحوا أكثر جدية فى عملهم وآخذوا يعملون بقدر أعظم من الحماس والحرارة · ويبدو أنه مع التطبيق التدريجى للنظام الاقتصادى الشيوعي يتفاعل كل من الوعى الشيوعى وأخلاقيات الشعب (١) ·

وأكدت صحيفة جيمنج باو فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٥٨ : « أن الأجر الذى يحدد وفقا للعمل المبذول هو من بقايا البرجوازية فهذا المبدأ يتناقض مع تطوير القوى الانتاجية · والحق أنه يشجع الاهتمام المادى ، ولكنه لا يساهم فى رفع مستوى الوعى الشيوعى » ·

وأنا أورد هنا مقتطفات تعود الى فترة مبكرة نوعا ما ، رغم أنه قد حدث منذ ذلك الحين بعض التراجع عن هذه الآراء · ولكن هذا يؤكد ماذهبنا اليه من أن الشيوعية لا يمكن اقامتها بالاجراءات السياسية وحدها ولكن عن طريق واحد فقط هو التطور المتوازن لكافة العوامل المادية والايديولوجية والثقافية والسياسية التى تشكل أساس المجتمع ·

ونحن لا نملك البيانات التى تسمح لنا بتقييم شامل للكوميونات الصينية وتناول جوانبها الحسنة وجوانبها السيئة ، ولسنا نرغب فى التعرض لتلك المسائل التى سيقررها التطبيق الصينى وحده ، ولكن هناك شيئا واحدا مؤكدا ، وهو أن الكوميونات الصينية الحالية لا تقدم لنا – بأى حال – شكلا من أشكال البناء الاشتراكى من الجاذبية بحيث يحتمل معه أن يملأ الجماهير العاملة فى البلاد الأخرى بالحماس من أجل الاشتراكية ·

والواضح أن فكرة التوزيع الشيوعى عند « المنظرين » الصينيين لا تتعدى الأجور النوعية · وهم فضلا عن ذلك يفسرون فكرة ماركس حول أن « وفرة السلع » أمر ضرورى لاجراء التوزيع الشيوعى ، يفسرونها بأنها لا تتعدى مطالبة أجهزة الدولة بأن تقرر الكمية التى يحتاجها كل انسان ، بينما أن ماركس عندما تحدث عن « وفرة السلع » كان يعنى تلك المرحلة من انتاجية العمل العالية التى ستنخفض فيها تكاليف الانتاج الى حد ييسر التوزيع المجانى الحر حسب الاحتياجات ، لا التوزيع من قبل الدولة ، ويضاف الى ذلك أن ماركس لم يكن يفضل الأجور النوعية على الأجور النقدية · فكل ماهنالك أنه افترض مسبقا أن النقود

(١) مقال لنائب رئيس مجلس الدولة « لى كسين نين » بعنوان « ماذا رأيت فى كوميونات الشعب » ونشر فى بكين ريفيو ١٦ نوفمبر ١٩٥٨ ·

ستختفى من دولة الشيوعية ، وهذا أمر يتعلق اذا ماطرحنا العوامل الأخرى جانبا ، **بالتوزيع المجانى وفقا للاحتياجات** • واذن لا يمكن أن يساهم نظام المدفوعات العينية فى ذاته ولا المساواة الموجهة بوساطة توزيع الدولة بأى حال من الأحوال ، فى احداث تطور أسرع الى الشيوعية ، بل الأرجح أنهما سيعرقلان بالفعل من هذه العملية ، وذلك عن طريق تعطيل نمو قوى الانتاج وانتاجية العمل ، وهنا لا يصبح الحديث عن « الوعى الاشتراكى » بشكل مجرد منفصل عن الأسس المادية والمحركات الأساسية الا صراخا سوقيا وندبا مثاليا عقيما •

وبالطبع ، فان الكوميونات الصينية باعتبارها تصفية كاملة للحساب مع كافة أشكال علاقات الملكية الخاصة ، واذا مانظرنا اليها من زاوية التطور الطويل الأمد ، يمكنها أن تلعب دورا مفيدا للغاية من الناحية السياسية • ولكن هذا يتوقف على التطور المقبل للعلاقات الاقتصادية فيها • وعلى أية حال فان الكوميونات الصينية فى الشكل الذى تتخذه اليوم هى نوع من « شيوعية الحرب » وهى بهذا الشكل ليست ظاهرة جديدة على الاطلاق ، رغم أنها قد تكون خطوة الى الامام بالنسبة للصين• ولا يمكن أن تكون حافزا للغير فى النضال من أجل الاشتراكية • ان هذه الكوميونات وأى علاقة سياسية واجتماعية مماثلة لا يمكن أن تنشأ فى البلاد الا فى ظروف خاصة تماما ـ فأولا ، مرت الصين بحرب أهلية طويلة جدا ، وحرب مع معتد امبريالى ، ونتيجة لهذه الحروب وصل الشعب الى حالة من الفقر المدقع ، وتكونت لديه حصانة تسمح له بتحمل أقصى التضحيات فى سبيل انتصار الثورة • وبالاضافة الى ذلك ، تتميز الصين بانتاج زراعى يعتمد على الملكية الصغيرة وفقراء الفلاحين وأشباه البروليتاريين من فقراء الريف ، ويمكن أن يكون هذا كله أساسا لشيوعية الحرب التى ستبنى بشكل طبيعى وعلى أقل تقدير على المساواة فى الفقر وعلى التضحية بالذات فى سبيل غد أفضل •

وفى فترة تتميز بالحماس والمثل الثورية العظيمة لا تكون مثل هذه التضحيات ممكنة وضرورية فحسب ، بل انها فى الحقيقة تساعد على السير خطوات عظيمة الى الأمام فى سبيل التغلب على المصاعب التى يثيرها الأساس الاقتصادى المتخلف ، ولقد أوضحت ثورتنا أيضا هذا الأمر فلقد قدم شعبنا طيلة سنين عديدة تضحيات كبيرة عن طواعية • ولكن هذا التجرد الذاتى يتحول مع مرور الزمن الى عكسه • ان الناس لا يتخلون عن السلع المادية وحسب ، بل وعن العمل أيضا ، وهذا الاتجاه يؤدى من ناحية الى تدمير القوى الانتاجية بعرقلة انتاجية العمل،

ويؤدى من الناحية الأخرى ـ وبالتحديد نتيجة للجهود المبذولة لمقاومة هذا الاتجاه ، الى حتمية إتساع تدخل الدولة فى العلاقات الاقتصادية • وبالتالى فان مثل هذه العلاقات لا يمكن أن تستمر طويلا ، فطالما ظل الأساس السياسى لها هو الفلاح الصغير وشبه البروليتارى فى القرية ، فان هذه السياسة يمكن أن تتمخض عن نتائج معينة ، ولكن مع ازدياد قوة الطبقة العاملة تزداد التناقضات المرتبطة بتلك العلاقات ، وتجعل من هذه السياسة أمرا لا يمكن الاستمرار فيه ، وليس صدفة أن سياسة « كوميونات الشعب » « لم تنجح حتى اليوم فى المدن » • رغم القرارات الرسمية •

ويفسر أحد قرارات اللجنـــة المركزية للحزب الشيوعى الصينى فشل فكرة الكوميونات فى المدن هكذا : « ان الايديولوجية البرجوازية لازالت سائدة بين كثير من الرأسماليين والمثقفين فى المدن ، فلازالوا يفتقرون الى الفهم الكافى لمسألة الكوميونات • وسنضطر لأن ننتظرهم قليلا حتى يلحقوا بنا • وبالتالى يجب أن نتمسك باجراء هذه التجربة ، وبشكل عام لا نسرع باقامة الكوميونات فى المدن على نطاق واسع •

« وبوجه خاص يجب أن يؤجل هذا العمل فى المدن الكبيرة ماعدا المدن التى تحتاج الى اجراءات تمهيدية ضرورية • فلا يمكن أن تقام الكوميونات فى المدن على نطـاق واسـع الا عندما نكون قد جمعنا خبرة غنية واقتنع المتشككون والمرتابون » (١) •

وعلى أية حال فان المسألة هنا لا تتعلق بأيديولوجية الرأسمالية والمثقفين وانما بالتحديد بآراء الطبقة العاملة • فالكوميونات الصـينية ليست الا نتاجا لتكوين متحيز تولد من الجمع بين النفوذ القيادى لاحتكار ملكية الدولة والآمال البدائية فى المساواة لدى أشباه البروليتاريين فى الريف ويمكن أن تلعب هذه الظاهرة ، لفترة معينة من التحولات الثورية الاساسية دورا تقدميا وخاصة عندما نتذكر أن خمســة أسداس سكان الصين اليوم يعيشون على الزراعة • وأن أشباه البروليتاريين فى الريف والفلاحين الصغار كانوا القوة الأساسية للثورة • ومع ذلك فان العلاقات الاقتصادية القائمة فى الكوميون لا تتناسب ووجود طبقة عاملة متطورة ، ولهذا السبب ، لابد أن تنشأ فى الصين مقاومة متعاظمة من جانب الطبقة العاملة التى لن تتحمل أى سيطرة بيروقراطية أو مساواة شكلية ، حالما تشعر بقوتها الاقتصادية بل ستطالب بالمعاملة وفقا للعمل المبذول •

---

(١) الصين الجديدة ١٠ ديسمبر سنة ١٩٥٨ •

ومن الواضح أن لى كسين نين ، الذى نقلنا عنه المقتطفات السابقة قد وصل الىاستنتاجات سابقةلأوانها حول مشكلة «الكسل»«والاجتهاد» •

ان الاشتراكية لا يمكن أن تنتصر على الرأسمالية الا عندما تحقق مستوى مرتفعا من انتاجية العمل • ولكن هذا المستوى الانتاجي المرتفع لكي يفوق المستوى الذى تحققه الرأسمالية ، لا يمكن أن تخلقه الا طبقة عاملة تنمو وتعمل فى ظروف من العمل الحر • أى أساسا ، وفى النهاية ، طبقة تحررت من سيطرة المالك وأيضا من ضغط أى قوى اجتماعية أخرى ماعدا المنتج الفردى أو الجماعى •

وهذا الهدف التاريخى ، هدف تحرير العمل ، الذى يستحيل أن يتحقق بين يوم وليلة لا يمكن الوصول اليه فى ظروف المرحلة الانتقالية والقدرة النسبية للسلع الاستهلاكية الا عن طريق عملية التطور المضطرد للتوزيع الاجتماعى القائم على مبدأ « لكل حسب عمله » وفى المرحلة التى مايزال يعجز فيها المجتمع عن توفير كل مايحتاج اليه الفرد ، يكون هذا النوع من التوزيع الاجتماعى هو الحل الذى لا يتفق مع الاحتياجات الاقتصادية فحسب ، أى مع ضرورة وجود حافز مادى على العمل ، ولكن أيضا مع الادراك الانسانى السليم للعدالة • ان الحل هو أن يعطى الناس بمقدار ما يعطونه المجتمع • فأى طريق آخر اذا جعل أساسا لسياسة طويلة الأمد ، لابد وأن يؤدى لا الى تقويض الأسس الاجتماعية الاقتصادية للنضال من أجل انتاجية أعلى للعمل فحسب ، وانما ستكون له أيضا نتائج سياسية خطرة ، وستظهر اصطدامات سياسية بل وعدائية ، وستصاب العلاقات الاجتماعية الاقتصادية ونظام الدولة الاشتراكية وسياستها بتشويهات بالغة •

ولهذا فان القوى الاشتراكية الصينية لابد لها ، هى أيضا ، ان عاجلا أو آجلا اذا أرادت أن تتغلب على الميل الى الركود فى تطور قوى الانتاج وانتاجية العمل ، من أن تنتقل الى علاقات اقتصادية أكثر تطورا تقوم على مبدأ التوزيع حسب مقدار العمل المبذول • ومع ذلك ، مازال ينطبع فى ذهننا أن بعض الشيوعيين الصينيين يعتبرون فضائلهم ضعفا وضعفهم فضيلة •

واذا كان هذا هو الوضع القائم فى الصين فيمكن اذن أن نصور النتائج السلبية التى ستحدث لو حاول أحد أن يفرض الاشكال السياسية الداخلية والاشكال الاجتماعية الاقتصادية ••• القائمة فى الصين أو أى بلد آخر ، على البلاد الأخرى ، وخاصة البلاد الأكثر تقدما حتى ولو كان

بلدا رأسماليا • والواضح أن فرض مثل هذه الأشكال سيؤدى الى تجميد الأسس المادية للمجتمع يصحبه تدهور فى انتاجية العمل واصطدامات سياسية خطيرة •

وعلى أية حال فان الأمر لا يتعلق فقط بعلاقات اجتماعية كتلك القائمة فى الكوميونات الصينية ، فلسوف نحصل على نفس النتيجة بدرجة تزيد أو تقل لو حاول أحد ـ مثلا ـ أن ينقل بشكل آلى الاشكال التى انبثقت فى ثورة أكتوبر أو ثورتنا الى مكان آخر ، فكل من الثورتين الروسية واليوغوسلافية قد قامت فى بلدين كانا متخلفين نسبيا من الناحية الاقتصادية ، فى بلدين سادت فيهما ديكتاتورية الرجعية وخنق كل مظهر للأفكار الديمقراطية • ان النقل الميكانيكى لتجربة هاتين الثورتين وأشكالهما ـ حتى اذا افترضنا خلوهما من الأخطاء ، وهو مايجافى الواقع ، الى أى بلد أكثر تقدما له تقاليد ديمقراطية ذات أسس راسخة نسبيا ، قد يؤدى الى عزل القوى الثورية عزلا كاملا عن الشعب•

وباختصار فان الاشتراكية لا تنتشر بمجرد تكرار الأشكال القائمة أو توسيعها ولكن بالخلق المستمر لأشكال جديدة واستكمالها ، مما يؤثر فى الاشكال القديمة ويثريها ، ويدفعها بذلك ، الى تحقيق تقدم جديد فى طريق الاشتراكية • **ان أى شىء يعوق هذه العملية • أى جسم غريب يلقى به فى غمار العملية ـ ونعنى هنا أساسا أى شكل من أشكال الاحتكار السياسى والايديولوجى أو السيطرة السياسية أو الايديولوجية ليمثل خللا مؤقتا ، وعنصرا معوقا وهو انعكاس للصعوبات والتشويهات التى تحدث خلال عملية التغلب على المتناقضات الخاصة بالحركة الداخلية للمجتمع الاشتراكى ولهذا السبب يحتاج الى تعريضه للنقد المبنى على التجربة ، ذلك الأمر الذى لا يتيسر الا فى ظرف واحد فقط هو التطور الحر للعلاقات الاشتراكية داخل كل بلد على حدة •**

وهذا هو السبب ، فى أننا نحن اليوغوسلافيين ، نعارض باسم الاشتراكية وبصفتنا ثوريين ، فرض الاشتراكية • أو أية أشكال اجتماعية خاصة سواء عن طريق الحرب أو بأى شكل آخر يستند الى القوة أو الى الضغط من الخارج • وستستطيع الاشتراكية أن تمارس « هذا النوع من الضغط » بشكل أكثر فعالية كلما ازدادت قدرتها على أن تتخلى عن الالتجاء الى القوة ، ليس هذا فقط ، بل وأيضا على أن تجعل التجاء الدول الرأسمالية الى القوة أمرا مستحيلا •

ولدينا مثال آخر هو العلاقات بين البلاد الاشتراكية كنواة للعلاقات

المستقبلة بين الأمم فى أنحاء العالم • فلو أصبح « المنظرون » الصينيون هم العامل المتحكم فى السياسة الدولية الأشتراكية ، لكان المصير المحتوم للعلاقات بين البلاد الاشتراكية هو اصابتها بتشويه أساسى ، فالخبرة اليوغوسلافية ترينا أن هذا قد حدث مرة واحدة فى التاريخ ، وبصورة ليست بسيطة ــ فى مرحلة الضغط الستالينى على يوغوسلافيا ــ ولدينا الآن قيادة الحزب الشيوعى الصينى التى تبذل محاولة جديدة لممارسة سياسة الضغط على التطور الاشتراكى الداخلى فى يوغوسلافيا وعلى سياستنا الدولية « وتطويرها » • ولا يبذل « المنظرون » الصينيون مجهودا يذكر للبحث عن الاسباب المتعددة التى تفسر موقفهم هذا من الناحية النظرية أو الايديولوجية •

واليك كيف « يفسرون » جوهر سياسة الشيوعيين اليوغوسلاف :

« ان عصبة الشيوعيين فى يوغوسلافيا قد رفضت أن تشترك فى اجتماع موسكو للأحزاب الشيوعية والعمالية للبلدان الاشتراكية ، أو أن توقع على البيان الصادر عن ذلك الاجتماع • وترجع العصبة ذلك الى أن بيان موسكو تضمن بعض الآراء أو التقييمات التى تتعارض مع موقف عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف ، والتى تعتبرها العصبة خاطئة • وبسبب هذا الموقف حصل اليوغوسلافيون على اعتراف فورى من الامبرياليين الأمريكان • فاستقبل تيتو فى ٨ ديسمبر ١٩٥٧ السفير الأمريكى فى يوغوسلافيا جيمس ريو بلزجر ••• وبعد ذلك مباشرة منحت أمريكا يوغوسلافيا قرضا ضخما •••• الخ » (١) •

ولست أنوى بذكر هذه الفقرة أن أعود الى مناقشة الخلافات فى الرأى حول بيان موسكو وانما هدفى الوحيد هو الاشارة الى الطريقة التى يعالج بها « المنظرون » الصينيون المشاكل الهامة للتطور الاشتراكى فى عصرنا • وهو منبع الخلافات فى الرأى بين يوغوسلافيا والصين •

ان الانتقادات الصينية لسياستنا تؤكد أن يوغوسلافيا بلد رأسمالى ، والسبب ببساطة هو اننا لا نتبنى اشكال التطور الداخلى التى يأخذون بها • وهم يقولون الى جانب هذا أننا « عملاء الامبريالية » لمجرد أننا لا نوافق على بعض جوانب سياستهم الدولية وآرائهم فى العلاقات بين البلاد الاشتراكية ــ ان اختلاف الآراء حول تلك الأمور يستخدم من قبل « المنظرين » الصينيين لتبرير كل أساليب الضغط التى يمارسونها على يوغوسلافيا الاشتراكية •

(١) مقال فى جيمنج باو ، ١٤ يونيو ١٩٥٨ ، عن وكالة الصين الجديدة •

فمنذ ماركس على الأقل ، عرفنا القسمات التى تميز الطابع الاشتراكى لبلد ما ، ولكن « المنظرين » الصينيين وجدوا معادلة أبسط : فالبلد التى لا تدخل رسميا فى المنظمة المعروفه باسم المعسكر الاشتراكى هى — فى رأيهم بلد رأسمالى — وبهذا توضع يوغوسلافيا على الفور مع البلاد التى يمكن لأى امرىء أن يضلل بها من يريد باسم «الاشتراكية»و «الماركسية» — يقول رجال الدعاية الصينية : « يجب أن يشن نضال حتى النهاية ضد المراجعة اليوغوسلافية » فما معنى هذه الكلمات : « حتى النهاية ؟ » • ولا يمكن أن تعنى الا شيئا واحدا : وهو أن البلد الاشتراكى الذى لا يقر وجهات نظر الصينيين ومطالبهم ، يمكن تصفية الحساب معه بالقوة • وهذا بالتأكيد يلقى ضوءا « حتى النهاية » على النظرية الصينية حول الحرب العادلة والحرب غير العادلة •

ياله من منطق رائع حقا ، جدير « بالماركسيين الحقيقيين » • ان مثل هذا المنطق يعنى أن بلدا معينا يكون بلدا اشتراكيا اذا ما قبل وجهات النظر الصينية كاملة بينما يظل رأسماليا اذا لم يفعل ، حتى ولو كانت علاقاتها الاجتماعية الاقتصادية علاقات اشتراكية •

وغنى عن القول أننى لم أخصص كل هذه المساحة لمناقشة موقف الصين من الاشتراكية اليوغوسلافية بدافع من رغبة خاصة لدينا فى الحصول على « اعتراف » أحد باشتراكيتنا • ومع ذلك رأيت من الضرورى أن أشير فى كلمات واضحة لهذه الظاهرة لأنها من الأعراض المميزة للمفاهيم الصينية عن العلاقات بين البلاد الاشتراكية • ويستطيع أى انسان أن يتبين الى أين يؤدى هذا النوع غير المبدئى والبراجماتى (١) الى أى نوع من أنواع الايديولوجيات ، والعلاقات بين البلاد الاشتراكية ، والى أى مدى يمكن أن يتسبب فى تشويهها •

ورغم ذلك فمن السهل للغاية أن ينشأ وضع يجد فيه « المنظرون » الصينيون أنفسهم دون نظريتهم هذه التى تعتبر يوغوسلافيا جزءا من المعسكر الرأسمالى ، لأن تناقضا غريبا حقا يظهر الآن • فيوغوسلافيا ، التى ليست فى المعسكر الاشتراكى تؤيد المفاهيم الأساسية للسياسة الدولية لهذا المعسكر فيما يتعلق بالتعايش السلمى والسلام • ولكن الصين ، العضو فى المعسكر ، تنتقد هذه السياسة • فما هو الوضع الآن بالنسبة للنظريات الصينية حول فكرة المعسكرات ، وكذلك فيما يتعلق بمدى قوة الحجج حول الطبيعة الرأسمالية ليوغوسلافيا ؟ •

(١) البرجماتية هى المذهب العملى النفعى الذى تتميز به السياسة الامريكية — — المترجم

وهنا نرى الى أى مأزق تقود المنظرين تلك العادة البراجماتية الضيقة ، عادة تغطية السياسة الواضحة بنظريات غامضة ·

كتب ما وتسى تونج ذات مرة ما يلى :

« ان أولئك الذين ينصحوننا بتطبيق خبرة الاتحاد السوفييتى كما هى دون تغيير ، ولا يأخذون فى اعتبارهم القسمات المميزة لوضعنا · انما يفترضون فى الحقيقة ضرورة أن نغير حجم أقدامنا لنجعلها صالحة للأحذية القصيرة لنظرية السوفييت وخبرتهم ·

« لقد كان من نتيجة عمل أولئك الجامدين اننا فقدنا كافة أسس الثورة » ·

ويبدو أن القادة الصينيين ينسون اليوم وهم يفرضون مفاهيما معينة علينا وعلى الآخرين ، تلك الكلمات التى قالها ماوتسى تونج ، أو يظنون أنها لا تنطبق الا عليهم ، ولا تسرى على الآخرين · انهم يحاولون اليوم أن يفرضوا علينا تلك الأحذية الضيقة ، وهم غاضبون لأننا نرفضها ·

وفضلا على ذلك ، يبدو أن من ينقدون يوغوسلافيا من الصينيين ،قد نسوا الكلمات التالية التى جاءت فى بيان حكومتهم الشهير فى أول فبراير ١٩٥٦ :

« ان بعض البلاد الاشتراكية لم تتمكن بسبب الاخطاء المشار اليها فى العلاقات بين البلاد الاشتراكية ، من أن تبنى شكلا من الاشتراكية يناسب ، بدرجة أفضل ، ظروفها التاريخية وأوضاعها الخاصة ···· وكثيرا ما يحدث أن تخرق بعض الشخصيات فى البلاد الاشتراكية مبدأ المساواة بين الأمم فى علاقاتها المتبادلة ، تحدوهم الرغبة فى تحقيق وحدة الايديولوجية وأهداف الصراع وطبيعة هذا الخطأ نابع من الشوفينية البرجوازية · وخطأ كهذا ، وخاصة ذلك الذى يمثل فى شوفينية بلد كبير ، يؤدى حتما الى ايقاع ضرر بالغ بتضامن البلاد الاشتراكية وقضيتها المشتركة » ·

أليس هو هذا « الخطأ » بالذات ، الذى يتردى فيه بعض قادة السياسة الصينية اليوم ؟ ·

انهم أحرار فى الا يتفقوا معنا · انهم أحرار فى أن يرفضوا تحمل أى مسئولية عن أعمالنا وسياستنا ، أنهم أحرار فى ألا يؤيدوها عندما

لا يوافقون عليها • بل انهم أحرار فى آن ينقدونا • ولكن هناك شيئين يجب آن يقوموا بهما اذا أرادوا آن يظلوا ماركسيين ونوريين : أولا ، يجب أن ياخذوا فى اعتبارهم آنه برغم كافه الاختلافات فى الرأى فان يوغوسلافيا بلد اشتراكى ، وثانيا : ان من واجبهم هو ان يحللوا بكل جدية جوهر هذه الخلافات • فاذا كانوا لا يقومون بهذا فليس السبب بالتأكيد أنهم لا يملكون معرفة كافيه بالماركسية ، وانما السبب هو أن لديهم آراء مختلفة عن العلاقات بين البلدان الاشتراكية ، وهذه الحقيقه تؤكد أيضا صحة انتقادنا لهذا النوع من النظريات الصينية •

ان السياسة الصينية ، بهذا الموقف ، تخرب بوضوح وبيجاحة بوحدة العالم الاشتراكى ، فبدلا من البحث عن العوامل التى تحقق وحدة البلاد الاشتراكية على أساس المساواة ، نجدها تؤكد الخلافات حتى تصل من خلال النقد الذى تقدمه الى فرض احتكارها السياسى ، فلصالح من يتم هذا ؟ قطعا ليس لصالح الاشتراكية ، لأن الاشتراكية والسيطرة على الآخرين لا يتفقان بالتأكيد •

فلا بد من التخلى عن هذا النقد اليسارى الزائف لسياسة التعايش السلمى ، وكذلك عن الخط السياسى القائم على حتمية الحرب ، ليس فقط بسبب النتائج السياسية المترتبة عليه فى البلاد الرأسمالية والتى تضر بقضية الاشتراكية ، وليس فقط بسبب خطر الدمار الرهيب الذى لابد وأن تحدثه حرب عالمية محتملة ، وانما قبل كل شىء من أجل التطور السليم للاشتراكية فى العالم ، ومن أجل تطور العلاقات بين البلدان الاشتراكية نفسها •

الفصل الرابع عشر

أسباب ونتائج

وكما أكدنا فى البداية ، فان السياسة الصينية ليست مجرد نتيجة « انحراف عن الخط الماركسى » كما أنها ليست مجرد حدث عرضى ، وانما هى النتيجة السياسية الطبيعية لتكوين عالم اليوم وتناقضاته • ولهذا سوف تميل الى الظهور لفترة معينة من الزمن ، وبأشكال مختلفة ، وبدرجات متفاوتة من الشدة ، كاتجاه فى العلاقات السياسية فى وقتنا هذا ، حتى تتغير ، الى درجة معينة على الاقل ، تلك الظروف التى أوجدت هـــذه السياسة • كما وأنه ليس من الصعب تغيير هـذه الظروف أو قهرها • فانه يرجح أن الاشتراكية الصينية سوف تتغلب فعلا ان آجلا أو عاجلا على ما تعانيه من تذبذبات فى سياستها الحالية •

وان الشعب الصينى الذى عانى من الاستغلال الشرس من جانب النظم الاقطاعية المحلية ، ومن الضغط الاستعمارى ، ومن التخلف لمدة طويلة ، قد وجد المخرج من تناقضاته الداخلية ، فى الثـــورة وما تخلقه الاشتراكية من آفاق • ولقد كانت الثورة الصينية احدى الملاحم الثورية فى تاريخ البشرية ، ولكن الحرب الثورية التى دامت خمسة وعشرين عاما ضد القوات المتحدة للرجعيين الصينيين ، وضد الاستعمار العالمى ، ليست مجرد دليل على عمق الثورة ، أو على حدة التناقضات التى جعلت هذه الثورة ضرورية ، ولكنها أيضا دليل على المسئوليات الكبيرة لهذه الثورة تجاه شعب الصين • وقد كان التخلف النسبى للاقتصاد فى الصـين أحد العوامل الاساسية التى جعلت الثورة أمرا لاغنى عنـــه ، ومع ذلك فقد أصبح هذا التخلف يمثل العقبة الرئيسيــة أمــام الاسراع فى التنمية الداخلية ، والمنبع الرئيسى لخطر نشأة القوى الرجعية الداخلية من جديد لتقويض وحدة البلاد ، وان اقرارنا لهذه القضية يطرح مسألة استمرار الثورة ذاتها • ويتوقع الشعب الذى بذل كثيرا من الدماء خلال الثـورة التى دامت طويلا ، وهو على حق فى هذا التوقع ، أن تفتح هذه الثـورة المنتصرة آفاقا جديدة فى هذا المجال بالتحديد •

وفى التقرير حول أعمال الحكومه الذى قدم فى مايو سنة ١٩٥٧ أعلن شواين لاى أن « سرعة بناء البلاد تشـكل أهم مسـألة بين كل المسائل التى واجهتنا منذ انتصار الثورة الاشتراكية » واكثرها الحاحا .

اننا نجد فى هذه الكلمات أوضح تعبير عن جوهر التناقض الداخلى الرئيسى فى عملية تطور المجتمع الصينى •

وان النضال ضد هذه المشاكل لشاق بدرجة لا مثيل لها . وقد تسلمت الصين ولازالت تتسلم كمية من المساعدات الاقتصـــادية من

البلدان الاشتراكيه ، ولكن مهما كبرت هذه المساعدات ومهما اشتملت من مواد، فانها ليست كافية لضمان زيادة سرعة التوسع فى اقتصاديات البلاد التى تعتبر قارة قائمة بذاتها . ولكى يكون التطور الاقتصادى فى الصين طبيعيا فانه فى احتياج الى أن يكون جزءا من الاقتصاد العالمى فى تكامله .

وفى الجانب الآخر ، فان الصين قد تعرضت على الدوام لضغط متواصل من جانب الرأسمالية العالمية ، وعلى الأخص من جانب الولايات المتحدة الامريكية التى تأمل دون جدوى أن يضعف هذا الضغط من الثوره ، ويقوى قوات الثوره المضاده . وحين اثبت التدخل السافر عدم جدواه ، نظم الحصار الاقتصادى ضد الصين وبذلت الجهود لتحقيق العزلة السياسيه الكاملة للبلاد . وقد اغلقت أبواب الأمم المتحدة ومنظمات التعاون العالمى الأخرى فى وجه الصين . وعلاوة على ذلك ، فقد وجه ضد الصين تهديد متواصل عن طريق التأييد المصطنع لنظام الثورة المضادة فى فورموزا ، وعن طريق أقامة قواعد عسكريه حولها ، وأصبح من المستحيل نتيجة لذلك أن تجد الصين مكانا فى التجارة العالميه والتى تجعل التنمية الاقتصاديه الداخليه فى حالة أكثر طبيعيه ، وأصبح من المستحيل أيضا أن تتسلم الصين أى مساعدة ، مهما كانت ، من الاقتصاد العالمى ، كما استهدف هذا الضغط ـ بالاضافة الى ذلك ـ زيادة الاعباء المادية للبلاد .

وقد زادت هذه الحقائق بدرجة كبيره من الشدائد التى واجهها شعب الصين فى مجهوداته للقضاء على التخلف واقامة علاقات اجتماعية جديدة ، وقد كان لهذه الزيادة فى المجهود الضرورى آثارها ، وهى تقوية الشعور بأنه ، بالاعتماد على النفس ، وبأقصى التضحيات من جانب الشعب الصينى ، وبقواته الذاتية فقط ، يمكن أن تتحقق أية نتائج . وقد كان من السهل تماما أن ينشأ مثل هذا الشعور ، مادام أمامنا بلد شاسع يقطنه مئات الملايين من البشر ، كما كان من الطبيعى تماما أن ينمو أيضا الميل نحو الاعتقاد بأن التطويق الذى فرضته الدول الرأسماليه حول الصين ، سواء بالضغط أو بالقوة ، يجب تحطيمه عن طريق الضغط المضاد . واذا اقتضى الامر ـ فعن طريق القوة . وفى مثل هذه الظروف حيث لا يستطيع عدد كبير من الصينيين تكوين وجهة نظر متكاملة عن التطورات الاجتماعيه فى العالم بأسره ، فان سياسة ترتكز على التعايش السلمى لاتبدو لهم بعيدة عن أن تكون سياسة عملية فحسب ، بل أنهم يعتبرون انها تساعد على أبعاد الوضع الذى توجد فيه الصين الآن . أى أنها تعيق التقدم الصينى .

وان الجوهر الكامن فى هذا النوع من الخلاف ليس امرا مفهوما فقط ، بل هو مشروع على طول الخط ، ويجب أن يكون واضحا لأى انسان انه لا يمكن أن يظل بلد كبير مثل الصين محاصرا ومعزولا لمدة طويلة دون أن ينشأ وضع له نتائج خطيرة بالنسبة لكل العالم . فلا يمكن خنق تلك القوى الحيويه التى لا شك فى وجودها . ولن يؤدى هذا الضغط لشىء سوى دفعها لايجاد مخرج آخر غالبا ما يكون مخرجا بدائيا خالصا . وسيحدث هذا على الدوام مادامت الجهود التى تبذلها الصين تتفق مع المصالح الاولية للقسم الاكبر من البشرية اليوم فى آسيا وفى القارات الأخرى ، فى القضاء على التخلف ومناهضة الضغط الخارجى للقوى الاستعماريه التى ظلت تحكم آسيا حتى الامس القريب ، ولم تترك وراءها سوى التخلف والفقر . ولم يفرض على عديد من الشعوب أن تعيش فى هذا التخلف والفقر فحسب ، بل لم يكن لديهم أيضا الطريق والوسائل والآفاق التى تؤدى فى المستقبل القريب الى تحريرهم من كل تلك الظروف . والذى أعنيه هنا هو الدور الذى تلعبه مشكلة البلاد التى لم تنم نموا كافيا ، تلك المشكلة التى أصبحت أكثر حدة وانتشارا على النطاق العالمى . فبعد انهيار الاستعمار والاشكال المماثلة من السيطرة السياسية ، تحاول القوى الاستعماريه أن تضمن سيادتها السياسيه بوسائل من الضغط تهدف الى استغلال اقتصاد بلاد معينه ، ويؤدى هذا الوضع الى تفاقم حدة المشكلة التى تعانيها تلك البلاد . وينشأ عن هذه المشاكل فى كل بلد من هذه البلدان حركات واتجاهات سياسيه متباينة تنحصر كلها فى مطلب الاقتسام العادل للثروه بشكل أو بآخر بين جميع أمم العالم . وربما تناسب هذه المطالب أو لا تناسب بعض الشعوب ، ولكنها على أية حال مطالب واقعية ناتجة عن التناقضات المادية التى تسببت فى تقسيم العالم المعاصر الى دول ناميه ودول غير كاملة النمو . وفى نهاية الامر ، اذا ما عجز قسم كبير من الطبقة العامله — دع جانبنا البرجوازيه ، بل اذا ما عجزت أغلبية الطبقة العامله هنا أو هناك — عن الفهم الكافى لوضع الامم المتخلفة اقتصاديا وكيفية تغلب هذه الامم على الفقر ، فهل من المعقول أن نتوقع ، وان نكون على حق عندما نتوقع أن يفهم العمال والفلاحون فى بلد متخلف اقتصاديا مثل الصين وجهات نظر الامم « الغنيه » ؟ .

وبطبيعة الحال ، فان هذه المسأله فى حد ذاتها ليست هى مشكلة النضال من أجل الاشتراكيه ، ولكنها فى ظل التناقضات العالميه المعقده تصبح مرتبطة بذلك النضال ، واذا اخذنا هذه المشكله فى حد ذاتها

سنجد انها لا تقتصر على العـالم فى مجموعه ، ولكنها أيضا احدى المشاكل التى تظهر داخل البلدان الاشتراكيه . وبهذا الفهم فانها سوف تشكل، ولمدة طويلة من الزمن ، احدى التناقضات الماديه والسياسيه الهامة للغاية فى تطور الاشتراكية ، وفى نفس الوقت يكمن الفرق بين ظروف هذه البلاد فى أنه يمكن معالجة هذه المشكله داخل الاقتصاد الاشتراكى بشـكل أكثر سهولة وأكثر سرعة عن طريق العمـل الواعى للقوى الاشتراكيه ، وبالتغلب على تأثير الانانيه فى هذا الاتجاه أو ذاك ، حتى يمكن معالجتها عن طريق التطور المادى نفسه . وفى الجانب الآخر ، نجد العلاقات الرأسماليه فى أكثر بلاد العالم تطورا على وجه التحديد، تلك العـلاقات التى ينتج عنها حتما توسـع اسـتعمارى سياسى واقتصادى فى كل مكان يستطيع السيطرة عليه • وفى تلك البلدان يوجد ثمة اتجاه يرمى الى زيادة عمق الهوة بين البلدان النامية وغير الناميه. وهنا أيضا يكمن منبع المقاومه الاساسيه التى تبديها القوى الرجعيـه لنظام المساعدات العالمية المنظمة للبلدان غير النامية ، فالقوى الرجعية تقاوم اى شكل من أشكال المساعدة الاقتصادية فيما عدا تلك المساعدة التى تعنى تصدير رأس المال تبعا للظروف المألوفه فى العالم الرأسمالى. ولا تبتعد الدول الرأسماليه عن هذه العملية الا عندما ترغمها علاقات القوى السياسية على ذلك ، وهى علاقات أحيانا ما تكون ـ وخاصـة فى الوضع الجديد لعلاقات القوى الاجتماعيه فى العالم ـ اكثر قوة من المصالح الاقتصادية الراهنة للدول الرأسمالية •

وهذا ما يجب أن تدركه شعوب آسيا وأفريقيا فى نضالها ضد التخلف وضد الاستغلال الاقتصادى لرأس المال الاجنبى ، وتواصـل نضالها من أجل الاستقلال الوطنى . وبالمثل ، فانه لا مفر من أن يرتبط هذا النضال بالكفاح ضد الاستعمار والامبريالية وبالنضـال من أجل الاشتراكية .

والنتيجة هى أن تلك الدوائر الرجعية التى تعتقد أن كل هذه المشاكل يمكن أن تبقى « متجمدة » باتباع سياسة الضغط ، والحصار الاقتصادى ، والعزل السياسى ضد الصين ، قد عجزت عن ادراك انها انما تبذر الرياح ولن تحصد غير الزوابع . وان الهدوء قد اختفى فعلا من آسيا وافريقيا وبدأت العاصفة . واكبر دليل يقنع بهذه الحقيقة هو ان التطورات قد أثبتت أن الانظمة السـياسـية ذات الاشـكال المتنوعة من الديمقراطية الغربية لا يمكن الدفاع عنها فى تلك البلدان .

والآن ، فان المفاهيم الصينية حول سـياسة عالميـة من أجل

الاشتراكية ليست مجرد رد فعل مباشر لمثل تلك المشاكل ، ولكنهـا أيضا عبارة عن موقف غير متماسك من الاشـتراكية ، وعندما أقول أن لدينا رد فعل لموقف غير متماسك ازاء الاشتراكية ، فان ما أعنيـه هو أن مشكلة آسيا وافريقيا وكل البلدان التى تحررت أو تناضـل من أجل التحرر من التخلف وسيطرة الاقتصاد الاجنبى لاتعالج وفقـا لهذه المفاهيم وعلى أنها احدى المشاكل واحدى منابع النضال الثورى من أجل الاشتراكية ، بل على العكس فان كل المصالح التاريخية للاشتراكية خاضعة فى هذا المجال للمصالح الخاصة للدولة الصينية ولأغراضهـا ، أى للمصالح التى تشكلت فى ظل الظروف التى اشرنا اليهـا • وبتعبير آخر نقول ان الصين تريد فرض نفسها كقوة سـياسية على الآخرين ، لا بهدف الدفاع عن السلام والاشتراكية ، بل من اجل التغلب على متاعبها الخاصة والوصول الى أهدافها المادية ، ومن البديهى أن تخلق فى ظل سيادة مثل هذا الاتجاه ، الظروف المادية ، والسياسية التى يخضع فيها تطور الاشتراكية لتشـويهات خطيرة ، وتسـتعيد فى ظله أيضا أكثر الدوائر رجعية فى العالم قوتها وتظهر كمدافعة عن مبـادىء الاسـتقلال الوطنى • والنتيجة هى أن السياسة القائمة على مثل هذه الاتجـاهات لا تؤدى الى هزائم خطيرة للصين فحسب ، بل وللاشتراكية العـالمية فى مجموعها •

وعلى الاقل فانه اثناء نقد الاساليب الضارة وغير الاشتراكية التى تعكسها المشاكل الصينية الداخلية المعقدة على سياسة الصين ، والتى ناقشناها آنفا ، فاننا لم نقلل ولو فى نقطة واحدة من مسئولية البلدان الغربية التى سـاعدت لدرجة كبيرة على خلق الظروف التى أوجدت مثل هذا الخط السياسى . وبالطبع ، فاذا كان من غير الممكن ان تنسب التطورات الداخلية فى الصين كلية لسياسة الولايات المتحدة الامريكية والبلدان الغربية الاخرى مهما كان الامر ، فليس هناك شك فى أن هذا العامل يتحمل الجزء الاعظم من المسئولية عن الوضع الحالى •

ولذلك ، فان المطلوب هو النضال لتحطيم هذا الحصار السياسى وسياسة التفرقة والعزل السياسى والاقتصادى الموجه ضد الصين. ونحن فى حاجة للعمل بجلد من أجل تأكيد جو تخفيف حدة التوتر فى العالم ، الذى أظهر فعلا نتائج طيبة ، ويجب زيادة تدعيمه بالاتفاقات فى مجال نزع السلاح والامن الجماعى . ويجب مواصلة ، النشاط وزيادته فى الكفاح من أجل حركة عالمية منظمة للمسـاعدة ، بهـدف الاسراع بالنمو الاقتصادى فى البلدان غير كاملة النمو . وسوف نقدم

تأييدا أكبر للأمم المناضلة من أجل تحررها من التبعية السياسية والاقتصادية .

والنضال من أجل هذه المطالب ، ومن أجل المبادىء الديمقراطية المشابهة ومن أجل المطالب الخاصة بالعلاقات الدولية هو أحد الاساليب الأساسية لتقديم مساعدة القوى الاشتراكية العالمية لكل الشعوب فى نضالها التحررى ، ولكل قوى التقدم .

وبالطبع ، فانه مادامت الانسانية لم تصبح قادرة على قهر المقاومة التى تبديها الآثار الباقية للاستعمار والامبريالية ولكل أنواع السيطرة، فليس عمليا أن نتوقع ضمان سيادة العلاقات الديمقراطية بين الشعوب. أو نتوقع وجود مساعدة اقتصادية ذات تأثير حقيقى وتركيب ميكانيكى عالمى . ويكمن الحل النهائى لتلك المشكلة فى التوحيد الاقتصادى والسياسى ، من خلال عمليات اجتماعية داخلية ، وعن طريق القوى الفعالة فى جميع أنحاء العالم . ويمكن تحقيق ذلك ، فى نهاية الأمر عندما تسود علاقات اشتراكية أيضا فى العلاقات الاقتصادية بين الامم. ولكن هذا لا يعنى اننا سنقف مكتوفى الايدى لحين وجود مثل هذه العلاقات . وأن النضال الجاد لاحداث أكبر تقدم فى العلاقات الدولية الراهنة ولتقديم مساعدة اقتصادية للبلاد غير النامية هو فى حقيقته ــ وبالتحديد ــ أحد عوامل التطور نحو ذلك الاتجاه . وقد أوضحت التجربة أنه يمكن تحقيق نجاحات معينة فى هذا المجال حتى فى يومنا هــذا ، وتوسيع هذه النجاحات تدريجيا ، على أن يتوارى ذلك مع التقدم الاجتماعى الداخلى فى كل بلد متأخر ومع تدعيم سياسة التعايش . وأيا كان الامر ، فان البلدان الاشتراكية لايمكن أن تحل هذه المشاكل عن طريق الحرب ، لان أسلوب معالجة المشاكل بهذه الطريقة يضع البلدان الاشتراكية فى صراع لا مع البرجوازية فحسب، وانما أيضا مع الطبقة العاملة فى البلدان الاخرى .

وفى استطاعتى الآن تقديم الحجج التى سوف يقدمها النقاد الصينيون لسياسة يوغوسلافيا ، سيقولون اننى الآن ، ومن جديد ، « اصنع وجها جميلا » للامبريالية ناسبا اليها قدرة تبنى علاقات ديمقراطية بين الامم ، وقدرة تبنى مساعدة الدول غير النامية ، حتى لو كانت بينها دول اشتراكية . ولكن انا لا اتناقش هنا حول الامبريالية وصفاتها التى لا يعرفها جيدا الماركسيون فحسب ، بل يعرفها أيضا أصحاب الافكار الديمقراطية من البشر ، وانما أناقش الوضع العالمى الراهن الذى لن يستمر طويلا تحت السيطرة المعلقة للامبريالية .

ولا زالت الامبريالية تلعب دورا هاما فى العالم ، ولكن هذاالعالم يحتوى أيضا على القوى النامية للاشتراكية • وهناك أيضـــا النظرة المعادية للامبريالية لدى الامم التى تحررت من الاستعمار والتى لاحاجة بها للمرور بكل مراحل التطور الرأسمالى لكى تصـــل الى الاشتراكية ، كما أن هناك قوى تقدميـــة واشـــتراكية أخرى خارج اطار الاحزاب الشيوعية بدأت تدرك ضرورة التغييرات الاجتماعية فى العالم الرأسمالى وفى العلاقات الدولية ، ومن الواضـــح أن هـــذه القوى التقدميـــة فى مجموعها ، باعتبارها تشكل عوامل مادية وسياسية ، يمكنها فى ظل جو التعايش السلمى زيادة القدرة على قهر الاتجاهات الرجعية والمضى لاحراز النصر للمبادىء الاشتراكية فى قطاع أو آخر من قطاعات العلاقات الدولية ، وذلك تبعا لدرجة نمو قوة الاشتراكية ، وغنى عن البيان أن العامل الحاسم فى مثل هـــذه العملية هو النضـــال العنيـــد للقوى الاشتراكية والقوى المعادية للامبريالية فى كل البلاد ، مســـتخدمة الوسائل الملائمة لكل من الوقت والظروف فى كل بلد من البلدان •

وأن الوضع الحالى للحركة العمالية الدولية يشكل أحد العوامل التى تؤثر فى مسلك الصين القائم على أساس حتمية الحرب .

فلا يمكن انكار أن الطبقة العـــاملة فى البلدان الغربيـــة لم تبذل التأييد الكافى والفعال لجهود الشعب الصينى العادلة والداعية لانهاء سياسة الضغط الواسعة النطاق ، وسياسة الحصار والعزل المنظمة ضد الصين • والى جانب ذلك ، فان كثـــيرا من الدوائر الاشـــتراكية الديموقراطية التى أعماها عداؤها القصير النظر للشيوعية كانوا من مؤيدى هذه السياسة • كما ان الطبقة العاملة الامريكية لم تتخذ أى خطوات حاسمة لتوضح انها لا تؤيد السياسة الرســـمية فى هـــــذا الخصوص • ولماذا نذهب بعيدا ، ففى البلدان التى كانت فيها الطبقـــة العاملة قوية لم تستطع الاحزاب الشيوعية اظهار قدرتها على القيـــادة الفعالة للطبقة العاملة فى نضال نشط ضد سياسة معاداة الصين .

وقد كان ذلك أحد العوامل التى زادت من اقتناع الصين بأنه يجب عليها الاعتماد كلية على قواتها الذاتية ، وان انتصار الاشتراكية فى الغرب لا يمكن حدوثه الا عن طريق الحرب العالمية •

وبالطبع ــ ان كل ذلك يقدم توضيحا لاســـباب وجهات النظـــر الصينية ، ولكنه لا يقدم تبريرا لها • وان الاوضاع التى عليها الطبقة العاملة فى البلدان الغربية ، والتى وصفتها بأنها لم تظهر الى الوجود من تلقاء نفسها ، ولا عن طريق الصدفة فلهذه الاوضاع مصادرها وأسبابها •

ويتعلق بعضها بالنظام الاقتصادى والاجتماعى الداخلى لتلك البلدان وبترتيب الطبقة العاملة نفسها ، بينما ينعلق البعض الاخر بالعوامل الموضوعية الداخلية والخارجية التى من بينها ــ ونتكلم هنا عن كل الاسباب السياسية الصينية نفسها • ويصعب القول بأن هذه السياسة قد وضعت فى اعتبارها الاستحواذ على قلوب عمال تلك البلدان . بل على العكس ، فان هذه السياسة قد صدمتهم مرارا وقد أزعجت العمال أكثر من ازعاجها للبرجوازية • كما كانت الحملة المعادية ليوغوسلافيا أحد أساليبها غير المفهومة • ولهذا فان سياسة الصين الراهنة لم تمارس على أنها تهدف لاحداث موقف مغاير من جانب الطبقة العاملة ، بل أنها نشطت فى اتجاه يؤدى الى اتخاذ الطبقة العاملة موقفا سلبيا بل أدت أحيانا الى وقوف أقسام صغيرة أو كبيرة من العمال مع البرجوازية فى نفس الاتجاه حول سياسة خارجية موحدة الى حد ما • وبالاضافة الى ذلك فان السياسة الصينية قد دعمت داخل الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية تلك الدوائر التى يحتوى برنامجها « الاشتراكى » على العداء للشيوعية بوجه خاص •

وليس هناك مايدعونا للاعتقاد بأن للطبقة العاملة فى البلدان الغربية مصلحة فى حصار الصين أو الحرب ضدها • ومن جهة أخرى ليس هناك فكر اشتراكى يؤيد فرض الاشتراكية من الخارج وعن طريق الحرب على طبقة عاملة خاضعة لنفوذ الافكار الاصلاحية • بل على العكس • ان كل الشواهد تنطق فى صف السياسة الاشتراكية ، تلك السياسة التى تقنع تماما عمال أى بلد غير اشتراكى وأى ايديولوجية مهما كانت بأن البلاد الاشتراكية لن تفرض أبدا الاشتراكية من الخارج ، ولن تفرض ارادتها على أى انسان عن طريق الحرب أو عن طريق أى شكل من أشكال الضغط • وفى مثل هذه الظروف وحدها تنشط الطبقة العاملة • بغض النظر عن انتمائها الحزبى ــ كطبقة عاملة حقا ، وبهذا يتحول اهتمامها نحو مشاكل التطورات الاجتماعية الداخلية وتساعد قوى السلام بشكل فعال وعندئذ يصبح من الصعب على القوى الرجعية أن تخدع الطبقة العاملة وتجعلها لا تدرك حقيقة الافعال السياسية للرجعية فى النطاق العالمى •

وعلى أية حال ، فبدلا من استخلاص النتائج من كل ذلك • وبدلا من أن يوجه واضعو السياسة الصينية سياستهم نحو اقامة روابط مع الطبقة العاملة ، روابط تستجيب للمصالح المشتركة الجارية ، أى لمتطلبات السلام ، والتعايش السلمى ، والعلاقات الديمقراطية بين الامم ، فان مافعلوه لا زال يحيى بشكل متزايد الاتجاه الانعزالى فى سياستهم • وان خطتهم القائمة على أساس حتمية الحرب وعلى أساس الصدام وجها

لوجه بين الرياح الغربية والشرقية ، والتسلسل الكامل للاحداث والتى توجد من بينها حملة العداء ليوغوسلافيا • كل ذلك يؤدى الى نشأة ضعف الثقة ، ناهيك عن نشأة الخوف في صفوف الطبقة العاملة فى البلدان الاخرى • وبذلك يصبح واضحا أن الصين ليس لديها أى طريق يسهل عليها معالجة عديد من القضايا الحتمية •

وفي نفس الوقت تبنت الدوائر القيادية فى الصين أسلوب التعبئة لقواها الداخلية حتى لو كلف هذا الشعب أشد العناء • وقد بلغت هذه التعبئة من الشمول والشدة درجة جعلت النظام الكلى للاقتصاد الداخلى والعلاقات السياسية خاضعا لها • وقد اتت هذه التعبئة ولا شك بنتائج مادية هامة فى مجالات معينة ، ولكن بما أنها تمثل احدى مراحل تطور الثورة فهى على وشك استنفاد قوتها ، ويحدث ذلك لأن هذا المجهود التاريخى التقدمى يبدأ يتحول في لحظة معينة الى نهاية محتومة لنفسه — مادامت الافكار الجامدة والمحافظة قد فرضته كجوهر دائم للاشتراكية — ولأنه يبدأ يعوق بالتحديد تقدم العلاقات الاقتصادية الاشتراكية فى أكثر قطاعات الانتاج تقدما — لأنه يضع بذرة لتناقض جديد • وهذا التناقض الجديد لا يمكنه مع مرور الزمن الا أن يبدأ فى تقويض تلك المجهودات الثورية وأتكلم هنا واضعا فى ذهنى التناقض بين الادارة المركزية فى الانتاج والتوزيع من جهة ، تلك المركزية التى تنتج عنها حتما البيروقراطية المحافظة واتجاه لتحجر علاقات العمل المأجور الذى تستأجره الدولة ، وبين مطلب العمال من أجل التوزيع طبقا للعمل المبذول من جهة أخرى ، الأمر الذى يتطلب حتما الحاجة الى نظام ملائم لادارة الصناعة يحرر العامل من ضغط علاقات العمل الذى تستأجره الدولة •

وبطبيعة الحال ، فان هذه العملية تحتاج لتطور طويل الى حد ما ، وسوف نكون مثاليين يقتلنا العقم وننسج أحلاما مجردة اذا ماتوقعنا أو رغبنا فى رؤية الحسم لهذا التناقض بين عشية وضحاها عن طريق القرارات الذاتية للقادة الصينيين • ومع ذلك ، فاننا لانواجه مشكلة الحل «النهائى» وانما مشكلة وجود الظروف التى لاتعوق التطور فى اتجاه هذا الحل • وقد أغلقت أو على الأقل ارتبكت بدرجة خطيرة السبل أمام مثل هذا التطور ، وذلك بسبب السياسة التى ناقشناها آنفا ، ولذلك فانه ليس أمام التناقضات الا أن تنمو الى أسوأ أو تميل نحو اظهار انحرافات معينة فى كلتا الناحيتين السياسية والاقتصادية • وان أول رد فعل لمثل هذا الوضع هو ولا شك اضعاف البواعث الشخصية لتحسين انتاجية العمل الأمر الذى يستوجب الزيادة فى تطبيق المراقبة الادارية مما يؤدى مباشرة

لكل أنواع الانحرافات البيروقراطية فى التطور الاشتراكى • وينشأ عن هذا الوضع احتكار للادارة المركزية فى الوقت الذى تتناقض فيه القوى الاقتصادية ، وتحت تأثير التناقضات الداخلية تقوم الادارة المركزية على أساس سلطة سياسية قوية ربما تقع ضحية الوهم بأنه يمكن معالجة وحل هذه المشاكل عن طريق هذه السياسة وحدها ، ولكن الحقيقة هى أنه لا يمكن حل هذه المشاكل الا عن طريق التطور المادى •

وبما أن تلك الجهود غير عملية فان كل خطوة نحو التقدم المادى تجد تعبيرا لها فى زيادة المجهودات وفى زيادات التضحيات من جانب الشعب • وقد أوجد المفكرون الصينيون ، دون داع أو فائدة ، نظرية كاملة لتبرير مثل هذه التضحيات ، وبمعنى آخر ، لتبرير تعبئة جماهير الشعب من أجل هذه التضحيات • كما أعلن أن النزعة الانسانية ماهى الا نفاق برجوازى صغير ، وادين التطلع الى « السعادة الشخصية » باعتبارها فردية معادية للاشتراكية ،ـ وصورت الاتجاهات الديموقراطية على أنها أهواء سوقية تدعو الى السخرية ، وقد هوجم النقد الموجه الى تسلط الدولة البيروقراطية على أنه مراجعة من أحقر الانواع •

ولسنا فى حاجة الى القول بأن اتجاهات ايديولوجية من هذا النوع لا يمكن الا أن تجد لها مزيدا من التعبير فى السياسة الصينية الدولية • ومن المؤكد أنه لا يمكن الدعوة الى مثل هذه التضحيات الفادحة كما لا يمكن تبريرها مالم يكن الامر متعلقا لابيرنامج من أجل مستقبل باهر فحسب ، ولكن أيضا بمشاكل الاستقلال الوطنى وبمكانة محددة للامة الصينية فى العلاقات الدولية ، وهى مكانة من حق الصين ان تحتلها ولكن الولايات المتحدة الامريكية والدول الرأسمالية الأخرى تنكر عليها هذا الحق ــ ومن ثم فان سياسة الحرب الباردة وسياسة اخافة الشعب بتهديده بالحرب لاتعوق جهود الصينيين فى الجبهة الداخلية على الاطلاق وانما تجعل الشعب الصينى يتحمل هذه المجهودات بسهولة •

ولدينا ولا شك بعض المصادر والاسباب الاساسية للانقياد الصينى نحو سياسة الحرب الباردة • وهناك بالطبع أسباب ومصادر أخرى ولكن لا توجد هناك حاجة للدخول فى تحليل العوامل التى لاتتعلق بها بشكل مباشر حتى لانبتعد عن الموضوعات التى نحن بصددها •

وأيا كان الامر فان تبنى سياسة الحرب الباردة فى الظروف الراهنة لا يعنى شيئا سوى « التخويف » و « ممارسة الضغط » وهلم جرا ، كما يعنى أيضا تقوية وخلق وتنظيم قوى الحرب فى البلدان الرأسمالية ،

وبتعبير آخر فان هذه السياسة ، سواء أحببنا ذلك أم كرهنـــاه ، تعنى التحضير للحرب ، وهنا بالتحديد يكمن خطر السياسة الصينية الحالية ٠

وعلى أية حال فانه ليس هنــاك معنى للحديث عن الســلام وعن التعايش السلمى ثم التهديد بالحرب من وجهــة نظر « الأســاليب » أو « الاهداف التكتيكية » ٠ ان النضال من أجل الســلام له لغته ومعانيه الخاصة ، ولا تنتمى التهديدات بالحرب ، والضغط علىالآخرين وتهديدهم أو الحرب الباردة الى هذه اللغة وتلك المعانى ٠ ومن يريد ابداء الاقتناع بالنضال من أجل السلام والتعايش فعليه أن يناضل أولا وقبل كل شىء ضد هذه الظواهر ٠

ويوجد فى الغرب دوائر تنادى بسياسة « لاحرب ولا سلام » ويبدو أن بعض كتاب مقالات الصحافة الصينية يحبذون سياسة عالمية مشابهة ، ولكن كلا من أولئك وهؤلاء ، سياسيون قصيرو النظر لدجة كبيرة ٠ فقد أثبتت هذه التكتيكات التى أيدها تروتسكى وآخرون حتى فى أيام ثورة أكتوبر ، عدم جديتها ٠ وقد عارضها لينين بحزم ٠ والآن ، وعندما يقف معسكر فى مواجهة الآخر فان هناك طرفين هائلين تتركز لديهما أســلحة الحرب ٠ وليعلم كل انسان متزن الفكر أن تكتيكات « لا حرب ولا سلام » لا تعنى شيئا آخر سوى التحضير للحرب والتحريض عليها ٠

ولهــذا السبب بالتحــديد لا يوجد هنــاك تمييز حقيقى بالمرة بين التهديد أو التوعد بالحرب وبين التحضير لها والتحريض عليها ٠

ومن البديهى **أن رسم الاهداف والمطالب المناســبة أمر يختلف عن اكتشاف الوسائل والاسلحة الفعالة لتحقيق هذه الاهداف الملائمة لظروف نضال معينة** ٠ وهنــا نجد التناقضــات لا فى ســياسة الصين الخارجية فحسب ، وانما أيضا فى ميدان هام من سياستها الداخلية ٠ وبالتعرض لمشاكل الصينيين الخاصة داخل حدودهم الوطنية المتسعة نجد أن موقفهم من الاشتراكية كنظام عالمى لا يزال موقفا متوجسا تنقصه الثقة الكافية فى قوة العالم الاشتراكى ٠ وان السبب الحقيقى لهذا الموقف هو ضعف القوى الداخلية للصين الاشتراكية ٠ وقد صــمم القادة السياسيون فى الصين على سياسة ليس فى امكانها حل المشاكل التى تواجهها فحسب ، بل هى على العكس تؤدى الى زيادة المصاعب التى يجب على الثورة الصينية أن تتغلب عليهــا ٠ ولم تقف الدوائر القيــادية فى الصين ضــد سياسة التعايش التى هى بمثابة المســار الاسرع لتحطيم الحصار المضروب حول الصين فقط ، بل صممت أيضا على كل أنواع الأعمال العــالمية التى تثير

بالتحديد مقاومة جماعية من جانب تلك الشعوب التى تعتبر أكبر وأقرب الحلفاء الطبيعيين للصين فى النضال للتغلب على التخلف لدى الشعوب الآسيوية ، وقد قطعت هذه السياسة التى صمم عليها القادة الصينيون شوطا بعيدا لدرجة أن هذا البلد العظيم بدأ يثير لا المشاكل البارزة وانما مشاكل الحدود التافهة جدا ـ مما لا يتآلف أبدا مع روح السياسة الاشتراكية الخارجية • وبهذا الشكل فان السياسه الصينية تخلق الخوف بدلا من الثقة بين جيرانها ، وهذا الخوف يعطى قوة جديدة لسياسة الحصار فى اللحظة التى بدأت فيها هذه السياسة تنفضح وتضعف بشكل واضح •

ومما يفوق كل ذلك فى الاهمية هو أن اصرار الصين على اخضاع مصالح وآراء العالم الاشتراكي لآرائها ومصالحها الخاصة قد وضعها أيضا فى صراع مع القوى الاشتراكية • ومن الواضح وضوحا جليا أن مثل هذه السياسة لا تيسر للصين حل مشاكلها الداخلية ، كما أنها تلحق بعملية اتساع نطاق الاشتراكية فى العالم ضررا فادحا •

ولهذه السياسة الخارجية اصداؤها ولا شك على التطور الداخلى للصين بمعنى ازدياد المركزية السياسية والاقتصادية ، وبذلك تزداد قوة جهاز الادارة والدولة فى الحياة الداخلية ومجموعها • وليست هذه الظواهر مجرد المعين الذى لاينضب لانحرافات تسلط الدولة البيروقراطية على عملية التطور الاشتراكي ـ وللتطلعات المحافظة نحو صيانة وتدعيم أشكال الدولة الرأسمالية فى العلاقات الاجتماعية ـ بل ينتج عنها كذلك مصاعب اقتصادية جديدة ، ينتج عنها أولا وقبل كل شىء معدل أكثر انخفاضا فى نمو انتاجية العمل ، بل ومزيد من الانخفاض فى أرباحية الاستثمارات ، ويظل هذا التطور يفرض أكبر التضحيات على الشعب ويزيد من استفحال تناقضات التطور المادى ـ ان ذلك كله هو فى الحقيقة نوع من التطور الحلزونى الذى يدفع هذا المفهوم بأسره الى طريق مسدود •

وللتطور الاجتماعى قوانينه التى لا تقهر ، ولن تخضع لرغبة أى انسان حتى ولو كان صينيا • وسيعانى الهزيمة كل من يحاول انكار هذه القوانين باتباعه سياسةقائمة على الاعتبارات الذاتية، بدلا من الوقوف على أرض صلبة من التحليل الواقعى للظروف الحقيقية • ولن يكون فى استطاعة الشيوعيين الصينيين ان آجلا أو عاجلا تجنبالشعور بأن نتائج

ســياستهم التى تحتقر القوانين الموضــوعية لا تتحــكم فى شىء ما • ولا يســعنا الا أن نأمل فى أن الهزائم التى بدأت تجـذب انتبــاه الشيوعيين الصينيين الى المخــاطر التى تواجههم ، ســوف تكون حسب كلمة لينين العامل الذى يقنعهم فى النهاية بهجر المسار السياسى العقيم الذى لايمكنه تقديم الحل النهائى لاية مشكلة من مشكلاتهم •

الفصل الخامس عشر

الخلافات الفكرية بين الصينيين واليوغوسلاف

ان التاريخ نفسه يخلق لكل داء دواء ٠ وأن ظاهرة التناقضات التى بدأت تظهر بوضوح فى تطورات العالم الاشتراكى تسبب الانزعاج والخوف عند البعض من ضيقى الأفق ، ولكنها فى نفس الوقت تساعد أولئك الذين يناضلون من أجل الاشتراكية على أن يدركوا بشكل أفضل حقيقة المشاكل الراهنة للاشتراكية ، ولا يكتفون بتفسير هذه الظاهرة أو تلك خلال مجرى التطور ، عن طريق الترديد السهل لعبارات جامدة مصبوبة فى قوالب ٠

وان ذلك ينطبق أيضا على الخلافات الفكرية بين الصينيين واليوغوسلاف ٠ ويجب أن يكون واضحا لكل ماركسى أن هذه الخلافات لم تكن نتيجة أى نزاع فكرى نظرى مجرد حول تفسير الماركسية ، كما أنها لم تنتج بأى شكل عن « الشيوعية الوطنية » اليوغوسلافية ، أو نتيجة لتنكر يوغوسلافيا لمبادىء الأممية الاشتراكية وهلم جرا ، مثلما أبرز مرارا فى الهجوم على الشيوعيين ٠٠ اليوغوسلاف ، ولكن هذه الخلافات فى جوهرها هى انعكاس للتناقضات الحقيقية لتطور الاشتراكية التى نشأت فى الواقع عن أن الاشتراكية بنماذجها ، وطرقها ، ووسائلها ليست عملية تتكرر فى كل وقت وكل مكان متخذة نفس الطريق ، بل هى عملية لا تظهر أبدا فى شكل « نقى » متحرر من تأثير العناصر المادية والايديولوجية للمرحلة والبيئة والظروف المعينة ٠

وفى مثل هذه الظروف ، فان للشعب حرية اختيار طرق وأساليب التطور الاشتراكى ، وهذا هو المبدأ الذى لا يضمن المساواة بين الشعوب فحسب ، بل يكفل أيضا ــ وبشكل متزايد ــ تقدما وتطورا أكثر سرعة وأقل ألما للعالم الاشتراكى ٠ ولهذا السبب بالتحديد ، ونظرا للحملة الصينية المعادية ليوغوسلافيا فقد ناضلنا دائما ولا زلنا نناضل حتى اليوم من أجل هذا المبدأ ، وينطبق هذا أيضا على مبدأ التضامن الاشتراكى الذى يعبر عنه بوسائل وأعمال وتنظيمات متنوعة ، ولكن الامر الجوهرى فى هذا المبدأ هو أنه توجد قوى الاشتراكية حول القضايا الخاصة بالدفاع عن الانتصارات الاشتراكية وتدعيمها ٠ وان جوهر هذا المبدأ ليس أية وحدة شكلية أو أى انضباط آلى ، ولكنه شعور عميق وحقيقى بتماثل المصالح الاولية للقوى الاشتراكية فى جميع أنحاء العالم ٠ ولا يقوم هذا الشعور الا على أساس المساواة الكاملة فى الحقوق وفى الحكم الذاتى لكل الشعوب على الطريق الاشتراكى ٠

وقد كتب انجلز فى زمانه :

« انالحركة العالمية للبروليتاريا الاوربية والامريكية قد أصبحت

قوية بحيث لم يعد شكلها الاول الضيق (العصبة السرية) وحده قيدا عليها ـ وانما أيضا شكلها الثانى المتناهى الاتساع (رابطة العمال الدولية العلنية) ولذلك فان الشعور بالتضامن القائم على ادراك الوضع الطبقى المتماثل يكفى لخلق وتدعيم نفس الاحزاب العظيمة للبروليتاريا بين عمال كل البلدان وكل اللغات » (١) .

وما الذى يمكن أن يقال اليوم عن قوة الحركة العاملة العالمية ؟ وهل يمكننا أن نعتبر أن ادراك تطابق المصالح الطبقية الاساسية للقوى الاشتراكية أقل تطورا اليوم عما كان عليه ؟ ومن الواضح أنه لا يجب النظر الى الاشياء بهذه الطريقة ، لأن معنى ذلك ليس انكار خبرة عصرنا فحسب ، وانما أيضا انكار التعاليم الماركسية نفسها عن الصراع الطبقى . وعلى أية حال ، فانه لكى يكون هذا الادراك هو الاساس الحقيقى للتضامن الاشتراكى ، فان مبدأ التضامن لن يتعارض أبدا مع مبدأ التقرير المستقل واختار الاشكال المتباينة لطرق التطور الاشتراكى فى التطبيق ، وذلك يتضمن أيضا السياسة العالمية للاشتراكية ، وبتعبير آخر ، فان الاشكال الواقعية للتضامن يجب الا تمحو امكانية التوضيح الديمقراطى لمشاكل التقدم الاشتراكى باختبارها خلال التطبيق المتباين وخلال الاشكال الديمقراطية لصراع الافكار .

ولهذه الأسباب ، لم نتجنب أبدا نحن الشيوعيين اليوغوسلاف المناقشة العلنية بين الشيوعيين فى البلدان المختلفة حول المشاكل الواقعية الراهنة ، وحول مشاكل تقدم الاشتراكية . وفى الحقيقة أننا قد اعتبرنا هذا الامر مفيدا ولا غنى عنه على شرط الا يؤدى الى تحطيم الشعور بالمسئولية المتبادلة تجاه القضايا المتعلقة بتضامن القوى التقدمية ، وان ذلك ينطبق أيضا على الخلافات بين وجهات نظرنا وبين المفاهيم الصينية حول السياسة الاشتراكية العالمية ، واذا أراد الشيوعيون الصينيون حقا أن يوضحوا من الناحية المبدئية أيا من المشاكل المعاصرة لزيادة آفاق تطور الاشتراكية ، واذا ظلت هذه المناقشة داخل الحدود والاشكال الملائمة وبين رفاق متساوين ، فانها تكون مناقشة مفيدة حتى لو كان من المستحيل جعل وجهات نظر الجانبين تلائم كل منهما الأخرى . كما أننا لم نتمسك أبدا بأن هدف هذا النوع من المناقشات هو ازالة كل الخلافات بين الأفكار ، فهذا أمر أصبح من المستحيل حدوثه اليوم وذلك لأن الشيوعيين ليسوا

(١) مختارات : ماركس وأنجلز ـ الناشرون الدوليون نيويورك الجزء الثانى صفحة ٢٦ ـ ٢٧ .

مجرد حركة ثورية تناضل منذ أمد من أجل السلطة ، ولكنهم أصبحوا على رأس عدد من الدول ، وأصبحوا يعبرون عن أكثر التطورات المادية تباينا. وان اختلاف الافكار حول مشاكل التكتيكات المتباينة ، وحول أساليب النضال أو حول طريقة الاقتراب من الحل لهذه المشكلة أو تلك لا يمكن أن تكف عن الوجود في ظل الظروف الراهنة ، وأيا كان الامر ، فان مثل هذه المناقشات تميل بالتحديد ، على الرغم من اختلاف الافكار ، الى تأكيد التضامن الذى لا غنى عنه للقوى الاشتراكية والتقدمية . لأنه يعزز الاشتراكية وتقدم البشرية فى مجموعه ، كما أنه بمثابة الحصن ضد هجمات الرجعية .

وللوصول الى هذا النوع من المناقشة بين الشيوعيين فانه يجب رفض الاساليب التى قدمها ستالين ، والتى تعلن لكل انسان لديه فكرته الخاصة عن السياسة الاشتراكية بأن هذه الفكرة هى من قبيل الخيانة للاشتراكية ذاتها ، وبتعبير آخر ، أن عبادة الفرد والاساليب السياسية الناتجة عنها قد أوقفت أخيرا ، فيجب أن تتحرر أيضا المناقشات بين الشيوعيين من أساليب الافتراء ، والمقاطعة ، والاكاذيب ، والتشويهات ، والدسائس ، ومن التعلق بكل أشكال اليفط الايديولوجية . وأن الهدف من ذلك على وجه التحديد هو أن نكفل التضامن الاشتراكى بغض النظر عن الخلافات فى الافكار ، وأيضا لكى تضمن التضامن الاشتراكى حول المصالح المشتركة على أساس المساواة التامة .

وفى هذا الاطار يكون النقد المتبادل بأسلوب ديمقراطى هو الشىء الممكن والضرورى . وأن الشيوعيين اليوغوسلاف لايعتبرون أنفسهم معصومين أو منزهين عن الخطأ ، ولكنهم لا يسمحون لأى انسان مهما كان الأمر أن يستأثر بحق تقرير الصواب ، أو تقرير طرق تحقيق الاشتراكية سواء فى السياسة الداخلية أم الخارجية . ولهذا فان النقد وسيلة لامفر منها لتوضيح نقاط الخلاف ، وكما قال لينين فعلا ، فان النقد يمكن أن يتخذ شكلين ، ويتحدد شكل كل منهما وفقا لما يستهدفه النقد ، أحدهما هو منهج النقد الذى يهدف الى الهدم ، والشكل الآخر هو منهج النقد الذى يمد يد المساعدة ، ويجب أن يسود منهج النقد البناء بين الشيوعيين وكل الاشتراكيين وكل القوى التقدمية حتى فى حالة وجود خلافات عميقة جدا فى الآراء حول مسائل مبدئية . وان لهذا النوع من النقد لغته ، ومنهجه، وأشكاله الديمقراطية الخاصة .

وقد كافحنا دائما خلال نقدنا للسياسة الصينية من أجل الابقاء على

مستوى ذلك النوع الأخير من النقد ، وذلك على النقيض من الدعاية الصينية المعادية ليوغوسلافيا وعلى الرغم من كل الاهانات ، كما أننا عقدنا العزم على مواصلة العمل بهذا المنهج • وليست لدينا أية رغبة فى فرض آرائنا على الشيوعيين الصينيين لا بسبب عدم وجود الرغبة أو القدرة على القيام بهذا العمل فحسب ، وانما أيضا لأن مثل هذه الأعمال تصبح مضادة بشكل أكثر عمقا لتلك المبادىء الديمقراطية التى نتمسك بها والتى يجب أن تبنى وتتطور عليها العلاقات المتبادلة للشعوب والتنظيمات فى العالم الاشتراكى • وان الخلافات التى لا يمكن القاؤها جانبا يجب تسويتها عن طريق التطور والخبرة لا عن طريق الاثارة العدائية للشعور المريض •

ولكن لا يسعنى الا أن أوضح أننا لن نسمح لأى انسان أن يفرض أفكاره علينا عن طريق الضغط سواء كانت أفكارا سياسية أو شيئا آخر • وان النقد المتبادل أمر يختلف عن استخدام الضغط فى العلاقات المتبادلة• ونحن نعتبر أن أى ضغط سياسى ـ خارج اطار النقد الديمقراطى ـ فى العلاقات بين البلدان الاشتراكية هو ممارسة للتسلط بالقوة • ولهذا السبب بالتحديد لا يمكننا قبول ذلك الأسلوب الذى يعنى أن على الشيوعيين اليوغوسلاف الوقوف فى صف واحد مع الاشتراكيين الصينيين على الرغم من أن الشيوعيين الصينيين ليس لديهم أية التزامات مشابهة قبل الاشتراكية اليوغوسلافية •

وقد استرجعت الحملة الصينية الجارية المعادية ليوغوسلافيا كل تركة الأكاذيب لحملة ستالين عام ١٩٤٨ وفى الأعوام اللاحقة • ومن الواضح أنه ليس لدينا ما نفعله بالنسبة للنقد أو المناقشة التى تكلمت عنها آنفا ، ولكن لدينا ما نفعله بالنسبة للضغط السياسى الذى يهدف بالتحديد الى أن نصمت ازاء هذا النقد وتلك المناقشة • ويريد القادة الصينيون بوضوح أن يخلقوا بذلك الهجوم الوحشى ضد الشيوعيين اليوغوسلاف جوا لا يستطيع فيه كل من لا يردد بشكل آلى العبارات الراديكالية المتطرفة والانعزالية للقاموس الصينى الا أن يعلن أنه حليف « المراجعة اليوغوسلافية » • وهذا فى حد ذاته دليل على أننا لا نواجه هنا تضامنا اشتراكيا ، ولكننا نواجه صراعا يهدف الاحتكار السياسى والايديولوجى لتحقيق مفاهيم معينة عن الاممية وعن السياسة الداخلية للاشتراكية •

ومن البديهى ، أنه حينما نواجه بمثل هذه الاتجاهات وتلك الأساليب من الضغط على بلد اشتراكى ، فانه لا يمكن أن نظل صامتين • ولا يمكن

أن نسمح للدعاة الصينيين أن يلطخوا يوغوسلافيا الاشتراكية وأن يفتروا عليها دون أن نرد عليهم ، لأنهم بهذه الافعال انمـــا يحطمون على الأقل الآمال الأكثر تقدمية فى مجموعها » والتى من بينها ولا ريب أكثر الآمال ثورية وتقدمية ونبلا وهو بالتحديد النضال من أجل السلام والتعايش السلمى ٠

وربما يوجد فى بعض البلدان من يدينـون ردنا على أبطال الحملة الصينيه المعادية ليوغوسلافيا معتبرين أن هذا الرد يعوق المصالح العامة للاشتراكية ٠ وربما يعتقد هؤلاء الناس أن الصمت أكثر فائدة ، ولكن يوغوسلافيــا الاشتراكية لديها أيضا مصالحهــا الخاصة ولن تسـمح لأى انسان باسم « اشتراكية » زائفــة أن يدوس على هـــذه المصالح بأكثر الأساليب فجاجة ٠ ولكن ذلك ليس أكثر الأشياء أهمية ٠ فاذا سمحنا لأى انسان أن يصطاد فى الماء العكر ، فان ذلك يكون أكثر ايلاما من أى نزاع عام ٠ وذلك فى الظروف التى لا تعلم فيها الجماهير العاملة حقيقة كل ما يدور ، وان الشيوعيين اليوغوسلاف ملتزمون أن يعلنوا لشعبهم — وليس لشعبهم فحسب وانما أيضا للبروليتاريا العالمية فى مجموعها — عن الجوهر الحقيقى للخلافات الصينية اليوغوسلافية ٠

وفى النهاية ٠ فان اتخاذ موقف يهدف لمعالجة المشـــاكل الكبيرة والحاسمة للاشتراكية المعاصرة ، هو بالتأكيد واجب تاريخى للجيل الحالى من الاشتراكيين الثوريين ولا يمـــكن التخلى عنه ٠ ولهـذا السبب فان الشيوعيين اليوغوسلاف مقتنعون بثبــات ان الاجابة الصريحة المتكافئـة المعلنة والمنشورة بشكل علنى للرد على الهجمات الصينية لا يمكن الا أن تكون فى مصلحة قضية الاشتراكية ، لأنها تزيد وضوح المشاكل التى هى موضع المناقشة ٠

واسمحوا لى أن أضيف ، ان القوى الرجعية تأمل دون جدوى أن تنتزع لنفسها بعض المكاسب من هذا النزاع ، وان كل ما يؤدى الى تدعيم الخط السياسى القائم على أساس التعايش السلمى سوف يدعم أيضا ثقة الشعوب فى امكانية تحقيق ســـلام دائم » ويزيد من عدد وقوة أنصار التعايش فى العالم الرأسمالى ، ولن يحدث هذا فقط وسط الطبقة العاملة والحركات المعادية للامبريالية فى ذلك العالم ، وانمـــا أيضا فى وسط الدوائر المتزنة من المجتمع التى لا تريد أن تجر البشرية الى حرب عالمية جديدة ، وهؤلاء هم الذين بدءوا يدركون انه لا مفر مما هو تاريخى ومما لا يمكن تجنبه فى تطور المجتمع ٠

وفي النهاية ، من الضروري التأكيد للمرة الثانية انه من الخطأ البالغ النظر الى دور الثورة الصينية وتطورها في مجموعه بمنظار الخلافات التي نناقشها هنا • ويجب ألا ننسى الدور الهام الذى لعبته الثورة الصينية في عصرنا الراهن • انهــا الثــورة التي وجهت الى النظام الامبريالي والاستعماري في آسيا والقارات الأخرى ضربة قاتلة ، ولعبت بذلك دورا حاسما في التغيرات الجذرية لعلاقات القوى في مجموعها على نطاق العالم • ولايزال الرجال الذين قادوا الثورة في أشد الظروف قســوة ، والذين أثبتوا بكفاءاتهم انهم عامل من أهم عوامل الانتصار ــ لا يزالون يقودون الصين اليوم • ونتيجة لذلك فمهما تكن الانحرافات الوقتية في السياسة الصينية ، فنحن على ثقة من أن الاشتراكية الصينية ستتغلب عليها • ولكن ، ولهذا السبب بالتحديد ، من الضروري جدا نقد هــذه الظواهر بشــــكل علني ، ذلك لأنها أيضــــا مصدر الحملة الصــــينية المعادية ليوغوسلافيا •

وقد قدم الشيوعيون اليوغوسلاف مساعدة سياسية فعالة للثورة الصينية خلال تطورها • وعندما قامت الحكومة الثورية في الصين الجديدة كانت يوغوسلافيا من أول المعترفين بها وقدمت لها التأييد في داخــــل الامم المتحدة وخارجها • وفي الوقت الذى طبق فيه خط ستالين المعادى ليوغوسلافيا لم تر الحكومة الصينية أنه من الضروري أن ترد على المقترحات اليوغوسلافية الخاصة باقامة علاقات طبيعية بين البلدين • ولكن لم يغير ذلك على الأقل ســــياسة الصــداقة مع الصــــين الثورية التي تبنيها يوغوسلافيا ، كما أن هذا لم يضعف من تأييد يوغوسلافيا لمطالب الصين العادلة في المسائل السياسية الدولية •

تلك هي نظرتنا للصين الجديدة ولعلاقتنا معها ، ونحن نرغب في أن تتمكن شعوب الصين من رؤية جهودهــــا في بناء الأساس المــــادى للاشتراكيين تتوج بأعظم النجاحات ــ ونأمل بالاضافة الى ذلك أن تقوم العلاقات الصينية اليوغوسلافية على أساس مبدأ المساعدة المتبادلة بينهما في عملية البناء الاشتراكي ، دون أن يفرض أحد على الآخر خططا سياسية أو ايديولوجية جاهزة • وبهذه الروح سوف نواصل بعناء أكثر تقديم كل ما يمكن في طاقتنا لضمان تحسن علاقتنا مع الصين ومع الشيوعيين الصينيين لأنه بمثل هذا الأساس ، يمكن أن يتطور التعاون بين البلدان الاشتراكية بنجاح •

ولكن ذلك لا يعتمد علينا وحدنا . فاذا كان ثمن هذا التعاون هو التخلى عن مبادىء سياستنا الاشتراكية الداخلية والخارجية المستقلة . ـ المستقلة لا عن مصالح الاشتراكية ، بل عن مفاهيم ملفقة بطريقة ذاتية من جانب الآخرين ـ وأعنى هنا الحزب الشيوعى الصينى ، فانه يجب أن يقال فورا اننا لسنا على استعداد لتقديم مثل هذا الثمن ، لان ذلك يعنى أن نتخلى استجابة للضغط الخارجى عن المبادىء الأكثر جوهرية والأساسية التى يجب أن تحكم العلاقات بين البلدان الاشتراكية .

فهرس

الموضوع **الصفحة**

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

١٩٦٧





الثمن ٣٤ مـ